قيامة العنقاء . .

جائزة الدكتور نبيل طعمة للإبداع

دورة ٢٠١٠

المركز الثاني

الإهداء

إلى ابني الذي أمطرت عيناه

أقماراً على دروبي المعتمة..

وإلى الرجل الذي لملم تلك الأقمار

وصاغ منها سمائي..

لا يوجد حجرُ شطرنج أسود ولا أبيض..
فهو يأخذ لون الأصابع التي تُحرّكه..

ـ ٠ ـ

. حتّام تُطاردني يا عسّاف.. تلبسُني كشيطان.. تتغلغل فيّ، فلا أستطيع منك فكاكاً..؟!

دعَكَ غريب الورقة الأخيرة بعصبيّةٍ، ورمى بها شبح جدّه، الذي اختفى في الجدار..

ساحباً وراءه قهقهاته كذيلٍ لا ينتهي..! اختفى..؟ لا.. لا.. بل توارى كمحاربٍ عنيدٍ يُناور عدوّاً..!

غريب لا يُصدّق أن جدّه يتركه وشأنه.. إنه ما يزال يُحوّم في فضاء المكان كاللعنة..!

غريب.. هذا هو اسمه، الذي لا يعرف إن كان يُحبّه، أو يكرهه..! تماماً كشعوره تجاه جده عساف..! الذي امتلك قريةً اسمها (المسكينة)، علّقها من أثدائها بسقف شهواته، وراح يمصّ من ينابيعها لبن الحياة.. صَلبها، ومضى يعبث في عشب أنوثتها اليانع، حتى لفظت على يديه آخر شهقات لذّتها..! أكان اسمها (المسكينة) من قبل..؟ وهل ولد معها هذا الاسم البائس..؟! يقال إن الأسماء قدرٌ لا مهرب منه.. جلدٌ ثانٍ يلبس الإنسان منذ بداية تشكّله..! فلا يليق به اسمٌ آخر..! فهل ينسحب هذا على الأماكن أيضاً..؟ أتولد المدن والقرى، وتولد معها أسماؤها..؟ أم أن عساف قد لعب بقدر تلك القرية، سمل كبرياءها، فغدت مسكينة..؟ فالمسكينة كانت تحمل اسم (العنقاء) فيما مضى.. فمتى صارت العنقاء مسكينة..؟ أتراها بلغت سنّ اليأس باكراً، فيبس رحمها، وسكنتها المسكنة..؟! أم تراه اعتيادها على النكبات، قد حلّى في فمها مذاق المرار، وبهّر طعم الهوان على شفتيها..؟ فتخلّت عن عنفوانها لتصبح مسكينةً..!

(مسكينةٌ أنت يا (المسكينة) حقاً.. كم عاث فيكِ جدّي جنوناً..؟!

وأبي.. أبي ضاع..! يبسَ كبذرة الرّحمة في قلب مُدمنِ الآثام..! ضاع.. وضيّعني..)

هكذا راح غريب يُهلوس، أو يُفكر بصوتٍ مرتفع:

. يا (المسكينة) يا ضيعتي، وملفاي..!

يا (المسكينة).. يا بلدي البعيد القريب..! يا وطني ومنفاي..! سأعود إليك كارهاً.. أو مُحباً عاشقاً.. أرسمكِ كما أنتِ جحيماً وجنّةً..! ضيعةً وضياعاً.. وطناً ومأوى..!

أنا عذابُك الموروث يا بلدي..! فهل أستطيع مواجهتك..؟! كلما ظننتُ أني تخلّصتُ منكِ، تخفقين في قلبي أكثر.. فأعود..!

لستِ يا بلدي إلا أطلال ذكريات..! أهلُكِ أشباحٌ، أو هلامٌ يمشي بدأبِ النّمل.. ولكنْ.. كأنما دون هدف..! وأنا.. أنا.. لماذا أفشل دائماً حيث ينجح الآخرون..؟! رغم أني حفيد عساف، الذي لا يعرف الهزيمة..! عساف الـ.. لا.. لا.. لا أحد يلعن جده، أو يصفه بالخسّة، والـ..

غريبٌ أنت يا غريب، كيف نجحت (ظلال) في فكّ عقدة لسانك، لتفضح أمامها سلالتك، و(مسكينتكَ)..؟! كيف يا (المسكينة) تركتِ ظلال تقرؤكِ بكلّ هذا العمق..؟! أتُراكِ مرآتها، أم هي مرآتكِ..؟! لماذا جلدتِ نفسك بهذا العمل..؟

ظلال:

ذاتك لي.. فلماذا تعذبينها، وهي كل ما أملك..؟ لماذا تجرّينها عاريةً على دروب الشوك..؟!

(المسكينة) هي أنتِ يا ظلال..! فكيف تجلدين أعز ما أملك..؟!

حبيبتي أنتِ.. اسمك يغمرني.. يأخذ بيدي.. والليل يقطع، كمديةٍ تحزُّ الروح..!

هل أنت (المسكينة) حقاً..؟ هل أنتِ ضيعتي يا ظلال..؟! كيف إذاً كتبتِ قصتكِ بالدم.. حفرتها حرفاً حرفاً على لحمي ولحمكِ..؟! كيف استطاعت مديتكِ تحمّلَ كلّ هذه النيران، البراكين، الجليد، الجنون..؟! كيف..؟!

يرفع مخطوط الرواية بين يديه، يقرأ عنوانها كمن يتملّى وجه امرأةٍ، أفنى عمره عاشقاً لها، وهو يُدرك أنها تسبح في بحارٍ أخرى:

. (قيامة العنقاء). ياه.. حتى العنوان يا ظلال..! لم تتركي عصباً في ضيعتي، إلا وحوّلتهِ وتراً تعزفين عليه ما تشائين..! حتى اسمها لم تعتقيه..!

يضمّ الرواية إلى صدره، وهو يترنّم باسمها، كصوفيّ يُرتّل عشقه ابتهالاتٍ وإنشاداً:

. المسكينة. آهٍ يا (المسكينة).. آه.. هذه الرواية جرحي.. وجعي.. فهل أستطيع أن أحوّلها مسلسلاً يُعرض أمام الملايين..؟ (دراما)..؟! عمّن..؟! عن جدّي..؟! أو..

يُقهقه جده ساخراً..! وترنّ ضحكاته في أرجاء المكان.. فيصرخ غريب مُرتبكاً:

. لا يا ظلال.. لا أستطيع.. أنا لستُ (توّاباً) لأجلد نفسي، وسلالتي بنبش قبورها..

هه.. هه.. سلالتي..! أية سلالةٍ هذه..؟! عساف الـ.. وأبي المحطّم.. وأنا.. هه.. هه..

لماذا يا (المسكينة ظلال) تفعلين بي هذا..؟! كيف تطلبين منّي ما لا أستطيع معه صبراً..؟!

ويهمّ بتمزيق مخطوط الرواية، التي تحكي فيها ظلال سيرة ضيعته(المسكينة)، لكن شبح الجد يصرخ به، يحاول خطف الرواية من يده، فتقع على المنضدة الحديدية، مفتوحةً على الصفحة الأولى، بينما يتهالك غريب على كرسيه مأخوذاً.. ويقرأ:

. ١ .

(حجّاً مبروراً وسعياً مشكوراً..)

كتبها محبّو الحاج عسّاف على باب داره المزين بالرّياحين..! احتفاءً بعودته من الحجّ.. توافدوا عليه مُهنئين مُباركين جماعاتٍ ووحدانا.. وكلهم يغبط الحاج الذي لم يكن يملك فلساً واحداً على

حدّ علمهم.. ومع ذلك ذهب إلى الأراضي المقدسة، وأدّى فريضة الحج، كيف..؟ لا أحد يدري..! بعضهم توقّع أنه استدان الكثير من المال لهذا الغرض، فالسفر إلى الديار المقدسة مُكلف..! أجل.. قال بعضهم لبعض.. لكن.. من أين..؟! والناس هنا يعجزون عن تأمين لقمة الطعام..! كادت الحيرة تُمزّقهم، وتفصم بعصاها عرى اتحادهم.. فسارعوا إلى تجاهلها، ورموا عن كاهلهم مشقة البحث، فالمهمّ في الأمر أن الرجل قد استدان، ودبّر الأمر بمعرفته..! فأكبروا فيه هذه التضحية..! أما الرأي الذي تمخّضت عنه قرائح الكثيرين: فيرى أن الرجل ذهب إلى الحج مشياً على الأقدام، ولم يدفع ليرةً ولحدة..! فالأرض قد طُويت أمام قدميه، إلى أن وصل مكة دون عناء.. ثم عاد بعد أداء الفريضة بنفس الطريقة..! احتجّ بعض المجتمعين عند مختار القرية على هذا الرأي، ووصفوه بالخرافيّ..

فارتفع صوت أصحابه مُنافحين عنه بشدّه:

. أنتم جهلة.. لا بل قليلو الإيمان..! فما الأرض إلا مطيّةٌ تُذعن لرغبة المؤمن..! تُطوى متى شاء، فتقصر طرقها، وتقترب منه الأماكن التي يودّ الوصول إليها..!

ضحك شابّ يجلس قرب الباب، وولّى هارباً، فلحق به آخران، تُطاردهما هراوة المختار اللئيمة..! وشتائم تزخّ على جلود وأرواح شباب هذه الأيام العابثين، المُتحلّلين من كلّ قيمة..! اقترب والد الشاب الذي افتتح مهرجان السخرية من المختار الغاضب، طبطب على كتفه، وقال مُعتذراً:

. إنها فورة الشباب يا مختار.. اعذرهم فالأيام كفيلة بتقويمهم.. وتعليمهم ما عجزنا نحن عن فعله، أما كنا مثلهم يا رجل..؟!

ابتسم المختار لذكرياتِ (الولدنة).. فهدأت ثورته تدريجيّاً..! زفر في وجوه الرجال بقايا غضبه، وأمرهم بترك الجدل . فهو من فعل الشيطان . واتّجه الجميع إلى بيت الحاج عساف، لتهنئته بما كرّمه الله به.. من إذعان الأرض لرغبته..

شاع هذا الرأي بين الناس، طار على أكفّ الريح، مُتقافزاً بين الأزقّة المُعبّدة بالطين، وعلى أسطح المنازل، مُزيحاً إلى غير رجعة جميع الآراء والتفسيرات، التي اجتهد الناس في البحث عنها، لمعرفة مصدر ثروة الحاج..! وراحت المُخيلات تنسج له أجنحةً، وتُطيّره في الفضاء..! حتى غدا الحاج عساف أسطورة المنطقة..! ولم يعد يُذكر اسمه إلا مع مُلحقاته التي تكبر يوماً بعد يوم:

(الحاج عساف الذي طويت له الأرض.. و..) وغيرها من الملحقات التي تشرح، وتُفصّل ما ظهر من كراماتٍ للحاج الجليل..! فهو منقذ القرية من الويلات، ما ظهر منها وما بطن..! سواء أكانت من صنع الطبيعة وجنونها، أو من تدبير المحتلّ وفنونه..! فوجوده فيها يكفّ يد الشرّ عنها، ويوسّع لها في الخيرات..!

وحده برهوم الوهب يعرف ما لا يعرفون..! اقتحم عليه مجلسه الذي يحفّ بالرجال السّابحين في عوالمه، سباحة الغبار على مسرح الضوء..! وقف أمامه، سدّد نظراته إلى عينيه، أراد أن يقول له:

. عزّك وجاهُك صنعتْهُ أصابعي الغبيّة..! أنا منْ كبّرك، وبنى عرشك الكاذب.. وأنا منْ يستطيع سحب البساط من تحتك..! أم تُراك تظن أني مُغفّل، لا أعرف أنك ضحكتَ على ذقني، يوم عرضتُ عليك الجرّة التي وجدتُها في أرضي..؟ قلتُ لك يا أخي عساف أنت ابن مدينة، وأنا رجل فقير.. لا أعرف كيف أتصرف بما وجدت، وأخاف أن يضحك عليّ تجار الآثار، ويأخذون جرتي الثّمينة بتراب المال..! خذها يا عساف إلى المدينة، واسأل كم تساوي.. اسأل أكثر من واحدٍ أرجوك، وبعها لمن يدفع فيها أكثر.. ولك مني حصّة مجزية..!

احتضنْتَ الجرة بلهفةٍ أفرحتني..! أحسستُ أنك تحافظ عليها، وعلى ما بداخلها من نقود قديمة كأنها لك.. غبتَ ثلاثة أيامٍ وعدتَ إليّ لتقول بدمٍ بارد:

. لقد عادت الجرة إلى أصحابها الشرعيين يا أخي، عادت إلى الحكومة..! صدقني لا أعلم كيف عرفوا بأمرها، وقبضوا عليّ وأنا أسلّمها للتاجر الأجنبيّ، بكيتُ بين أيديهم، رجوتهم أن يعوضوني عمّا فيها ببعض ثمنها، لكنهم أصروا على استردادها، وصرخوا في وجهي: إنها مال الحكومة، مال البلد أيها الخائن..! وأخذوني إلى السجن، ولولا معارفي الكثر، وأقربائي الواصلون لما خرجتُ منه..! لكن اطمئنّ يا أخي فلم أذكر اسمك عندهم، كيلا تدخل السجن، وتذهب أرضك..! فلو لم أقل لهم إن الجرة لي أنا، وجدتها في مغارةٍ بين قريتنا والقرية المجاورة، لكنتَ الآن في خبر كان، ولتحولت أرضك إلى وقفٍ للآثار.. الأمر ليس لعبةً يا برهوم، والحكومة لا تلعب، ولا تستهين بحقها أبداً..! احمد ربّك على سلامتك وسلامة أرضك يا رجل..!

ولما رأيتَ دموعي تسحّ على لحيتي، ابتسمتَ بثقة.. وقلت:

. أنت رجل طيّب يا برهوم، والله سبحانه وتعالى لا يريد أن يلوّث قلبك بالحرام..! صرختُ مقهوراً:

. حرام.. أيّ حرام..؟!

قلتَ ببرود:

. نعم حرام.. فالمال ليس لك..! لأنك لم تتّعب وتشقى لتجمعه.. الله يحبك يا برهوم..! ولا يُريد لك أن تتغيّر، وتنسى دينك.. فضياع الجرّة خيرٌ، يجب أن يُفرحك..! ملعون أبو المال.. كم يُخرّب النفوس..! أتصدّق..؟! في البداية حقدتُ على ذاك النجس الذي بلّغ عني.. لكني بعد ذلك صفحتُ عنه، ودعوتُ له بالخير.. فقد أنقذك من حيث أراد أن يضرّك..! اقتنعتُ بما قلتَهُ لي، فبردت أعصابي، حتى أنني فعلتُ فعلك، ودعوتُ بالخير لذاك الواشي الذي أنقذ روحي..!

وأيقنتُ أنه ليس من البشر..! فهو الملاك الموكّل بحراستي دون شكّ..! لكني اكتشفتُ بعد أيامٍ من ذهابك، أنك طرْتَ إلى الديار المقدّسة على جناحي جرتي..! طرت بمالي يا حاج..! فأنت لا تعلم أنّ من اشترى منك، جاء يبحث عنك طالباً المزيد..! قابلتُه في الطريق، كان يسأل عن بيتك، بكلماتٍ مكسّرة، قال إنه صديقك، وأن بينكما (بزنس).. قلت له أنا برهوم صديقه، ومثل أخيه، فما تعني هذه (البزنس)..؟ قل لي فقد أساعدك، باعتبار أخي عساف قد سافر للحج (عقبال عندك).. ضحك الغريب حتى بلّلني بصاقه، وهو ينطق بكلماتٍ ثقيلة، ويرسم إشاراتٍ، فهمتُ منها أخيراً أنه لا يحتاج للحج، فهو فرنسيّ مسيحيّ..! جفلتُ وارتجف قلبي عندما عرفتُ أنه من المحتلين..! أدرتُ له ظهري، وهممتُ بتركه يُكلم نفسه.. لكنه جذبني من يدي، فتلني بقوة لنكون وجهاً لوجه، وسألني بإشاراتٍ لا تخفى على أحد عن الآثار.. ولما رأى لوني المخطوف، أدرك أني خائفٌ مرعوب، ويبدو أنه عرف سبب فزعي..! فأخرج من جيب سترته رزمة نقود، لم أرَ مثلها في حياتي.. وقال:

. إنها لك، إن أحضرتَ لي أشياء عتيقة مثل..

ورسم بيديه شكل جرتي..!

أحسستُ أنّ قِدراً من الماء المغليّ سُكب على رأسي..! ورحتُ أهذي :

. جرتي، الآثار، الأرض، عساف، الحكومة..

بعد ذلك فهمتُ كل شيءٍ منه يا حاج..! كانت الصفقة مربحة، مربحة إلى حدّ لم يعد الرجل يستطيع انتظارك، لتعود من الحج، وتبحث له في أرضي عن صفقاتٍ جديدة..!

أراد برهوم أن يقول كل ذلك..! لكنه لم يجرؤ على قول كلمةٍ واحدة، حاصرتْهُ أعين الحاضرين، الذين رأوا في وقوفه الطويل أمام الحاج جنوناً.. ارتدّتْ نظراته حاسرةً، لتحرق ناظريه.. فتذوب عيناه قطراتٍ من دمٍ ونار..! فهمها الحاج عساف.. وصلته الرسالة فصيحةً من النظرة الأولى..! فصرخ في وجهه:

. أطلتَ الوقوف يا برهوم.. أعرف أنك تنتظر طلبات الضيوف لتُلبّيها..! فلا شيء يُسعدك أكثر من خدمتي، وخدمة ضيوفي..! لكن الحاج عساف لا ينتظر ضيوفه ليطلبوا.. فهيّا قدّم لهم الشاي..!

يُنقّل برهوم نظراته اللاذعة، بين وجه عساف ووجوه ضيوفه، ويُغادر مُتوعّداً..

من يومها لم يرَ أحدٌ من أهل القرية برهوم..! وزاد اختفاؤه من هيبة الحاج عساف، أضاف على كراماته كرامةً جديدة..! فقد اختفى برهوم على حدّ رأيهم: لأنه تجرّأ ووضع عينيه في عينيّ الحاج..! صحيح أنه بكى بعد ذلك إشفاقاً، وخرج يُهمهم بكلماتٍ غير مفهومة..! لكنه تجرّأ على كل حال..! فأصابته لوثةٌ، واختفى أثره من الدنيا..!

ـ ٢ ـ

تردّد مالك طويلاً قبل أن يجرؤ على (بقّ البحصة) التي يُخبّئها تحت لسانه..! قدّم رجلاً وأخّر أخرى.. لكنه حسم أمره أخيراً، ودنا من والده (الحاج عساف) بتودّدٍ لم يتعوّد إظهاره..! تناول كوب الشاي المُعتّق الذي لا يفارقه، رشف منه رشفةً كبيرةً بصوتٍ مسموع، أعاده إلى مكانه على الطاولة الصغيرة، المُقيمة مذ ولدتْ تحت شجرة التين الكبيرة، جلس قربه، تأمّله وهو يمجّ بأناقةٍ سيكارة التبغ العربي الثقيل، ويُخرج من فمه، وأنفه سحباً كثيفةً من الدخان، مُتلذّذاً بخدرها، مُراقباً ما ترسمه في فضائه من مردةٍ وعمالقة، يموتون كما يولدون على مفارق زوالٍ سريع..!

. ماذا تريد يا ولد..؟ قال الأب بلهجةٍ حازمة..

. أبي أنا.. أنا عاشقٌ يا أبي.. وأريد أن أُكمل نصف ديني.

قهقهاتُ عساف أقلقت سكينة المكان، الغافية هنا منذ قرون..! رماه بنظرةٍ لم يصله مدلولها، لكنها اخترقت عظامه.. ففرك الشابّ يديه مُتوجّساً..!

. نصف دينك..؟! قلت لي ستكمل نصف دينك، وأين هو هذا النصف حتى تُكمله أيها اللعين..؟!

ارتبك مالك.. وفي قلبه نبتَ ما يشبه الخوف.. لكنه لم يشأ أن يُضيّع فرصة مزاج والده الرّائق هذا المساء.. ابتلع ارتباكه، وأطلق ضحكةً تُستخدم في مثل هذه المواقف.. وهو يقول:

. هكذا يقولون يا أبي، فلا تأخذ الكلام بمعناه الحرفيّ..

. ومن هي يا ولد صاحبة الجلالة، التي أجبرتْكَ على التضحية بمغامراتك، لتكون من رعاياها..؟!

تهلّل وجهه، وهو يتخيّلها باسقةً غضّةً كشجرة حورٍ في أرضٍ مُدلّلة..! عيناها اليانعتان ترمشان له بحبّ.. وشعرها يخفق بين أصابع الريح، حقولَ حنطةٍ شقراء..!

. إنها.. إنها ظبية يا أبي.

. ظبية بنت سهيل ما غيرها.. ؟!

وتطاير الشّرر من عينيه.. إذ أدرك أن الأمر جدّي أكثر مما توقّع، سرتْ في جسده رعدةٌ تُنذر بما لا يحبّ.. تململ في جلسته بطريقةٍ أخافت الابن..! فبدأت ابتسامته تضمر شيئاً فشيئاً.. وذوى منكمشاً، ينتظر أن يطرده والده من حضرته.. لكن عساف لم يفعل، فهو يعرف جنون الشباب، ويخافه..! ولا يريد أن يخسر ابنه بتصرفٍ أخرق.. فلا بدّ إذاً من التّعقل..

. اسمع يا ولدي: سأكلّمك رجلاً لرجل، ارفع رأسك، واقترب مني، وكن على ثقةٍ أني أفضّل مصلحتك على كلّ شيء.

يقترب مالك متوجساً.. فهو يخاف هذه اللهجة الهادئة.. ويُدرك أنها نذير ريح سوداء لابدّ قادمة..! لكنه لا يملك إلا أن يُذعن ليسمع ما عند أبيه:

. الأمر يا ولدي أخطر مما تتصوّر..! فالقضية لا تتعلّق بالفتاة وحدها، والبنت لا غبار عليها.. لكنّ الإنسان ابن بيئته في النهاية، والشجرة بنت جذورها، لن تستطيع أن تخرج عنها ولو أرادت.. فهي تستمدّ غذاءها منها، وما ثمارها إلا بعض ذاك الغذاء..

. ما تقوله يا أبي صحيح.. لكني لا أفهم علاقته بموضوعنا..!

. لا تُقاطعني، سأشرح لك: هل رأيتَ شجرة رمانٍ تثمر تفاحاً..؟

لا.. قال مالك مستغرباً..!

. إذاً فهذا الزواج لا يُناسبنا.. وأنت يجب أن تتزوج فتاة من بيئتك، تربطك بها نفس الجذور.

. لكن يا أبي هذه بيئتنا، فأنا لا أتذكّر نفسي إلا هنا، في هذه القرية، والناس فيها طيبون يعاملوننا كأننا منهم..

يبتسم عساف بفرح داهيةٍ وجد ثغرةً في منطق مُحدّثه.. يُربت على ظهر ولده وهو يقول:

. نعم يا ولدي (كأننا منهم).. أنت قلتها بلسانك.. لكننا لسنا منهم.. أرأيت:

(الكلمة الصادقة ناطقة) كما يقولون..

. أبي أقسم أني لم أشعر يوماً بالغربة في هذه القرية، ولو أنك لم تذكّرني من حينٍ لآخر، أننا لا ننتمي إلى هذا المكان.. وتُحذرني من الذوبان فيه، دون أن أفهم قصدك، لنسيتُ الأمر من أصله..! فالجميع يتعاملون معي، كما يتعاملون مع كل الشباب هنا، وأنت بالذات تحظى بينهم بما لا يحلم بمثله الملوك..! أما الذين يتحاشون التعامل معك، فهم يخشونك، يخافونك يا أبي.. لا لأنك من بيئةٍ أخرى، فالأسباب أنت تعرفها تماماً.. ولا حاجة لتذكيرك بها، فأنا أخجل من قولها أمامك..!

ابتلع عساف جملة ابنه الأخيرة على مضض، فهو لا يريد أن يُشتّت الموضوع..

وما يودّ الوصول إليه الآن، أهمّ عنده من وخزاتٍ اعتاد عليها، مذ دخل أول فرنسيّ داره..! تابع حديثه باتّزانِ مَن يعقد صفقةً تقتلهُ خسارتها:

. كلامك صحيح يا بنيّ، كلّ ما تقوله صحيح.. لكننا في النهاية مختلفون عنهم.. نصادقهم.. أنا معك، نبيع لهم، نشتري منهم، نتعايش معهم.. كل ذلك لست ضدّه، أما أن نتزوج منهم، أو يتزوجوا منا، فلا.. وألف لا.. فدماؤنا يجب ألا تختلط بدمائهم، كيلا نذوب فيهم.. وننسى أصلنا..

. أبي أرجوك.. أريد أن أفهم بماذا نختلف عنهم..؟ لقد عاشرتُهم منذ مدّةٍ ليست بالقصيرة..

ولم ألاحظ هذا الاختلاف الذي تتحدّث عنه..!
نفد صبره، ولم يعد قادراً على التحمّل، فصرخ في وجهه:
. رأسي يكاد ينفجر من غبائك يا ولد..! كيف أفهّمك..؟!
. أبي.. قل ما تريد بصراحة لأفهمك.
. بصراحة.. نحن نختلف معهم في أمورٍ كثيرة..! كأنك لا تعرف أنهم من غير ديننا.. ثم.. نحن شعبٌ له خصوصيته.. وعلينا أن نحافظ عليها، ليكون لنا المجد الذي نستحقّ في يومٍ قريب..! أفهمتَ أم أشرح لك أكثر..؟
أدرك مالك أنه أمام بابين مُختلفين في كلّ شيء، إلا أنهما مُتّفقان على هدفٍ واحد، هو الوقوف في وجه زواجه وسعادته..! ولا مجال لاختراقهما معاً، فلابدّ إذاً من اختراق الجانب الأضعف.. فبدأ يسترجع بعض تصرّفات والده، ليعرف بالضبط أيّ البابين عنده هو الأقوى والأهمّ، كي يتجنّبه.. انكمش جسده، ووقف شعر ساعديه الفتيين، إذ تذكّر عصا أبيه الشابّة، وهي تلسع جلده، وتأكل من لحمه، كلما أخطأ في نطق الكلمات التي يُلقّنهُ إياها، وأظهر عجزه عن حفظها، والتّكلم بها.. ارتعدت أوصاله، ففي أذنيه ترنُّ شتائم أبيه، وهي تتدحرج وراءه في كلّ اتّجاه:
(هذه لغتك يا بن الكلب.. لغة أجدادك.. فكيف لا تهتمّ بها، وتفضّل عليها لغةً غريبة..؟!)
كان يعاقبه دائماً إذا استخدم داخل البيت لغة أهل القرية، لكنه لم يضربه يوماً إذا تقاعس عن الصلاة، أو اشتمّ رائحة التبغ من فمه في نهارات رمضان..!
نعم.. هتفت روحه: باب الدّين الذي يُعلّق عليه الحاج رفضهُ، هو الأضعف.. سأدخل منه إذاً..
. أبي.. ناداه بشيءٍ من التّرجي..
تهلّلت قسمات الأب، ظناً منه أن الولد أطال الشرود والتفكير، وعاد بزوّادة الرضا..!
. ماذا يا بني..؟ اقتنعتَ بكلامي، أليس كذلك..؟
. ليس بعد يا أبي.. فديننا الحنيف لا يمنع مثل هذا الزواج..
نزلت كلماته على أبيه صاعقةً بلبلتْهُ.. إذ أدرك أنه مكشوفٌ أمام ولده، أربكه عريه المفاجئ.. فهرّبَ عينيه من المواجهة.. ترك لهما حرية التجوّل في أرجاء المكان، كأنه يبحث لهما عن مستقرّ آمن، لم يجده بين أوراق شجرة التين الغضّة، فغادرها إلى أشجار الرّمان المحاذية لها، تأمّل ثمارها التي تُذكّره . مهما كان مشغولاً بحبيبته القديمة فضة . فما أن تقع عيناه عليها، حتى يتنهّد صدرُ فضّة الرّيان في داخله..!
ابتلع ريقه الجريح وهمس لنفسه:
. كم أنت أنثى يا شجرة الرّمان..!
ما أشهى ثمارك طفلةً وفتيّةً وشابّة..! آهٍ ما أشبهها الآن بأثداء الصبايا..!
لاحظ مالك أن والده لم يعد معه، وأنه مأخوذٌ بشيء لا يعرفه، ناداه بخبثٍ طفوليّ:

. أبي.. ما بك ألا تريد إقناعي..؟

تنحنح عساف ليطرد من عروقه ما بثّتْهُ فيها أنوثة الرّمان.. وقال باتزان:

. البشرية محكومةٌ مذ وجد آدم بهذه الأمور، فهل نخرج نحن عن سنن الكون لأجل فتاة..؟!

تبكي الخيبة، وتضحك الحيرة على ملامح مالك..! فينزف مستنكراً:

. هل جنّدت البشرية قواها، وسنّت قوانينها، لتمنع زواج عاشق من حبيبته..؟!

بغضبٍ مكتوم، وصبرٍ يكاد ينفد، هدر عساف:

. أتسخر مني يا ولد..؟ لم يولد بعد من يتجرّأ على الحاج عساف.. ألا يكفي أني آخذ، وأعطي معك..؟ لكني مُضطر لتحمّلك حتى تفهم، فالقضية عندي قضية مبدأ لا أساوم عليه.. الجماعة يا بني لهم طقوسهم، وعاداتهم ونظرتهم الخاصة للحياة..

. لم أفهم يا أبي، ولا أعرف عمّ تتكلم، لكني أودّ أن أطمئنك . إن كان هذا ما تقصده . أن ظبية تحبّ الله كما أحبه.. وتراه جميلاً في كلّ شيء، كما أراه تماماً..! فأين هو هذا الاختلاف..؟! أبي.. أتعرف ماذا قالت ظبية بالأمس، ونحن نتمشّى على الطريق الغربية..؟ قطفت عود زيزفون، تنشّقت عبيره، ثم تمعّنتْ في زهراته.. وقالت:

انظر يا مالك.. دقّق في تفاصيل هذه الزهرة، أترى كم هي جميلة..! وكم هو الله جميلٌ ليبدع كل هذا الجمال..!

مسح الحاج بكفيه على وجهه، في محاولة لإخفاء ما ضرّجه.. ازداد اقتراباً من ولده، جذب رأسه، ليسنده على صدره، وهمس له:

. أنا لم أقل غير ذلك يا بني..! لكن.. اسمع: سأضرب لك مثلاً ربما يوضح ما أريدك أن تفهمه: إذا غادر خروف قطيعه، وانضمّ إلى قطيع الماعز مثلاً، هل سيكون مرتاحاً، أو آمناً..؟ وإذا هاجم الذئب قطيع الماعز فهل سيدافع أحدٌ عن الخروف الغريب..؟ لا يا ولدي.. ما سيحدث أن الجميع سيحتمون ببعضهم، وسيبقى الخروف وحده فريسةً سهلة للموت..! وهذا ما لا أريده لك يا ولدي..

ارتجفت أوصال مالك، كغصنٍ تتقاذفه أمواج نهرٍ مجنون.. فانتزع رأسه من حضنٍ لم يعد يراه آمناً.. وفي عينيه تسابقت غيومٌ مذعورة، تُطاردها ريحٌ حبلى بالزوابع..! ولأنه لم يشأ أن يرى والده طفولةً ما غادرت روحُه بعدُ ربوعَها..! طفولةً مازالت تُعشّش في ثنايا روحه.. لملم شظايا انكساره الأول، وغادر.

_ ٣ _

أغصان الأشجار تتعانق في الحقل الشرقي، كأنها تتواطأ لإخفاء العاشقين عن الأعين..!

العاشقان يلفّهما الحنين لمستقبلٍ يجمعهما تحت سقفٍ واحد، يُسندان ظهريهما إلى شجرتين مُتقابلتين.. قالت ظبية، وخوفٌ غامضٌ من المجهول، يرشح من صوتها الرّاعف:

. لا أمل لنا بالزواج إذاً..؟

. لا أمل أبداً إلا إذا ..

. إذا.. ماذا..؟

. نهرب معاً.. ما رأيك حبيبتي..؟

. لا..لا.. لا أستطيع.. حاول ثانيةً أن تُقنع والدك.

. حاولت بكل السبل، لكنه يرفض بشدة أن يضع يده بيد والدك.. هدّدته بأنه لن يرى وجهي أبداً إن لم يسمح لي بالزواج منكِ، أتعرفين ماذا قال؟

حبست أنفاسها، وهي تنتظر ما سيُلقيه في روعها من خوفٍ..!

. قال لي بلهجة اليائس: (درب يسدّ ما يردّ).. سأعتبرك حذاءً عتيقاً خلعته من قدمي..

لم يصدّق أنّي أفعلها، وكأنه واثقٌ أنني أعجز عن الطيران خارج مملكته..

ويترقرق ألمه على جناحيْ بسمةٍ، يحاول من خلالها أن يبعث الأمل، والثقة في نفسها..

تسأله باستغراب طفلةٍ، لا تُصدق أن الكبار يكذبون:

. عمّي الحاج عساف لا يحبني..؟! لا أستطيع أن أصدق..!

. صدّقي حبيبتي.. صدّقي.. فعمّك عساف لا يحبّ إلا نفسه، يبدو أن الثروة أعمتْهُ، ضيّعت الأب في قلبه.. أتعلمين يا ظبية.. أنا واثقٌ أنه يحب أيّ ثورٍ يملكه أكثر مني..!

. لا.. لا تقل هذا.. مالك أرجوك.. عمّي الحاج أكبر مما تظنّ..

. والله أنت طيّبة زيادة عن اللزوم يا ظبية..! على كل حال لا حلّ أمامنا إلا الهرب.. فأهلك لن يباركوا زواجنا، إن لم يوافق أبي، وأبي لن يوافق أبداً.

. لكن.. لكن.. أين سنعيش.. وماذا سيقول الناس عنّي..؟

. لنا ربّ لن ينسانا.. ربنا الجميل.. ربّ الزيزفون والياسمين..!

ثقي بي.. ألستُ رجلاً بنظرك..؟!

رمقته بحبٍ، وهي تتشمّم عبق الزيزفون من أصابعه..! وسرحت عيناها فيما سيأتي من أيام.

ملك الموت يزور اليوم مختار قرية (المسكينة).. الذي يستعدّ لاستقباله، مذ وصلته برقيته قبل يومين، على متن (جلطةٍ) ضربت ساقه اليسرى، ولم ينسَ أن يرسل من يُحضر الحاج عساف، ووجهاء القرية، ليساهموا معه بالاحتفاء بضيفه الكبير..! التفّ الرجال حوله، وقُرْبَ رأسه الواجف استقرّ عساف، منتظراً وصيّة المختار، التي سيُلقيها عليهم قبل الرحيل..! طلب المختار جرعة ماءٍ، تُرطّب فمه اليابس، ابتلعها بصعوبة، وتوجّه بحديثه إلى الحاضرين:

. اسمعوا يا أهل قريتي، ملك الموت حاضرٌ معنا الآن..! لا تتلفّتوا حولكم، فلن تروه.. فهو ضيفي أنا، ولا يراه سواي.. لذلك فأنا أريد أن أموت، وأنا مُطمئن عليكم.. ألا تثقون برأيي.؟

هتف الجميع:

. نعم يا مختارنا، وما تقوله سيكون قانوناً مقدساً..!

تنهّد الرجل بارتياحٍ، وتابع:

. الأوضاع ضيقة وقاسية، فالمحتلّ من جهة، والفقر من جهةٍ أخرى، وفوق كل ذلك تأتي كوارث الطبيعة التي لا ترحم..! فإن جاء الحرّ كوانا، وسلق محاصيلنا.. وإن جاء البرد كسر ظهورنا، وجفّف ماء الحياة في عروق أشجارنا.. فلا صيفنا رحمةٌ ولا شتاؤنا مغفرة..! وكأن الله غاضب على هذه الأرض..! التي لا تعرف ربيعاً ولا خريفاً..! وأنا والله خائف عليكم.. لذلك أودّ أن أوكل أموركم لأخي الحاج عساف، فهو الأقدر على إعانتكم، كونوا معه كما كنتم معي وأكثر.. فأنتم تعرفون منْ أوصي عليكم..!

انهمرت دموع الحاضرين، فمختارهم الطيب يخاف عليهم، وهو يُكابد سكرات الموت..!

الذي ما لبث أن خطفه من بينهم..!

شيّعوه.. وفي عين كل واحدٍ منهم جمرة.. وفي العين الثانية تربّع مختارهم الجديد الحاج عساف.. الذي ازداد سرّه وبرهانه سطوةً في أعين الناس، يوم رحيل المختار..! فوجوده لحظة الاحتضار، منح المختار كلّ هذه القوة والحضور، ليقول ما قال..! لذلك لم يمنعهم الفراق من الاجتماع في بيت عساف، لتهنئته بالمنصب الجديد..! ولم يروا ضيراً من زيارة بعض الجنود الغرباء له.. فربما جاؤوا مُهنئين مُباركين..!

تدخل ظبية غرفتها الصغيرة، التي تقتسمها مع أختها، تُغلق الباب خلفها، وهي تتلفّت حولها كأنها هاربةٌ من فعلٍ تخشى انكشاف أمره.. تجلس على سريرٍ خشبيٍّ عتيق، تتجوّل عيناها في تفاصيل المكان، وتهمس لنفسها: (آهٍ كم أحب غرفتي..! أحب كل شيء فيها: بابها، نافذتها الوحيدة، هذه الستارة العتيقة، والبساط المقلّم بألوان ثيابنا القديمة، كلّ شيءٍ هنا غالٍ عليّ..! لكني سأترك كلّ هذا، وأترك أهلي أيضاً، وأهرب مع مالك.. مالك حبيبي..).

تنتبهُ لنفسها.. فهي تنطق بالمحظور.. تتسارع دقّات قلبها، وتقفز بسرعة إلى الباب، تنظر من إحدى شقوقه إلى خارج الغرفة، تطمئن أن أحداً لم يسمع نجواها، ويطّلع على ما تُفكر فيه.. تعود مسرعةً إلى سريرها، تندسّ في فراشها، تستغرق في ذاتها، وتفكر فيما مضى، وفيما هو آت: (الموضوع ليس بهذه البساطة، فقد أصابني الرعب لمجرّد التفكير في الأمر..! فكيف أستطيع تنفيذه..؟ لا.. لا.. لن أفعل.. سامحني مالك.. لا أستطيع..

لكني.. لكني أحبه، ولا طعم لحياتي دونه، ولا أمل لي إلا بالهرب معه.. آه يا ربي..

ماذا أفعل..؟!)

تدخل أمها عليها، يُجفلها شحوبها وارتباكها..!

. (ما بك يا بنت هل أنت مريضة..؟!)

. لا.. لا.. أمي لا شيء، وتنهمر عليها، تقبّل وجنتيها، كأنها تقابلها بعد طول غياب.. تفضلي أمي، اجلسي هنا، تتملّى ملامحها وتفكر:

. كيف سأترك هذا الوجه الملائكيّ..؟ كيف سألطّخه بعار اختفائي..؟! الويل لي.. ما ذنب أمي حتى أخزيها، وأكسر قلبها وشوكتها..؟! وأبي وإخوتي..؟ آهٍ.. آه.. ما أقسى ما أنا فيه..!

تناديها أمها:

. ظبية أين سرحتِ يا بنتي..؟ أكلمك فلا تردّين، ما الذي يشغل بالكِ..؟ قولي، فضفضي، فأنا أمك.. وأحسّ بكِ (فالبنت سرّ أمها) كما يقال يا بُنيتي.

تُسند ظبية رأسها على صدر أمها، وتبكي، تذرف دموعاً بحجم حرمانها.. ترتعد جوارح أمها جزعاً.. إذ يدرك قلبها المُتمرّس بالآلام، أن القضية ليست قضية مرض.. تهزّها بعنف.. تستنطقها:

. ما بكِ يا بنت..؟ هل فعلتِ شيئاً تخافين منه، هل فرّطتِ بنفسك يا ظبية..؟

نزلت كلمات أمها ماءً بارداً على رأسها.. فبدأت تُغمغم:

. (كأنها تُحسّ بالخطر، تشمّ رائحته قبل وقوعه..!)

تضرب الأم خدّيها، تتهالك على نفسها، والخوف مما هو آتٍ، يجلدها بسياطٍ من نار..!

فتتجمّد ملامحها، لتُحاكي وجه صبيّةٍ أُجبرتْ على التّعرّي أمام والدها..!
. أماه.. أماه.. تصرخ ظبية بفزعٍ.. أقسم أني لم أفعل شيئاً، لا تخافي يا أمي..!
تشهق الأم، وكأنّها استعادتْ الحياة.. ورُدّت إليها الروح..
. (صحيح ظبية.. لم تُخطئي يا بنتي..؟ الحمد لله.. الحمد لله..)
. نعم أمي.. أنا لم أخطئ، ولن أفعلها، اطمئنّي أمي.. أنا فقط متعبة، وأريد أن أنام..
تُقبلها والدتها، تتنهّد بارتياح، وتُغادر.. تُغلق ظبية أجفانها، تحاول النوم، لكن وعدها لأمها بألا تُخطئ، يطرد السكينة من عينيها..! فأنّى لها أن تبرّ بوعدها.. وحبّها يتصبّب من مساماتها..! وكيف لروحها أن تهدأ، وقد كبّلت نفسها بوعد، إن برّت به ترى نفسها آثمة..! وإن حنثت فهي أيضاً آثمة..!
فأيّ الإثمين تختار..؟! حاكمت الأمر، قلبتهُ على وجوهه، صالت، وجالت في تفاصيله ونتائجه طيلة أسبوع.. واتّخذت القرار.. هتفت به بصوتٍ عالٍ، كأنها تودّ أن تُسمعهُ لخلاياها، لمساماتها وملامحها.. لتطمئن على مدى تقبّلها قرار موتها:
(الصبر على عذاب الحب، وبعد الحبيب.. ولا الصبر على قهر الأهل، وعذاب الضمير..)
حملت قرارها في صدرها قنبلةً موقوتة..! قررت أن تُفجّرها في وجه مالك، وليكن
ما يكون..! لكنها ما إن رأته، وتعانقت الأعين والأصابع، حتى تبدّلت مواقع الكلمات في قرارها: فغدت قنبلتها الموقوتة قنبلةً مُضيئةً.. رصّعت صدريهما، وصدر الفضاء بقرارٍ له طعم الحياة:
(الصبر على عذاب الدنيا بكاملها، ولا الصبر على بعد الحبيب..!)

ـ ٦ ـ

أفاقت (المسكينةُ) على شمسٍ جريئةٍ، تسكب على بيوتها، وأزقّتها عصيرها الورديّ.. ومن أحد دروبها خرج العاشقان مالك وظبية، مُتخفّيين، يحثّان الخطا دون متاعٍ، ودون أن يلتفتا إلى الوراء.. قالت ظبية وقد أخذ منها التعب، والخوف:
. سيلحقون بنا يا مالك، ويقتلوننا..
فيجيبها مُطمئناً:
. لن يستطيعوا، فقد صرنا بعيدين جداً.. انظري خلفك..
التفتا معاً:
كانت المسكينة قد صارت وراءهما.. بعيدةً.. بعيدة.. لكنّ دمدمةً منها تناهت إلى سمعيهما..
وكأن المسكينة تُعاتب نفسها:(أنتِ مكانٌ طاردٌ يا(المسكينة).. يهرب منكِ العاشقون..!
ولا يبقى فيكِ إلا قساة القلوب..)

وصل الشابّان بيت الشيخ أحمد، برفقة مختار قرية (الناظميّة)، الذي كان مالك قد اتفق معهُ مسبقاً، على عقد قرانه على ظبيته عند الشيخ، وعندما بدأ الشيخ إجراءات عقد القران، لاحظ أن الفتاة تحاول بارتباكٍ إخفاء صليبٍ كان يُزيّن عنقها.. فقال لها:

. دعيه يا بنتي.. لا عليك..

لكنها انتزعته من جيدها، ووضعته في يد مالك، وهي تُردّد وراء الشيخ:

. نعم قبلتُ به زوجاً على كتاب الله وسنّة رسوله.

سرى الدفء في أوصال مالك، فشدّ يده على الصليب، مستشعراً حرارة عنق حبيبته، التي ماتزال مكنونةً فيه..

_ ٧ _

على كرسيه الذي يشبه عرشاً ملّ صاحبه.. يجلس عساف في صحن الدار، تحفّ به نسوته الثلاث، وكلّ منهن تحاول لفت انتباهه، علّه يكون لها هذه الليلة، فتكيد ضرتيها.. وهو يمجّ سيكارة التبغ العربي الفاخر، ويرشف شايهُ المسودّ، زاهداً بهنّ جميعاً..! مسافراً في خياله مع تلك التي كانت حبيبته، في عهد شبابه الأول، تُناجيها روحه: إيه فضّة.. كنتِ الغيث لعروقي، والضياء لعينيّ..! رحمة الله عليك.. لكنك لن تموتي في داخلي، حتى لو تزوجتُ كل نساء الأرض..! لن أنسى ما حييتُ حبك.. لن أنسى أنك قُتلتِ من أجلي..! آهٍ منك يا أبي.. لماذا رفضت زواجي منها، لماذا حرمتني، وحرمتها الحياة..؟ أكان ما فعلته خالتها، يستحق أن أحرم منها..؟! وما ذنبها هي إن عاشرت خالتها، أو حتى عمتها جميع الرجال..؟!

رحمة الله عليك يا فضّة عمري، وذهبَ أيامي..!

ينتبهُ من شروده على صوت ابنه صلاح الدين:

. أتريد شيئاً من المدينة يا أبي..؟

. تعال يا ولدي.. تعال.

يحضنه بحب، يقبّله، ويوشوشه:

. اسمع يا بُنيّ.. عندما تمرّ قرب مقبرة (تل الرمان)، اقرأ الفاتحة لروح خالتك فضّة.. أرجوك يا بني أن تقرأ الفاتحة على روحها، كلما مررت هناك..!

وتنهمر من عينيه دمعتين ساخنتين، يتركهما تسيلان على خديه، ويدلق في جوفه، ما تبقّى من شايهِ المُعتّق.

في أرجاء الغرفة المؤثّثة بتواضع، جال بصر العروس الصغيرة.. توقفت عيناها على المتاع الذي توزّع في أرجائها بأسلوب ارتجالي، مالت على عريسها الجذل بها، فقطف من شفتيها برعماً مذعوراً، ومشى بها إلى النافذة الخشبية المفتوحة، فهي العين الوحيدة التي تنقل أنهار الجمال، وتُحوّل مجراها، لتتسكّع بين أربعة جدرانٍ، تحتضن حبيبين، ستُعشّش أنفاسهما في فضائها ابتهالاتٍ، وتُعرّش على مساماتها كروماً..! حدّقا بعيداً.. الأفق يمتدّ أرتالاً من الخير، يعرض أمام ناظريها جماله الموّار.. غير أن جميع فنونه، لم تستطع أن تأخذها إلى عالمها..!

حتى وجودها مع حبيب عمرها مالك تحت سقفٍ واحد، لم يستطع ترميم تآكل روحها.. همست بوجلٍ:

. كنت أحلم بعشٍ صغيرٍ دافئ في قريتنا، وبين أهلنا..

حضنها مالك بحبٍ معجونٍ بملح الأسى، وترقرق صوته في مسامعها رخيّاً هادئاً:

. لم نستطع تحقيق حبنا بغير هذه الطريقة، لكني أعدك أن غربتنا لن تطول.. فالجرح بين الأهل ضيّق كما يقال..

. أيّ ضيّق وأي واسع..؟ قالت بحسرة..! وأردفت: لا أظن أن أهلي سيتقبلون ما فعلناه بسهولة، ولا حتى أهلك.. ألا تعرف معنى فعلتنا وأبعادها بنظرهم، ونظرِ كل الناس في قريتنا..؟ ستُفرّخ الأقاويل غيلاناً..! وتتهامس النسوة، يتغامزن على أمي، التي لن تستطيع أن ترفع رأسها بعد هروبي.. لن تضحك أمي بحريّة بعد اليوم.. ويلي عليك يا أمّاه.. ويلي على جحيم أيامك المُقبلة..!

. اهدئي قليلاً حبيبتي.. ألا ترين أنك تُبالغين..؟ فأمّك لا علاقة لها بالأمر، وجميع الناس في القرية يحبونها، و يعرفون طيبتها..

. إلا أبي.. آهٍ يا مالك لو تعرف أبي.. كم هو قاسٍ عليها..! وكم ستزداد قسوته.. سيقول لها في اليوم القصير ألف مرة: هذه تربيتك يا سلمى، البنت سرّ أمها.. وربما سيشكّ بها، هي الأخرى.. لن تنعم أمي بعد اليوم بالأمان، انكسرت شوكتها.. كسرتُ ظهرها بفعلتي..

سامحك الله يا عمي عساف.. قتلتني، وقتلت معي من لا ذنب لهم..!

وأختي هالة.. آه يا هالة.. أنت أيضاً ستخسرين الكثير.. ستخسرين حبك..! فعرفان لن يخرج عن طاعة أبيه، وأبوه لن يزوجه منك، سيقول له: لن تكون لهالة يا عرفان، ألم تسمع ما فعلته أختها..؟ عائلةٌ أساسها حرام.. شجرة عاطلة من الجذور إلى الفروع يا ولدي، سيبكي عرفان على هالة التي يحبها.. لكن بكاءه لن يقدّم لها بيتاً، تعيش معه تحت سقفه.. سامحيني هالة.. سامحني أبي.. وأنت أمّاه..!

غمرها مالك بذراعيه، بلّلها حنانه محاولاً التّخفيف عنها، رشف دموعها.. مشت شفتاه بتعبّدٍ على تضاريسها.. حاول أن يرسم على مسامات جسدها الحبيب خارطةً لوطنٍ دافئ.. يراه أرحب من عالمٍ، أراد والده أن يشوّهه في عينيه.

ـ ٩ ـ

بغنجٍ محسوب تقترب أم مالك من زوجها الحاج عساف، تمسح بيدها على شعره المُحنّى.. تتمايل عليه.. يرمقها بخبث، فهو يعرف نواياها، ويقصد تجاهلها.. فرغم محبته الكبيرة للنساء، وولعه بهنّ، لا يُلبّي امرأته، حتى يُنشّف ريقها..! لدرجة أن كلّ واحدةٍ من نسائه، تظنّ أنه يخسر فحولته يوماً إثر يوم..! فتُبالغ في تغذيته، بما تعتقد أنه يُقوي ماء الحياة في عروقه..!

. ماذا تريدين يا امرأة..؟

أجفلها صوته الجافّ، جثت أمامه، وقد تضرّج بياض وجهها.. فتلعثمت:

. أريد.. أريد فقط أن..

ينهرها بنزق:

. لستُ مرتاحاً.. مزاجي مُعكّر هذه الليلة.. فقد نغّص عيشتي ابن الحرام..

. من هو يا أبا مالك..؟ من يجرؤ على الاقتراب من حماك..؟

. ولدك العاقّ.. فهو الوحيد الذي تجرّأ عليّ في هذا العالم.. نكّس عقالي، وأهانني أمام هؤلاء الأوباش..! الذين لم يكن أحدهم ليفكر، أو يتوهّم أنه يستطيع أن يرفع أنفه أمامي..! كانوا يتمسّحون بي، يخافونني، يشترون رضاي بماء عيونهم وعرقهم.. كيلا أخبر عنهم.. عن أولادهم وأرزاقهم، التي يحاولون إخفاءها، بعدما عرفوا علاقتي المتينة مع الفرنسيين.. أما اليوم.. تصوّري.. حمّادي الأقرع هذا المعتوه (الجربان).. يمرّ أمامي، يرفع خشمه، ويرميني بنظرة شماتةٍ، ويمضي..! دون أن يكلّف خاطره برمي السّلام..!

(وأول الرقص حنجلة..) يا حسنة..! أرأيت نتيجة تحدّي ابنك لمشيئتي..؟ صارت الكلاب تستهين بي..!

. هوّن عليك يا رجل.. أهذا ما يحزنك، ويُعكر مزاجك..؟ صدّقني أنه مجرد وهم.. فالجميع يخافك، ويحسب لك ألف حساب..! وحمادي الأقرع كلبٌ معتوه.. أنت قلتها بلسانك منذ لحظات.. فلو كان عاقلاً لتحاشى النظر في عينيك، خوفاً على ابنه، الذي سمعتُ أنه يتعامل مع الثوار، فهو عينهم وأذنهم في (المسكينة)، وغيرها من القرى المجاورة أيضاً.

هتف بفرحة من وجد ضالته:

. صحيح..؟ ومن أين سمعتِ..؟ ولماذا لم تُخبريني من قبل، كيف تُخفين عنّي خبراً بهذه الدّسامة..؟!

. يا بن الحلال.. ظننتك سمعت قبلي، فهذه شغلتك وعملتك.. هل سأعرف أنا أكثر منك..؟

هزّ رأسه طرباً، وعلى فمه تثاءبتْ ابتسامةٌ سوداء:

. هكذا إذاً يا حمادي الكلب.. سأريك.. ستدفع ثمن نظرتك تلك دماً..!

ويمدّ يده المحبورة لتقبض بقوة على شعر حسنة، التي تتهلّل أساريرها، وتنفرج قسماتها، فهذه تباشير الموسم المُقبل..! يلفّ شعرها الأسود الطويل على يده، يشدّه بعنف، حتى يلتصق الوجهان.. وتبدأ رحلة الالتهام.. تذوب شفتاها القرمزيتان، في لهيب شفتيه الداكنتين.. يعتصرهما، كأنه يُكافئهما بطريقته على ما باحتا به، من أخبارٍ مهمّةٍ هذه الليلة..! تتنهّد حسنة بارتياح.. فهو الآن تحت سطوتها.. فما أقدرها في هذه اللحظات على تغيير الخرائط، والتّلاعب بالمصائر.. وربما الأقدار.. هدل صوتها رقراقاً:

. (حبيبي عساف.. اشتقتُ لابني مالك، وأريدك أن تصفح عنه، وتُعيده إلينا، ليبقى تحت جناحيك..؟ أليس أفضل من تشريده، وشماتة الناس به وبنا..؟ والله يا رجّال الشباب عزوة.. صحيح أنت شيخ الشباب.. لكنك عندما تكبر، وتتعب تسند ظهرك عليه..! وهناك أمرٌ آخر أودّ معاتبتك عليه: الأرض.. لماذا تبيعها، وتُفرّط بها..؟ الأرض عرض يا عساف.. والأرض مثل الشباب عزوة..!)

لم تتلقَ حسنة جواباً، حتى فرغ منها.. استند على حافة السرير، فتح علبةً من المعدن الأبيض، لفّ سيكارةً رفيعة، بلّلها بما تبقّى من ريقه، أشعلها، وسحب نفساً عميقاً.. وغام المكان بغلالات دخانه.. قال لها بهدوءٍ مُخيف:

. اسمعي يا حسنة: مالك لن يعود إلى هذه الضيعة، مادمت أنا فيها.. وسأبيع أملاكي قطعةً قطعة، وأستمتع بثمنها، فأنا أحقّ برزقي من سواي.. لن أترك له ما يعيش منه، إن هو عاد بعد موتي.. ولا تعودي إلى فتح الموضوع مرةً أخرى.. أسمعت..؟

سحبت حسنة جثّة هزيمتها، ابتلعت خيبتها.. وغابت تحت لحافها السميك..

_ ١٠ _

يعود مالك من الحقل مُعفّراً بالتراب والتعب.. تستقبله ظبية بسحنةٍ شمعيّة.. وملامح مذعورة..! يقبّل جبينها، ويسألها بحب:

. ما بها حبيبتي.. وأين ابتسامتها العذبة التي تُنسيني التعب.. ها..؟!

. حبيبي.. قالت ظبية بما يشبه التّرقب: جاءنا اليوم دركي وسأل عنك.

. وماذا يريد مني..؟ ماذا قال بالضبط..؟

. قال بلهجةٍ ماكرة: قولي لزوجك إننا نريد أن نراه، وهو يفهم لوحده..!

ماذا يقصد يا مالك..؟ أرجوك طمئنّي، فكلامه لم يرحني.. وكذلك عيناه الخبيثتان..

بهدوء العارف أجابها:

. لا تخافي حبيبتي.. سأرى ماذا يريد منّي هذا اللعين، اطمئني..

يتناول عشاءه، ويخرج مُتّجهاً إلى مخفر الدرك.

يُشير إليه أحد الرجال، ويرطن:

. ها قد جاء صديقنا.. أهلاً.. أهلاً.. سيّد مالك.. تفضّل اجلس.

. ماذا تريدون مني..؟

. لا شيء.. نحن نريد أن نساعدك.. فأنت ابن صديقنا عساف..

. آ..آ.. فهمت.. فهمت.. لكنّ ما تريدونه عند أبي، وليس عندي..

ابتلع رئيس المخفر غضبه، واقترب منه، ثم أحاط كتفيه بذراعه، وقال مبتسماً:

. لم يهنْ علينا حالك يا رجل، فأنت ابن عساف، وعساف لنا..

وليس مالك ابن العزّ والجاه، من يعمل مرابعاً في أراضي الآخرين.. سامح الربّ أباك.. لقد قسا عليك، نحن نعرف كل شيء، لكننا سنعوضك..

ولن نكون قساةً كأبيك.. فأنتم في هذه البلاد تفكّرون بطريقة غريبة، لا تخطر على بالنا..

. وما الثمن الذي تريدونه مني..؟

ضحك الدركي بوقار المسؤول، وهو يقول:

. أنت رجل عمليّ.. ومثلك يعجبنا، ويلزمنا.. ما رأيك ..؟ الأمر جدّ بسيط، ولابد أنك تدرّبت عليه في مدرسة والدك..

. لا.. صرخ في وجهه.. لن أقهر أولادي، كما قهرني أبي.. لن أكسر أعينهم، وأخزيهم مهما كانت الأسباب..

وخرج غاضباً، جريحاً، يرغي ويُزبد.. نظر الرجال في عينيّ رئيسهم، مُستغربين سكوته على وقاحة الشاب..! قال بهدوء الواثق من وصوله:

. إنها فورة الشباب.. لكنه سيعود مثل الكلب.. وغداً سترون..

مساءُ (المسكينة) يغلي بالهرج والمرج..! وأهلها بين مُستغربٍ، ومُستنكرٍ، ومذهولٍ مما يحدث..! يُنصب (شادرٌ) كبير، وتُصفّ الكراسي والطاولات، على سطح بيت الحاج عساف، بينما يزيّن بعض الشباب ما يمكن تزيينه، احتفاءً بالزائرة الكبيرة.. المطربة بهيّة سعيد، وأهل القرية جميعاً مدعوون لرؤيتها وسماعها، تقترب أم مالك من زوجها، تقف على رؤوس أصابعها، لتستطيع الوصول إلى الكتفين المتسامقين..! وبعتبٍ هلاميّ رخوٍ تهمس له:

. لماذا يا أبا مالك..؟ أكان ضرورياً إحضارها إلى البيت..؟ كلنا يعرف علاقتك بها.. والناس جميعاً يتحدثون عن الأراضي التي تُباع، ويُصرف ثمنها على سهراتها.. يا حيف..! خرقتَ هيبتك يا حاج، شوّهتَ الصورة التي رسمها الجميع لك في عقولهم بعد حجّتك..!

. عقولهم..؟! وهل للناس هنا عقول..؟ هه.. ثم.. تعالي هنا، ما علاقتكِ أنتِ؟ لم يبقَ إلا أن آخذ إذنك فيما أريد فعله..! قولي هل ينقصك شيء.. هل قصّرت معكِ..؟

. لا.. يا بن الحلال.. لم أقصد ذلك، ويشهد الله أن بيتك كبيت السّبع.. لكن الناس سيحضرون السهرة، يسرحون، ويمرحون، ثم ينتفون فروتك، وفروتنا..!

. فروتكِ..؟ يُجيبها مستنكراً.. وما دخلكِ أنت..؟

. إنها إهانة لي ولضرتيّ، خاصةً الصغرى.. ابنة عمك التي مازالت عروساً.. أنسيت..؟

يُطبطب على كتفها، يضحك ساخراً، ويرميها بكلمتين تنخران عظامها:

. لعبتك مكشوفة يا حسنة.. إنها ضرّتك، وأنا أعرف تماماً ماذا يحمل لها قلبك.. كيدي لها كما تشائين..! فهذا هو الأمر الطبيعي، أما أن تخافي عليها، وعلى شعورها فهذا مالا يقنعني..! أنا عساف يا حسنة.. وأنت والناس جميعاً يعرفون من هو عساف..! وماذا يستطيع أن يفعل..! ثم.. هناك أمرٌ آخر أريدك أن تفهميه تماماً: فلا أنت ولا تلك العروس التي تحاولين اللعب بمشاعري من أجلها، تجرؤان على الوقوف قربها..!

آهٍ لو ترينها يا حسنة...! أترين شعرك الأسود هذا..؟ مهما حرصتِ على إخفاء شيبه، واعتنيتِ به ليبقى وجهَكِ الآخر الجميل كما تقولين، سيبدو عندما يُقارن بذهب شعرها كأشواك القنفذ..! وقامتك التي تُباهين بالمحافظة عليها ممشوقةً، ستكون عندما تقفين قربها تلالاً من اللحم المتراكم دون فائدة..! هل أتابع المقارنة يا حسنة..؟ لديّ الكثير لأقوله، إن أردتِ..! باختصارٍ شديد: عندما تُطلّ (بهيّة سعيد) ستدفن نفسها كلّ منْ تتوهّم أنها امرأةً في هذه القرية..!

تزمّ حسنة شفتيها انكساراً.. وتتركه يتابع ما هو فيه..

ساعاتٌ مشحونةٌ بالترقب، سبقت وصول المطربة، التي ترجّلت من عربتها مع مرافقيها، على صوت التّصفيق، وعبارات التّرحيب، وزغردات النسوة.. صعدتْ مباشرةً إلى المنصّة المُهيأة لها،

تراكض الشباب والرجال حولها.. وكلّ منهم يودّ تنشّق غمامة العبير التي ترافقها..! غصّ المكان بروّاده.. ووقف عساف بينهم، يهتف مرحباً بضيفته.. تعالى الصفير.. واحمرّت الأكفّ مباركةً قدومها الكبير..! وصدح صوتها:

(بها الدنيا السمر الله خلقهم..)

داخ البعض من عشّاق السمراوات، تمايلت رؤوسهم السكرى.. وردّدوا:

(إي والله والبيض ما لهم إلا الحسرات..) لكنها خذلتهم، وغنّت للبيض أيضاً.. صكّت التأوهات وجه الفضاء.. سال لعاب الغرائز الحبيسة من قرونٍ في قمقم الأعراف..! مع تمايل فستانها الشهيّ.. رشقها شابٌ محمومٌ بالشهوة بقبلةٍ مُلتهبة.. أرسلها على فم سيكارته المُتّقدة، إلى صدرها النابق تحدّياً ورغبة..! اخترقت نار قبلته ثوبها الشفيف، ولامست كبرياء العاج.. فصرخت وجعاً، وأسفاً على ثوبها، الذي أفسده شابٌ لاهٍ..! ركض عسّاف وراء الشاب، يريد تمزيقه، لكنه هرب منه، وغادر المكان بعد مناوراتٍ، أرهقت الحاج، ودفعته للعودة خائباً، لاهثاً إلى ملكة قلبه، يسترضيها، ويُطيّب خاطرها..

شتمته، وانسحبت تجرّر أذيال فستانها المنكوب..! وتلعن الساعة التي أتت فيها إلى قومٍ، يحتاجون عمراً آخر، ليصبحوا بشراً.. ويعرفوا كيف يُعاملُ البشر أمثالها.. لحق بها عساف ومرافقوها، وانهمر الحضور وراءهم خائبين..! بعضهم يشتم طيش الشباب، الذي حرمهم هذه المتعة، وبعضهم يلعن كلّ من يُنجب، ويترك للشارع مهمة تربية ذريته.. ومَن تبقّى قال:

ـ لماذا كلّ هذا الجنون..؟ الشباب معهم حق، أول مرة يرون هذه المناظر..

سامحها الله..! لو جاءت مُحتشمة، لما خربت السهرة..

لم يستطع عساف أن ينام تلك الليلة.. فقد صحبه الأرق، ونادمه السّهاد.. حتى طلع عليه الصباح، وهو يندب هيبته التي تمرّغت، وكبرياءه الذي امتُهن أمام ملكة قلبه..! وصار عليه الآن أن يقطع رحلةً شاقةً، لترضى عنه.. أما نسوته الثلاث فلم تجرؤ أي منهن على الاقتراب من غرفته.. غير أنهن نمْنَ محبوراتٍ مزهواتٍ بنصرٍ ما كان مُتوقعاً..

ـ ١٢ ـ

طال انتظار مالك لطفلٍ يربّيه، لا كما تربّى في حجر أبيه.. ويُعطيه ما لم يستطع عساف إعطاءه له.. تنام ظبية على صدره كلّ ليلة، تستمتع بشذا حكايةٍ، لم تسمع يوماً نهايتها، فما أن تتشابك الأحداث، وتتكاثر العقبات في وجه البطل، حتى تهرب إلى النوم.. وكأنها لا تريد أن ترى انكساره..! فهي تحبّ أبطال حكاياته، تتعاطف معهم.. وترى في كل واحدٍ منهم صورة مالك، ولأنها لا تملك لأقدارهم القاسية ردّاً، ولا تستطيع تقديم المساعدة، تنسحب إلى عالم

الأحلام قبل سقوطهم..! ومالك يُكمل رواية حكايته، ويداه تتغلغلان في شعرها، رغم أنه يعلم أنها لم تعد معه.. يتملّى ملامحها، وتمسح عيناه تضاريس جسدها، تتوقّفان على بطنها الخاوي.. فيهمس باحتراق: أما آن له أن يمتلئ، متى سأراه قبّةً مليئةً بالحياة..؟!
آهٍ يا ظبيتي.. أيكون خوفك من الآتي، قد جفّف عروقك، فما عادت قادرةً على إنتاج الحياة..؟! يتنهّد محترقاً، وينام.. وفي حلمه يرى بطن ظبية مُمتلئاً، وابنه يتحرّك داخله.. يُداعبه، يناغيه.. يُغريه بمغادرة سجنه، ويعدهُ بحياةٍ، كان يتمنّى أن يعيشها هو في حضن والده..

ـ ١٣ ـ

قهقهاتٌ شامتة يتردّد صداها في أرجاء المكان..! فعساف الذي سقطت عنه جميع قشوره، وبات لحمه مكشوفاً أمام أهل المسكينة وجوارها..! يرمي أوراقه الأخيرة على طاولة اللعب الخضراء منكسراً.. بينما تقترب منه شابة فرنسية، تتمايل عليه، تحضنُ رأسه، وتهمس له:
. لا تحزن عزيزي عساف.. اللعب ربحٌ وخسارة.. والحياة كلها لعبٌ بلعب..!
وتضحك بطريقةٍ تُنسيه ما حدث.. ينفخ صدره، ويقول بكبرياء:
. ولا يهمّك سوزانا.. (كلّه فدا ساقيك..) بالأمس راحت الأرض الشرقية، وإن راحت الغربية غداً فلا يهمّ.. كلّه من فضل الله وفضلكم..!
نظراتٌ غامزة تفرّ من العيون الزرق.. ويتضاحك الجميع..
يغادر عساف مُودّعاً بقبلاتٍ من سوزانا.. وعباراتٍ مدهونة بالزبدة والعسل من أعضاء الفريق.. تُطيّب خاطره، وتتمنّى له فوزاً ساحقاً في جولةٍ مُقبلة.. يدفع باب بيته مُترنّحاً.. مخموراً بسلافةٍ ما أتقنت كروم قومه تعتيقها، لتغدو بهذا السحر، وتملك تلك القدرات..! تستقبله زوجاته مُتوثباتٍ مُتحفّزات.. وأعينهن تقدح شرراً.. اشتمّ رائحة مؤامرةٍ نسائية أفزعته، رغم اعتقاده الرّاسخ أن نساءه لا يملكن مكر النساء..! فهيبتهُ قد ذهبتْ بكلّ ما ورثْنهُ من مكرٍ عن أمّهن حواء.. رأى في الملامح الناريّة، ما يشي بمعركةٍ لم يحسب لها حساباً.. ابتسم بدماثةٍ مدروسةٍ وقال:
. السلام عليكنّ يا أجمل نساء الكون..! أتعرفن أني أسعد إنسانٍ على وجه الأرض..؟
لا تُصدقن..؟! أكيد..! لأن أيّ واحدةٍ منكنّ، لا تعرف مكانتها عندي، لا تعرف أني أفخر بها أمام الناس..!
تنفجر الكبرى في وجهه:
. ولهذا تُهيننا أمام الغادي والصادي..!

تابعت الوسطى:

. لم يبقَ أحدٌ في العالم، لم يسمع بمغامراتك النسائية، ويتندّر بها..!

أردفت الصغرى:

. لم تعد لنا عينٌ تُرفع أمام النسوة..! صاحبْتَ المُطرية، و(النوريّة) والفرنسية..!

ولا يعلم إلا الله إلى أين ستؤول بك نفسك..!

أدرك الرجل أنه لن يقدر عليهنّ معاً، فلا بدّ منْ شقّ الصفّ إذاً.. ولا سبيل أسلم من استمالة الكبرى، فهي بنظره أصل المشكلة، ومفتاح حلّها، غمز لها بعينه بطريقةٍ فهمتْ مغزاها.. ودخل غرفتها، همست لكلٍ من ضرّتيها بكلمات، تُمهّد لهدنة، سيقطفن ثمارها من خلال جهودها الدبلوماسيّة المقبلة..! لحقت به، فسارع إلى احتضانها، غمرها بقبلاته، أبعدته عنها بحركةٍ حازمة:

. اسمع يا عساف.. الوقت الذي كنت تضحك عليّ فيه بحركاتك انتهى، ولّى..

ابتلع غيظه، وقال بدماثة:

. أضحك عليك يا حسنائي..؟! سامحك الله.. ألا تعرفين أنك الأغلى بينهنّ..؟ أنت رفيقة عمري، ومستودع أسراري يا أم مالك.. (ولوْ..)

. ولهذا قهرتني بضرّتين..! وفضّلتَ الكلبة الشاردة في الشوارع عليّ..؟!

تضاحك بخبثٍ، وهو يمدّ يده إلى جيب سرواله، يُخرج منه مفتاحاً، ويجثو أمام صندوقه الحديديّ، يُعالجه قليلاً، ثم يُخرج منه رزمةً من المال، يدفعها إليها هامساً:

. خذي يا حسنة هذا لك وحدك، اشترِ به ما تريدين، لتعرفي غلاوتك عندي..!

تبتسم بخبثٍ، وهي تضع النقود تحت فراشها، وتُفاجئه بسؤالها:

. وبماذا ستُرضي ضرّتيّ.. ها..؟! هل ستعطيهما كما أعطيتني..؟

تُبقبق نفسه:

. اللعينة.. تريد كلّ شيء لنفسها..! لكن عقلها ليس أكبر من عقل أيٍّ منهنّ..!

تخترقه نظراتها.. يحسّ أنها تُعرّيه.. .فيسارع إلى لملمة نفسه قبل أن تفضحه، وتقلب الطاولة على رأسه.. يقترب منها، تغسلها قبلاته، وهو يقول:

. لاعليك يا أم مالك.. فالمهمّ عندي رضاكِ أنتِ.. أنتِ وحدكِ..

ويرميها على السرير، لتبدأ الجولة الثانية من مباحثات السّلام.. التي وصلت أصداؤها إلى آذان زوجتيه المُنتظرتين وراء الباب..! نظرت كلّ منهنّ في عينيّ الأخرى، ابتلعت سائلاً مُرّاً ملأ فمها.. ودخلت غرفتها تلوك خيبتها..!

ـ ١٤ ـ

مُباركٌ يا بنتي.. قالت الداية أم أحمد، إنها علامة الحمل..

شهقت الفرحة على لسان ظبية:

. حمل..؟! صحيح يا خالة..؟ الحمد لله.. شكراً لك يا خالتي.. سأذهب إلى البيت حالاً لأبشّر زوجي، لابدّ أنه سيطير من الفرح..!

. أجل. أعلم أنه سيطير من الفرح، لكن قولي له: قبل أن يطير: أم أحمد تريد (الحلوان)..

. نعم.. نعم ردّتْ، وهي تغادر، تستحقين (حلواناً) دسماً على هذه البشرى..

لم تستطع ظبية أن تزفّ البشرى إلى زوجها، كما تفعل النسوة في مناسبةٍ كهذه..! قالتها له دون مُقدّماتٍ، عاريةً من دلع الحوامل وغنجهنّ:

. مالك.. أنا حامل..

أذهلته المُفاجأة.. عقدتْ لسانه..! هزّته ظبية بوجل:

. ما بك حبيبي..؟ أنا حامل، ألم تسمع..؟ الدّاية أم أحمد أكّدت الأمر.. ألست سعيداً..؟!

بقي مذهولاً، مأخوذاً.. وكأنه لا يسمع شيئاً، ولا يستوعب ما يحدث.. جلست أمامه، أسندت رأسها على كتفه، وراحت أصابعها تعبث بشعر صدره، فهي تُدرك أنها لن تستطيع إعادته إلى أرض الواقع إلا بهذه الطريقة..! انتصبت حلمتاه الصغيرتان بين أصابعها، شدّها إليه بكلّ شراسة الحنان.. ثمّ غابت شفتاها في أتون شفتيه.. كلّ خليّة في جسده عبّرت بطريقتها عن فرحتها..! إلا لسانه.. لم يستطع أن يقول كلمةً واحدة..! وكأن سعادته ذهبت بقدرته على النطق..! أو كأن المناسبة عنده أقدس من أن يُعبّر عنها بمجرّد الكلام..!

ـ ١٥ ـ

وجه عابد محمود مُضمّخٌ بالتراب، وصوته مُبلّل بالتّوسل، والابتهالات إلى خالق البرية والبرية معاً:

. يا ربّ.. أعنّي يا ربّ.. يا ناس، يا جيران، يا أهل النخوة.. يا حاج عساف.. عيالي يموتون تحت الأنقاض..!

لا مُجيب.. لا أحد يسمع. الكل مشغولٌ عنه.. الرجال، الشباب، النسوة، وحتى الأطفال، جميعهم يُهرول صوب الجامع، يحملون ما تيسّر من أدواتٍ تُساعدهم في ترميمه ومداواة صدوعه، إثر الصاعقة التي ضربت القرية ليلة أمس، كصرخةٍ كونيّة..!

أشلاء البيوت تئنّ فوق أصحابها، وعابد يبصق التراب المعجون بريقه، وتُجاهد أصابعه

لتخليص طفلته، المطمورة تحت الأنقاض، سحبها بكل ما أوتي من قوّة المقهور، كانت أشلاء خابية الزيت الفارغة عالقةً على رأسها المُهشّم قلنسوةً دامية.. نزعها عن رأسها، رماها بعيداً، ونزف فزعاً:

. لو كانت هذه الخابية ملأى بالزيت، لهوّنت الموت على طفلتي..! أو ربما منعته من الاقتراب منها، فالزيت ابن شجرةٍ مباركة، منذورة للحياة لا للموت.!

(ولك تفوه عَ الدرك، وعَ الحاج عساف تفوه.. ما تركوا لنا شيئاً.. مباركاً ولا ملعوناً..!) سامحك الله يا مختارنا.. أهذا منْ أمّنتَهُ علينا، وأوصيته بنا..؟!

ركب اللعين على أعناقنا، ويا ليته ركب وحده.. آهٍ.. آهٍ..

تُولول زوجه التي ساحت دماء جنينها الهارب، تضرب وجهها، تنادي ابنتها القتيلة المسجاة بين يدي زوجها:

. ويلي عليك يا بنتي، رحْتِ أنت وأخوك.. كنتِ سعيدة به.. تُلاعبينه وهو في بطني..! العبي معه هناك يا آية في الجنة.. وانتبهي عليه يا بنتي فهو مازال جنيناً..!

مسح زوجها بأصابعه المدماة على وجهها المُعفّر بالشحوب.. فتهالكت عليه، والتحم وجهها بوجه الطفلة النائمة في حضنه.. شهقت شهقتين، وغابت.. صرخ صوته المبحوح في وجوه العابرين:

. يا ناس، يا عالم.. ابنتي ماتت، وحرمتي أجهضت، إنها تنزف، تموت..

يا أهلي أعينوني.. يا أولاد الكلب.. ألا تسمعون..؟ هل أصابكم الطرش..؟!

يرميه الناس بنظراتٍ مُشفقةٍ مُستعجلة، وهم يُهمهمون:

. (أعانك الله على بلواك..)

ويتابعون تراكضهم، تاركين مهمّة نجدته لخالقه.. أيقظ زوجه الغائبة عن الوعي بدموعه، مدّدها على التراب، نزع عنه سترته، ورماها عليها، حمل جثة ابنته، واتجه إلى مقبرة القرية، أودعها هناك، سقى قبرها الصغير بما تبقّى من دموعه.. وعاد مسرعاً ليُنجد زوجه المفجوعة.. اجتمع الناس حولهما، بعد إتمام مهمتهم المقدسة.. فقد عاد الجامع كما كان وأحسن.. بفضل تعاونهم على إصلاح ما خرّبته ثورة الطبيعة..! وصار بإمكانهم الآن مساعدة الرجل المنكوب..

نظر إليهم بطرف عينه الكسيرة، ونثرَ في وجوههم.. حفنة ترابٍ طازجة، عاد بها من قبر ابنته..!

ـ ١٦ ـ

صرخةُ ظبية إذ يرميها الألم في أرض الدار، ترمي الفأس من يده..! لم يسمعها بأذنيه.. تردّد صدى صوتها في شغاف قلبه.. ازداد وجيبه، ارتخت أعصابه، طار إليها.. مُسجاةً وجدها.. تحفّ بها النسوة.

. ما بكِ حبيبتي؟!

انهمر عليها.. جفّفَ عرقها، رفعتْ أصابعه الواجفة خصلات شعرها عن العينين الخائفتين.. رمقته بحنين عتيق، وانهلّت دموعها..

. ما بها..؟ ماالذي حدث..؟ سأل باحتراقٍ جاراتها المجتمعات حولها..

قالت إحداهن بخفر:

. لا تخف يا جار.. ربما هي آلام المخاض..

. مخاض..؟ صرخ مجروحاً.. مازال الوقت مبكراً..

يحملها بين يديه، يدخل بها الغرفة، يمدّدها على الفراش، تتمسّك بيديه، ويتقطّع صوتها الواجف:

. لا تتركني حبيبي.. أرجوك ابق معي..

. أنا معك ظبية.. لا تخافي..

تعتذر الجارات اللواتي رأين في المشهد غنج نسوان ليس إلا.. ويخرجن مُتغامزات..!

. والآن.. قولي حبيبتي ما الذي حدث معك بالضبط؟

. ثلاثة رجالٍ كانوا يحومون حول الدار، رأيتهم عدة مرات.. رجالٌ أظن أني أعرفهم..

. من هم..؟ صرخ مستنكراً.. وماذا يريدون..؟

. رأيتهم عند والدك في ضيعتنا..

. الويل لهم.. يلاحقوننا إذاً.. كيف عرفوا مكاننا... هكذا يا عساف..! ترسل رجالك وراءنا..؟! ألا يكفيك التخلّي عنا، ألن تشفي غليلك عيشة الفقر، التي يعيشها ابنك..؟ ظبية.. اسمعي لن أتركك وحدك بعد اليوم، لابد أن والدي لن يتركنا وشأننا، لأننا خرجنا عن طاعته، وسينتقم منا.. غير أني سأريهم قيمتهم..

ترتجف ظبية خوفاً.. تتمسّك بيدي زوجها:

. مالك حبيبي.. أنا خائفة عليك..

بثقةٍ يجيبها:

. لا تخافي.. اهدئي حبيبتي.. فلن يستطيع أحدٌ إيذاءنا مادمنا معاً..

_ ١٧ _

الشمس تذرو في وجه الكون دماء الرحيل، وظبية تلملم ما تبقّى من زوّادة النهار، فجأةً يبرز الرجال الثلاثة حول مالك، وهو يجمع عدّة العمل للعودة إلى البيت، تصرخ فزعةً:

. مالك انتبه..

يرفع رأسه بسرعةٍ، فيجد نفسه مُحاطاً برجال أبيه.. الذين يهجمون عليه، ويُقيّدون يديه بحبلٍ قويّ، يحاول الإفلات، يقاوم بساقيه، بجسده، بلسانه دون جدوى، تهجم ظبية عليهم، تمسك بكتف أحدهم، تحاول إبعاده عن زوجها، يدفعها الرجل بعنف، تقع أرضاً، تتقطّع صرخاتها.. ويتضرّج التراب بدم نفاسها..!

تأوهاتها تُجفل أوراق الشجر.. فتتساقط فوقها، لتخفي عن أعين الرجال وليداً، طرده الذعر خارج أحشائها..! بكاء الطفل ثبّط عزيمتهم.. ومرأى الدماء أخجلهم.. سملَ أعينهم.. ففرّوا هاربين.. يحملون معهم إلى سيدهم أنباءً لن تسرّه.. وحبلاً خاوياً، خائباً.. كان مُعدّاً لسحب مالك من رقبته إلى حمى أبيه..! يُسرع مالك ليُحضر الداية أم أحمد، ويضطر لحملها معظم الطريق.. علّها تصل بأسرع وقت، لإنقاذ زوجه وطفله..

قطعتْ أم أحمد حبل السّرة، لفّت الوليد بقماشة، أحضرتها لهذا الغرض، ناولته لأبيه، والتفتت إلى الأم، وضعت يدها على بطنها، وقالت لها:

. شدّي يا بنتي.. اكبسي قليلاً، وينتهي الأمر..

لكن ظبية لم تستجب، ساعديني يا ظبية ما بك..؟ قالت العجوز مُستغربة..! وقد بدأت البرودة تمشي في أصابعها، راعها الأمر..! تراجعت قليلاً، رمقت عيناها الذابلتان وجهَ المرأة الجامد.. ضربت على خديها بأصابع قلقة، نادتها، هزّتها.. تهالكت فوقها، وصوتها ينزف:

. (يا خسارتك يا ظبية.. يا خسارة شبابك يا بنتي..!)

جنّ جنون مالك، ذبحته عباراتها النّادبة.. رفعها عنها، ناداها بصوتٍ يُدمي الحجر..! لكنها لم تُجبهُ، لم تُقبلْ عليه، وتحضنه كعادتها.. كانت قد رحلت.. تربّع على الأرض قرب رأسها، ووليده بين يديه: يكلّمه بقلبٍ يفيض أسىً.. ودمعٍ ينهمل وجعاً:

. بنيّ.. قل لها.. قل لأمك أن تعود إلينا.. قل لها : لا تتركيني يتيماً، غريباً أماه.. أرجوكَ بنيّ.. أخبرها: أنني يتيمٌ أنا أيضاً دونها.. وغريب..!

****

أذكر يوم قتلوا أمي..!

يومها ولدتُ..

كانت الرّيح تنزل من الجبال، والغيوم تنتظر الزّمن الطّيب الذي يجعلها تهبط إلى الوادي.. وتترك السماء خاويةً.. تترك الضوء على لعبة الريح التي تصنع دوائر على الأرض، تُثير الغبار، وتضرب فروع أشجار البرتقال.

وتضحك عصافير الدوري، تنقر الأوراق التي أسقطتها الريح.. تترك أجنحتها بين أشواك الأغصان، وتلاحق الفراشات.. وتضحك.. لأنها لم تعتد رائحة الدماء.. لم تعرفها من قبل.. فكلّ

ما كان يُهمّها هو الصبح والريح.. والنّور الأزرق.. وكان شعر الجسد قد بدأ بالتّبرعم تحت جلدي بين الأوردة..! ويدي ترتجف عندما ألمس روحي بحثاً عن ثدي أمي..

قطع

ضرب غريب المنضدة بنزق، فسقطت عنها الرواية المُضرّجة بدموعه.. وصرخ مقهوراً:
. لا أحد بريءٌ من دم أمي يا ظلال..! حتى عصافير الدوري التي لم تأبه.. وأبي.. أبي شريكٌ في جريمة قتلها.. فلو لم يركب رأسه، ويتحدّى إرادة أبيه، لما حدث ما حدث.. وقد قلتُ لكِ ذلك.. فلماذا تُشوّهين الحقيقة، وتتعاطفين معه..؟ تُطهّرين يديه بحبر كلماتك.. جدّي قاتلٌ.. أجل. لكنْ من دون قصد.. فهو لم يرسل رجاله لإيذاء أبي، ولا لقتل أمي.. فكل ما كان يبغيه هو استعادة ابنه.
فعساف رجلٌ لا يحتمل أن يخرج ابنه عن طاعته.. وتهتزّ هيبته بين الفلاحين، أتعرفين ظلال: أني يوم سمعتُ قصة مقتل أمي، وولادتي من خالي فادي، قُتلتُ.. وأُصيب مالك في داخلي بفالجٍ شرخه نصفين.. رجلين.. أحدهما ميتٌ والآخر نصفُ حيّ..! وبتُّ أتطلّع إليه بإحدى عينيّ، فأراه الأب الحاني، والعاشق الذي ضحّى بكل شيءٍ من أجل حبّه..! أما عيني الثانية فلا ترى فيه إلا جثّةً تكسوها عفونة العناد والمُكابرة، فلو أنه نزل عند رغبة والده، وعاد إليه، لما تسبّب في مقتل أمي، ويُتمي..! فكيف تتلاعبين بالأحداث، وتُبرّئينه..؟! لن أسمح لك بذلك..! هنا.. في هذا الموقع بالذات لن أسمح لك..!

_ ١٨ _

وصل الخبر إلى قريتها، انتشر بسرعةٍ قياسيّة.. كعادةِ خبر السوء..! اجتمع الناس في بيت أهلها، لمواساة والديها، واصطحابهما للمشاركة في تشييع جثمانها، رفض والدها عبارات العزاء الدامعة، دخل غرفته، وأغلق بابها عليه، وهو يُردّد:
. ابنتي ماتت منذ خرجت من بيتي.. وانتهى أوان الحزن عليها..!
أما والدتها فقد تهالكت بين أحضان النسوة، كعريشةٍ تكسّرت أعمدتها.. حاول بعض المُقرّبين إقناع والدها بأن ما حدث حدث، وسقط إثمه بالتّقادم، وأنه يجب أن يُودّعها، ويسمح لامرأته

بإلقاء النظرة الأخيرة عليها، علّها ترتاح في قبرها.. لكنه أعاد ترديد كلماته اليابسة، وأشاح عنهم، يمضغ حزنه وحيداً..!

حمل أهل القرية يأسهم، واتّجهوا إلى بيت عساف، فوجدوه خالياً.. كان الرجل وأهل بيته قد انطلقوا ليُحضروا جثمان كنّتهم، آملين أن تُدفن في المسكينة، فيكون وجودها قوةً لا يستطيع مالك مقاومتها، فيبقى في بيت أهله، وتحت جناح والده..!

التقت عينا عساف بعينيّ ولده مالك بعد طول فراق.. أراد أن يغمره، أن يضمّه إلى صدره.. لكن نظرات مالك النّاريّة أربكته.. فانكمشت خلاياه التي كانت مُتوثبة لاحتضانه.. ولم يجد مخرجاً مما هو فيه، إلا بالتّشاغل مع الناس في تهيئة مراسم ترحيل الجنازة.. وقف مالك بينهم قلعةً تتهاوى أحجارها.. صرخ في وجوههم:

. كفّوا أيديكم، وعودوا من حيث أتيتم، فظبية لن تعود معكم إلى قريةٍ قتلتْها.. ويتّمتْ وليدها..! عساف.. خذ أهل قريتك حالاً، فلن أدعك تفرح، برؤية جسدها يغيب تحت التراب.. وأنا سأبقى باراً بك للمرّة الأخيرة، وأجنّبك وشماً يكوي جسدك.. لن أدع الناس يقولون: (عساف قتل القتيل، ومشى في جنازته).. لن تُشيّع ظبية يا عساف.. يكفيك ما شيّعت.. يكفيك..!

غادر عساف مع رجاله المقربين تلك القرية، مُحمّلاً بالخيبة والغضب..! ودُفنت ظبية في المكان الذي عاشت فيه مع حبيبها.. شيّعتها النسوة بمواويل الحزن والآهات.. بكتْها كلّ امرأةٍ وصبيّة في تلك القرية، حتى حماتها أم مالك.. التي أصرّت على البقاء مع ابنها وحفيدها، بكتْ وفاض أساها.. حتى غسل أدران قلبها، وهي تسمع مواويل الدّاية أم أحمد التي تُبكي الحجر:

. (حطّيتْ راسي ونمت.. حسّيتْ مرعوبة.. وصبيّة بعمر الورد.. عَ القبر مطلوبة..)

وصارت شمس الناظمية، تتعثّر عند كلّ شروقٍ، بربوة ترابٍ صغيرة، يرقد تحتها ملاكٌ اسمه (ظبية)..! ظبية التي رحلت في السفر الذي لا عودة منه..!

وبعد انقضاء أسبوع على رحيلها، بدأت أم مالك تلمّ أغراض البيت أمام دهشة ابنها..!

. ماذا تفعلين يا أم مالك خاطبها مذهولاً..؟!

اقتربت منه، حضنت رأسه، قبّلته بشفاهٍ مُخضّبة بالدموع.. وهمست:

. آن الأوان يا ولدي، لنعود إلى المسكينة..

بحزمٍ أجابها:

. عودي أنتِ يا أماه.. أما أنا وطفلي غريب فلن نُغادر هذا البيت..

جحظت عيناها، وارتفعت نبرة صوتها:

. ماذا تقول يا مالك، هل ستعيش وحدك هنا، وولدك من سيُربّيه..؟!

بهدوء من خسر كلّ شيء، ولم يبقَ لديه ما يخاف عليه.. أجابها:

. أنا أربّي ولدي، هنا في المكان الذي عشتُ فيه مع ظبية.. أمه القتيلة بيديّ زوجك..! أتريدين لابن ظبية أن يتربّى في حضن قاتل أمه.. أترضين هذا لحفيدكِ..؟!
. ما هذا الكلام يا ولدي..؟! ما علاقة أبيك بموتها..؟! ظبية ماتت بالولادة، جسدها الضعيف لم يتحمّل آلام المخاض، ومئات النساء قبلها متْنَ هكذا.. فالأمر طبيعي، ونحن معتادون عليه..
تأرجح رأسه حيرةً، وانفطر قلبه أسى.. وهو يُلقي في روعها ما حدث يوم الولادة..
ضربت المرأة كفّاً بكفٍّ، تعوّذت، وحوقلت.. ثم همست لنفسها:
. ليسامحه الله.. فما كان يُريد إلا استعادة ابنه..
لكنّ مالك موقنٌ أن والده هو قاتل حبيبته، ولن يسامحه أبداً على فعلته..!
ودّع والدته، وتمنّى عليها تبليغ أباه، أن مالك قُتل يوم قُتلت ظبية..! ومنْ رآه قبل أسبوع، هو رجل آخر، لا يعرفه..! وأوصاها أن تؤكد له: أن مالك الجديد لن يعترف بأيّ شيءٍ تحترمه..! واللغة التي علّمْتَهُ إياها في طفولته، وأوصيته أن يُعلّمها لأبنائه، كيلا تندثر وتموت، نسيها..! فالمقبول عندك مرفوض عنده..! وكلّ قبيح بنظرك بات جميلاً لديه..

قطع

مسح غريب دموعاً طفرت من عينيه.. حزناً على أمّ لم يرها، إلا بين السطور.. تنهّد الجرح في صدره، ونزف:
. ليتني ما حكيتُ لظلال حكاية مقتل أمي.. ليتني قفزتُ فوق تفاصيل تحرقني، كلما مررتُ عليها..! آهٍ يا ظلال.. أما استطعتِ تجاهل بعض الجوانب، أو التّعتيم عليها.. حتى دبيب أصابعي الغضّة بحثاً عن ثدي أمي الذّبيح.. نبشتِهِ من ذاكرتي..؟! ليتك تناسيتِ تلك اللحظات.. حتى لا يكوي الألم قلبي، كلما قلّبتُ صفحات روايتكِ..؟! كيف أشتغل على روايةٍ، كلّ حرفٍ فيها يُدميني.. كيف..؟!

_ ١٩ _

المدى أزهار برتقالٍ ترمي طعمها في أفواه الشرق وبساتين المسكينة..!
المطر ينهمل على مهلٍ.. والمزراب يُلقي أولى القطرات على الدّرج، وتبعته بقيّة المزاريب.. وكأن دربكةً من حوافر الخيل تطرق النافذة.. الستارة نصف المفتوحة بدأت تتهيّج كإناث الكمثرى..!
. أغلقي هذه النافذة يا حسنة.

أمرها عساف وأردف:

. وأنا سأخرج لأرى ما يحدث في الخارج.

نهضت حسنة.. النافذة نفسها رفضت أن تُغلق.. وانعقدت في الجو رائحة صلاح..!

. ياااااا ولدي..!

ترجّل الفرسان عن خيولهم، كانت تراهم من نافذتها، ألقى أحدهم صرّة ملابس ابنها صلاح وبندقيته.. وسرج حصانه المُدمّى..

. يااااا صلاح..

انخلعت الدرفة بين يديها، والستارة، والـ ..

. يا صلاح..

للحظةٍ رأت عساف يسند ظهره، كأنه ينكسر.. نادته:

. لا.. لا.. لا تتركهم يرحلون..

واندفعت صوبه، ارتمت على صدره.. تقطّعت أنفاسها..

. مات صلاح..

قال عساف وهو يدفع أصابعه الجاثيات في شعرها.. كأنه يُعزّي المزراب..!

. لا تذهبوا.. صرخت بالفرسان..

لكنهم غابوا في عتمة المنعطف والمطر..!

. لا تذهبوا..!

ركضت وراءهم عبر الفناء.. في الوحل.. سقطت.. مرّغت بيقظة الطين وجهها.. نهضت..

ركضت.. ركضت.. صهلت خيولهم على حافّة المسكينة.. تنشّقت عبير ابنها.. هجست:

. كأن أحدهم قد رجع..

ترجّل الشاب عن جواده فوق رأسها.. انتشلها من بركة الطّين الأخيرة، مسح عن أهدابها الأسئلة كلها..

ضمته إلى صدرها بقوّةٍ.. بقوّة أمٍّ تودّع وحيدها إلى الأبديّة..

. أنتِ أم صلاح يا أمّاه..؟

وخزتها رائحة الجياد والبارود.. وفي الحلق تجمّد طعم البطولة والشهادة أكثر من عسل الجنّة..!

. أنا يا بنيّ..

. زغردي.. . وغصّ . صلاح بطل.. صلاح شهيد..

نفض عن شعرها بعض الوحل.. زغردت نحيباً وحليباً تساقط مع المطر.. تجمّع أهل المسكينة حولها، وجوههم كأصواتهم مقصوصةٌ من خيالاتٍ شاحبة..! زغردت أكثر.. نظرت في عين

المجاهد، وهي تحضن رأسه بكفّيها.. صورةِ صلاح فيهما تعلوها غشاوة دمعٍ.. مسحت بأطراف أصابعها دمعةً تأرجحت على شاربه..

. لا تبكِ يا ولدي.. صلاح أخوك بطل.. تعال.. تعال أنت مبلولٌ جداً، سأغلي لك شايً..

سحبته من معصمه، حاولت أن تنقل قدمها، لمْ.. خارت ركبتاها، وقبل أن تسقط تلقّفها المجاهد.. حملها على ذراعيه كَدْسَ أمومةٍ.. مرّ بعساف الذي كان واقفاً تحت المطر كصورة وهم..!

. ماذا قال لكَ أيضاً..؟ سألتْهُ..

رشح صوته من نقيّ عظامه، كقطراتٍ تتبخّر من مسامات ثيابه:

. أنا رفعتُ رأسه.. لفحتني رائحة أنفاسه الأخيرة.. سألتُه: لماذا فعلتَ ذلك يا صلاح..؟! فأشار إلى لا شيء.. كان.. يرتعد ويقول:

. إنه الحصان.. الحصان رفض أن ينقاد.. واندفع نحوهم مكشوفاً.. فاصطادوني كالدّوريّ..

. وماذا بعد يا صلاح..؟

. سلّم لي على أمي.. و.. و.. وأشهد أن لا إله إلا الله.. و.. وغاب..

فرمح حصانه مبتعداً في حمّى الصهيل..!

زغردت حسنة.. وفقدت وعيها..

****

. لماذا لم تجلبوه معكم..؟! سألته، فأجابها:

. تعاهدنا قبل أن نصل فلسطين، إن استشهد أحدنا أن ندفنه في الأرض التي قضى من أجلها..

. والحصان..؟

. بالكاد أخذنا السرج عنه.. ومضى يرمح صاهلاً في دوائر تتعالى أكثر فأكثر حول قبر الشهيد..! لم نستطع الإمساك به.. أراد البقاء عنده.. عند صلاح..

. كانا أكثر من صديقين..

. سأرحل يا أمّاه..

. ابقَ أكثر..

. لا تنهضي أرجوكِ..

. لا تنسى أن تُغلق باب الـ..

وفقدت الوعي.. ولكن على صدره.. صدر ابنها الذي تراه في عينيه..

. نسيتُ أن أسالك عن اسمك..!

****

المطر مايزال ينقر.. والكنّة مانتزال تضع رأسها بين يديها بذهولٍ في زاويةٍ كأنها تتسمّع للنّقر.. تاك.. تاك.. كأنّ القطرات تثقب الأرض بين قدميها.. وهي تُحدّق دون صوت.. دون حركة.. دون أن يرفّ لها جفن..! تحدّق في ملابس زوجها صلاح.. فرشتها أمامها قطعةً قطعةً.. قبّلتها.. تمسحت بها.. تشمّمتها.. الأكمام، الأزرار.. الياقة المُتعرّقة..

ظنّوها نائمة على رائحة صوته..!

. مساء الخير يا حبيبتي..

شهقت روحها:

. صلاح.. رجعتَ يا حبيبي..؟ أنت غرقان.. على ثيابك دم..!

. نعم يا حبيبة.. كنتُ في فلسطين مع المجاهدين.. كيف حال ابننا..؟

ربتَ على بطنها الريّان.. تنهّد، وأردف:

. كبر في غيابي..!

. سيأتي بعد شهر.. كالقمر يُشبه أباه..!

مرّ حموها أمامها كالشّبح.. بل كالظنّ.. يحمل قارورة زيت الكاز..

(قالوا في المسكينة: إنه أجهض كنّته عمداً..!)

الكنّة ساهمةٌ.. بل شبه غائبة، تُحدّق في ثياب زوجها..

. قلتَ لي يا صلاح أنك تنفذ إلى روحي، وتوقد فيها نور الشمس..

. نعم يا حبيبتي.. أنا أنفذ إلى روحك وعينيك وقلبك..

حاول البعض إيقاظها.. قالت حماتها:

. إنها نائمة..

. القرفصاء..؟؟!

. لا.. لا.. أنا لستُ نائمةً يا حبيبي.. ولكن دعهم يظنون ذلك.. رفاقك رجعوا.. لماذا لم تعد معهم..؟!

****

. الحصان يا عساف في الخارج اسمع..

. أنتِ تحلمين يا حسنة..

. أتعرف يا عساف كم كانا يحبّان بعضهما..! صلاح والحصان.. رجع الحيوان وحده حزيناً.. يبحث عن الذّكريات..

. نامي يا امراة..

نهرها عساف..

. الحصان يدور، ويدور.. اسمع.. إنه جائع.. لم يأكل.. لم ينم.. لم يفعل شيئاً سوى العودة..!

. اسمع.. ها.. اسمع.. حوافره تقرع..

. إنها قطرات الماء.. نامي يا امرأة..

القطرات واحدةٌ بعد أخرى يذرفها المزراب.. والحجر يُردّد وقعها كالأنين..!

. استيقظ يا عساف.. إنه الحصان..

. نامي يا امرأة..

الصوت يهزّ الكتفين.. يجعل الجسد ينتصب.. تُسمَع خطواتٌ تتجرجر.. مُتثاقلة.. مُتثاقلة.. والنّحيب..

. الكنّة سترحل يا عساف..

مايزال الماء يسّاقط قطرةً.. قطرة.. كأنّما للتّذكير بوجوده.. وبكاءٌ خفيف.. نحيلٌ كخيط.. وربّما لنُحوله استطاع اجتياز النُّعاس.. ووصل إلى موضع تعشيش الفزع..!

وجهُ امرأةٍ يستند إلى إطار الباب..

الليل قاتلٌ.. والوجه يبكي.. وقمر..

. اسمع يا عساف.. اسمع.. في الخارج أنين ميت..

الأقدام تحكّ الأرض..! تروح، وتجيء.. والماء يُغادر المزراب بأنين.. أخيراً.. رحلت المرأة.. الكنّة.. عروس صلاح التي أجهضت صبيّاً جميلاً بالأمس.. بالأمس فقط..!

....

صار الفجر فوق الرأس كمشةَ عتم..! ضوءاً شاحباً ولا نجوم..! سماءً رماديّةً ولا غيوم.. رغم أن المزراب مازال يُطقطق على الحجر:

تاك.. تاك.. تاك..

. الرّيح.. الرّيح والماء هما منْ يبعثان في رأسك هذه الأوهام..

. نعم إنها وساوس..

. سأكسر المزراب، وأقتل الحصان..

قالت واجفةً كأنما لتحميهما:

. لا تفعل أرجوك.. لا تفعل.. إنها وساوس..! أجل وساوس..!

****

الشمس تدنو بحذرٍ من حافة الفجر.. وعلى حيطان المسكينة ارتسم صهيل جواد..!

. اسمع.. اسمع يا عساف.. إنه حصان صلاح.. لماذا لا تُصدّقني يا رجل..؟!

. اتركيني أنام يا امرأة..

. لماذا لم تقبل عزاءً بابنك الشهيد يا عساف..؟

ـ بمن أقبل العزاء بصلاح، أم بابنه الذي أسقطته أمّه قتيلاً.. أم بمالك الذي رفض أن يعود معي رغم موت ظبيته..؟! جميعهم رحلوا دون أن يأخذوا إذني.. تخطّوني ورحلوا..! نامي.. نامي واتركيني لـ...

ملأ الصهيل احمرار الشرق والمسكينة.. استدار ليلفّها كزوبعة..!

ـ سأقتل هذا الحصان الذي خرج هو الآخر عن طاعتي..

ـ حسناً.. حسناً.. اقتله.. ولكنْ احذر أن تُصيب صلاح..!

انفجر الصبح متشظّياً كوردة نار.. مع طلقة من بندقيّة عساف.. عاد حانقاً إلى زوجه..

ـ لقد قتلته.. قتلتُ الصهيل.. هل ارتحتِ الآن..؟ اتركيني أنام..

ـ نعم تعال.. اغفُ إلى جواري.. ولكنْ..

سقط المزراب مُتهشّماً على بلاط الدّرج..

ـ أسمعتَ يا عساف.. إنه الجواد.. لقد عاد..

****

الخيالات.. أهل المسكينة سمعوا الرصاصة، فابتدؤوا الاحتفال بالشهيد.. اعتبروا أن عساف أذِنَ بالعزاء.. وارتفع الأذان مع العيارات النارية والزغاريد والشروق..! كاهن الكنيسة أقام قُدّاساً لراحة نفس الشهيد: (منْ آمن بي، وإن مات فسيحيا..) ومن المسجد ارتفعت تراتيل الآيات القرآنية الكريمة..

ـ هل تسمع يا عساف..؟

ـ اتركيني أنام يا امرأة..

ـ ٢٠ ـ

وتظلّ ظبية في البال، رايةً لحبٍ جاء قبل أوانه.. وذوى قبل أن تشبع منه الحياة..!

لم يُصدّق مالك أن ظبية ماتت، إنّه يسهر معها كل ليلة.. يحضنها لتنام قريرة العين تحت جناحيه.. يشرب معها قهوة الصباح، يسألها عن الغريب ساعةً بساعة:

ـ هل أرضعتِ الصغير، هل بدّلت ثيابه..؟ لماذا يبكي إذاً..؟!

انتبهي له فهو عزوتنا في زمن الاغتراب..! إنه ثمرة حبنا، فلا تنامي حتى ينام..

لا ترحلي يا ظبيتي الصغيرة، فمازال الوقت مبكراً..!

يضع طفله في حجره، ويُهدهده..!

ويبكي.. يبكي بصمتٍ كما يليق بعاشقٍ مفجوع..! تتقرّب منه جارته شهلا، التي رأت في فتوّته، وفورة شبابه، كلّ ما تريده.. تُطيل الوقوف على كرسيّ خشبيّ صغير، وراء الجدار

الواطئ، الفاصل بين بيتها وبيته، وعيناها مُعلّقتان على حركاته وسكناته..! وعندما يبكي غريب، ويحار مالك في أمره، تغتنم الفرصة، وتعرض مساعدتها في الوقت المناسب..

ويوماً إثر يوم، صارت شهلا مُخوّلةً باحتضان الطفل.. رغم أن مالك يرفض أن تترك أية امرأةٍ بصمتها على ولده، فلا صدر يحقّ له أن يحتضن غريب، وينعم بعبق ظبية المكنون فيه إلا صدره، لا ثغر سيناغيه، ولا يدَ ستُهدهده إلا يده وروحه..! تبكي شهلا بصمت.. فرغم تفانيها في رعاية الصغير، مازالت تشعر أن يد مالك تُبعدها عنه، وكأنه يعرف أن عنايتها بغريب، ليست سوى ذريعةٍ للوصول إليه هو..! غير أنه لا يُدرك أنها أحبّت ذريعتها..! تعلّقت بها.. تعلُّقَ الغريق بطوق نجاته..! وباتت لا تستطيع العيش بعيدةً عن الوسيلة والهدف معاً.. فطوق نجاتها لبستْهُ عقداً مُشتهى.. لا جمالَ لعنقها دونه..! ولبسها صدراً حانياً..

لا حياة له دونها..! ولمّا رأى مالك تعلّق طفله بها، ومحبّتها له، اعتذر عن قسوته بلباقة، وبدأ يُعوّد نفسه على تقبّل وجودها في حياته كأمرٍ لا بدّ منه..!

وباتت شهلا وقد أنعشتْها ليونة مالك، تطبخ له كل يوم، تحمل الطعام بيديها، وتدخل داره دون شعورٍ بالحرج.. فهي تكبره بعدّة أعوام.. يُكلّله الحياء من فرط عطائها، يعتذر عن تقبّله.. لكنها ترجوه مراراً ألا يعتبرها غريبة.. وبما يشبه الرجاء، تقول له:

. اعتبرني أختك.. أمك.. أو..

تبلع ريقها حسرةً.. وتُردف:

. أو أيّ شيء تحتاجه.. فأنا لك، كما تريد..!

جلست على كرسيّ صغيرٍ أمامه هذا المساء، وقد أرادت أن تُعرّفه على نفسها.. وتبثّه أسرار حزنها، بدأت قصتها بزخّاتِ دمعٍ حارٍّ.. سكبتْهُ مآقيها مع أول جملةٍ نطقتها..! تلك الدموع كانت المعاول، التي دكّتْ جدار الفصل بينهما، فانكشف الغطاء..

(رآها أمامه صبيةً صغيرةً تلعب كالأطفال.. تنطّ في الحارة، تُشاكس الصبيان..

لا تُعير بالاً لتباشير الأنوثة، التي بدأت تتفتّح على مساحة جسدها.. تضرب أمها كفاً بكفّ وهي تخاطبها:

. اهدئي يا بنت.. اركني.. صرتِ صبيّةً (والخطّاب على الأبواب..)

ولم تكذب نبوءة أمها.. فقد جاء لخطبتها عريسٌ من قريةٍ مجاورة.. (تعشقه أخته) كما يُقال..!

رمقته شهلا بعينيّ طفلةٍ تتفحّص لعبةً ستشتريها.. أعجبتها اللعبة.. طار عقلها فرحاً.. فهذا الشاب الجميل سيكون لها، لها وحدها..! ومشت أمور الخطبة والزواج بسرعة.. ولأنّ العريس لا يحبّ الأعراس، ولا تستهويه هذه التفاصيل.. نُقلت عروسه في موكب متواضع، ضمّ أهلها، وبعض أهله إلى جنّتها المُقبلة..!

أُطفئت الأضواء.. وجثم على المكان وحش الظلام.. صرخت شهلا:

. أخاف الظلمة.. الأشباح تمشي في العتم.. أرجوك إني خائفة..!

قال لها:

. لا تخافي هذا أفضل.. سيبقى الوضع هكذا، حتى نتعوّد على بعضنا، ويزول خجلنا..

صباحاً.. فتحت عينيها على فجيعة اغتيال شبابها.. صرخت فزعةً:

. من أنت..؟ ما الذي أتى بك إلى سريري..؟ وأين عريسي.. أين سامر..؟! سامر.. سامر..

صرخت بصوتٍ مذعور.. حاولت أن تفتح الباب دون جدوى..

بهدوءٍ مرعبٍ قال لها:

. المفتاح معي.. تعالي.. فالصراخ لا يُفيدك.. اقتربي، وساعديني على الجلوس..

هذا واجبك فأنا زوجك..

جحظ قلبها.. نبقتْ عيناها.. وفحّ صوتها:

. زوجي..؟ أنت زوجي..؟ لا.. سامر كان وسيماً.. وساقاه.. ساقاه كانتا سليمتين.. يستطيع أن يقطع الدنيا من شرقها إلى غربها بساعة واحدة..! أتراك قتلته..؟ قتلت زوجي..؟ كيف استطعت ذلك، وأنت العاجز..؟ هل ضربتَه بعكازيك اللعينين..؟ هشّمتَ رأسه الجميل، ليبقى رأسك القبيح..؟!

بغضبٍ يرعد صوته:

. اخرسي يا امرأة.. فأنا هو سامر زوجك.. وطاعتي واجب عليك..

تتراكض في أرجاء الغرفة.. تضرب الجدران، النوافذ.. الأرض.. وصوتها يتقطّع:

. سامر.. سامر حبيبي أرجوك.. أنقذني من هذا الكابوس.. أمي.. أبي.. أين أنتما..؟

جفّ ريقها، أنهكها التعب، سقطت أرضاً، كفراشةٍ احترق جناحاها..! دارت بها الأرض، تراقصت أمامها جدران الغرفة الصمّاء.. بشماتةٍ تراقصت على وقع خيبتها..! أحست أن الدنيا كلّها مُتواطئة مع هذا الوحش لاغتيالها..! أمها، والدها، سامر، أهله..

(حتى جدران هذه الغرفة اللعينة لا تردّد صوتي.. صوتي بلا صدى.. بلا صوت.. أين أنا..؟ أهذا جبّ الأموات الذي نُرمى فيه عندما نصبح جثثاً..؟!

هل أنا مجرّد جثّة..؟ أهذا هو الموت إذاً..؟)

تتلمّس جسدها..(إني أحسّ به.. مازال يتحرك.. سمعتُ أن الميت لا يتحرك.. يجمد.. لا يحسّ، فكيف أكون ميتةً، ومازال قلبي يدقّ، يتقطّع خوفاً وألماً..؟! هل هو موتٌ خاصّ بي..؟! أتراك ربي قد فصّلتَ لكلّ إنسانٍ موتاً على قياسه، ليليق به..؟! ربما.. فأمي كانت تقول دائماً: الناس درجات..!

ألا أستحقّ موتاً أجمل من هذا..؟! ربّاه أعنّي.. أمدّ إليك يدي، فلا تخذلني..)

يمسك يدها، يهزها بقوة، يصرخ في وجهها:

. أفيقي أيتها المجنونة، فلا فائدة من جنونك، لقد انتهى الأمر، وأهلك يعرفون كل شيء.. اخرجي إليهم، اسأليهم..

همدت كشعلةٍ شربت نهراً..! ونزّت جوارحها:

. أمي تعرف..؟! وأبي كذلك..؟! لماذا..؟! لماذا فعلتم بي كل هذا، ومن هو ذلك الشاب الجميل الذي خطبني، ولماذا أنا بالذات..؟!

. إنه أخي عماد، ولا مجال لزواجي إلا بهذه الطريقة، أما لماذا أنتِ بالذات.. فهو القدر والنصيب..!

حاولت أن تقول له:

. ولماذا يتزوج أمثالك..؟ وإن كان لابد من ذلك، فلتكن واحدةً مثلك.. لا مثلي..

لكنها لم تستطع.. لم يجرؤ لسانها على نطق ما يجول بخاطرها.. تحوّلت كلماتها الموءودة نظرات مقتٍ تسدّدها إلى عينيه.. تُخجله نظراتها.. لأول مرّةٍ مُذ بدأ التخطيط لهذه اللعبة، يشعر بالذنب.. يناولها المفتاح، وتهمس لها دموعه:

. اخرجي، وافعلي، ما تريدين..

بسرعةٍ تغادر غرفته، كطفلٍ نام على حكاية جدّته عن (أمّنا الغولة)، وعندما فتح عينيه، وجدها أمامه..!

ترمي نفسها في حضن أمّها، ترتجف بين يديها، وصوتها المُتكسّر يهمي دماً:

. أماه.. خذيني معك.. لا ترحلي دوني.. وأنت أبي.. أرجوك لا تتركني هنا.. ينظران إليها بأسى.. يأخذانها جانباً، تقول أمها وهي تحضن صرّة نقودها، التي امتلأت بما تحبّ:

. هذا قدرك يا بنتي..

بينما يُردف والدها:

. إنه النصيب يا شهلا.. اعتنِ بزوجك، ولا تُسوّدي وجهنا أمام الناس..!)

. وبقيتِ معه..؟ سألها مالك بغصةٍ ملأت كيانه..

بلعت ريقها المرّ.. وقالت:

. نعم بقيتُ معه.. فماذا سأفعل، وقد باعني الأهل.. أنساهم لون الذهب صبايَ المسروق..!

اقترب منها، رشفت أصابعه دموعها.. حدّق في عينيها، يقرأ في غوريهما فصول مأساةٍ آن لها أن تنتهي.. ليُسدل الستار على ماضٍ أليم.

ومنذ ذلك اليوم لم تعد شهلا غريبةً عن مالك.. وما عاد يُحرَج من عنايتها به..

واحتضانها لابنه.

كمعظم بيوت هذه القرية، يقف بيت مالك وشهلا وجهاً لوجه، كأنهما يستعدان للعناق..!

لا يفصل بينهما سوى جدار عتيق، يُخفي على استحياء قامة الرجل.. تقف شهلا على كرسيّها الخشبيّ الصغير، لتُطلّ على دار مالك، وتهمس قلقةً:

. لقد تأخّر، برد الأكل، وقلبي يتحرّق لعودته..!

تسمع صرير الباب، يُطربها الصرير، كأنها تسمع أغنيتها المفضلة، هاربة من طفولتها البعيدة..! تنزل عن الكرسيّ راقصةً.. تحضن غريب، تضمّه يسراها إلى صدرها، وتحمل بيمناها طبق الطعام الجاهز منذ ساعتين، تدخل عليه، يتناول الطعام من يدها، يضعه جانباً، ليحضن طفله، ويبعثر على وجهه، وعنقه مرارة تعبه.. يأكلان معاً، والطفل يناغي بينهما.. تتوقّف شهلا عن الطعام فجأةً، وترحل عيناها بعيداً..

. ما بك شهلا.. أين ذهبتِ..؟ يخاطبها مالك بحبّ..

تعلو وجهها ابتسامة خجولة، وتقول بشيءٍ من التردّد:

. الموضوع يتعلّق بغريب..

. ما به.. هل يُزعجك..؟

ويردف ضاحكاً:

. انتظري منه الكثير بعد الآن.. فهو منسوب الجدّين..! ولابد أنه سيوقف الدنيا على قدمٍ واحدة..!

. لا.. لا.. الموضوع غير ذلك تماماً.. الولد يا مالك أكمل عامه الأول، وقد تأخرت في ختانه..!

. ختان..؟!

صرخ مستغرباً.. وكأنه يسمع بالموضوع لأول مرة..!

. نعم قالت بخفر.. ألم تسمع بالختان..؟

ورمشت عينها بحركةٍ لا إرادية:

. إنه ضروري لصحّة الولد ونظافته..

زمجر غاضباً:

. لا.. غريب لن يُختن..!

. ولماذا يا مالك..؟ قالت مستغربةً.. كلّ الذكور يجب أن..

قاطعها قائلاً:

. لو كان الختان ضرورياً لوُلد الأطفال مختونين..! هل يصعب هذا على الله..؟! الموضوع إذاً اجتهادٌ بشري.. يودّون أن يضعوا بصمتهم على إبداع الخالق..! لكني لن أسمح بذلك مع ابني.. لن يمارس هؤلاء سلطتهم عليه، كما مارسوها على أبيه..!

ويحتقن وجهه غضباً، وفي مُخيّلته تمرّ صورة والده، وهو يحاول إبعاده عن حبيبته ظبية، مُتّكئاً على اعتباراتٍ مريضة.. وتنزف صورتها أمام عينيه، وهي تتهاوى على الأرض.. ويتضرّج التراب بدمها..! فيهدر صوته راعفاً:

. لن أسمح أن يُمارَس على ابني أيّ شيء تعارفوا عليه.. كلّ ما يُعجبهم لا يُعجبني..

وما يرونه واجباً لن يكون له أيّ اعتبار عندي..!

تقترب منه، تتغلغل أصابعها العاشقة في ليل شعره.. تنزل بتلذذٍ إلى عنقه وكتفيه.. يحاول إبعادها.. فمازالت حالة الكآبة تسيطر عليه، غير أنها مُصرّة على استعادته، وإخراجه من حالةٍ تظنّ أنها السبب فيها..

تتمسّح شفتاها الملتهبتان بسنابل صدره.. وأصابعها تتابع رحلتها العذبة في شعابه.. مُزيلةً عقباتٍ، لن تبقى قادرةً على الوقوف في وجه شلالات الدماء، التي بدأت تهدر في عروقه.. جذبها نحوه بقوة.. ومعاً عاشا عمراً، لا يُشبه تلك السنوات المقضومة، التي عاشتها، مع عجز زوجها، مذ كانت في الثالثة عشرة حتى اليوم.. تنهّدت بارتياح..

زفرت كل ما بداخلها من سموم وتراكماتِ هموم.. وقالت له:

. قبلك لم أعرف معنى أن يكون لي رجل.. لم ينعم صدري بدفء الاحتضان..

ولا احترق عنقي بلهيب الأنفاس..!

قال لها:

. ومعكِ أدركتُ أن لون النار، وطعمها لا يتغيّران أينما شبّتْ.. والغيلان جميعاً لهم فمٌ واحد..

_ ٢٢ _

حلقات الدّبكة الشعبية، والزّغاريد تُعلن بداية عهد جديد.. وبيوت المسكينة جميعها ترفع راية الجلاء والانتصار..

وحده بيت الحاج عساف يلتحف الانكسار.. فقد ولّى أصدقاؤه، وزال بزوالهم عزّه. إنه يقبع في بيته مُدارياً خيبته.. تقترب منه أم مالك، تبتسم بدهاءٍ، وهي تحاول مُداعبته للتّخفيف عنه.. يشيح عنها، ويتكسّر صوته:

. اتركيني بحالي يا امرأة، دعيني وحدي..

. لا يا عساف، لن أدعك تتمادى في الخطأ..! الأيام تمضي، وأنت محبوسٌ في بيتك، بينما يحتفل الناس بزوال الاحتلال، وهذا ليس لصالحك..!

ينتبه لما تقول مستغرباً، يعدّل جلسته، ويستمع باهتمام:

. ماذا تريدين أن تقولي يا أم مالك..؟

. يجب أن تخرج إلى الناس، تشاركهم الفرح، وتُظهر للجميع أنك سعيدٌ أكثر منهم.. فليس الحاج عساف من يرمي سلاحه من الجولة الأولى..!

. لم أفهم ما تودّين قوله، ماذا تقصدين..؟

. عليك أن تركب الموجة الجديدة.. فعساف لا يعيش على الهامش، ولا يليق به ذلك، أفهمت..؟

يشرد قليلاً ثم يعود محمولاً على جناحي ضحكةٍ سكرى:

. (والله لستِ قليلةً يا بنت الحرام..)

يحضنها، وهي تضحك مزهوةً بذكائها..! محبورةً بنيل إعجاب فحلها.. الذي سال لعاب شهوته على لحيته المُحنّاة، فاستيقظت رائحة الحنّاء الوخّاذة.. يهجم كعريسٍ على فمها يودّ التهامه.. لكنّ هجومه تأخر قليلاً.. أو ربما فرحتها بغيثه القادم، هي من كتبتْ بأحرفٍ راقصةٍ قفلة عمرها..! فقد شرقت العروس بضحكتها..! جحظت عيناها، تاهت حركاتها، كطفلٍ يغرق. يحبّ الحياة، لكنه لا يُجيدها.. لم يستوعب زوجها إشارات يديها، ولا وصلته شهقاتها، فهو مأخوذٌ بشهقاتٍ أخرى تأكله.. بمياهٍ حارّة تتلوّى في عروقه.. يودّ أن يضخّها في هذا الجسد الخبيث..! فقد ازداد يقينه الآن أنّهُ يحتاجه، لم يكن في يومٍ من الأيام بهذا الجنون مع أية امرأة..! وكأنّ عقله الباطن قد زجّ كلّ فحولة أجداده، في معركة الحياة ضدّ اليباس، لكن مشيئة اليباس كانت الأقوى..! ماتت المرأة بين يديه، همدت، وكأنها لم تكن منذ لحظات جبلاً من نار..! الجبل تحوّل رماداً.. وعساف المذهول يفتح فمه على اتساعه.. لم يستطع أن يستوعب ما حدث، أو أنه لم يشأ أن يصدّق أن مثلها قد تموت.. هذه المرأة التي تزوّج عليها مرتين، وكسر قلبها بابنها، ظلّت على الدوام محور حياته، وصمام الأمان فيها.. كانت الحبر السرّي الذي لا يستخدمه إلا في أحلك الظروف..! فكيف يصدّق أنها قد تموت..! ناداها، هزّها، صفعها، دون جدوى.. تذكّر أنها كلما مرضت كان يضاجعها، فتشفى.. وتبرأ في الحال..! ابتسم للفكرة، وباشر في تنفيذها.. غير أنها لم تختلج..! شربت دواءه السحري..

وما برئت.. أخافه الأمر، فماذا عساه يفعل ليوقظها..! أسرع إلى الغرفة الثانية، نبش امرأته الصغرى من فراشها، سحبها إلى غرفة أم مالك، عرّاها قطعةً قطعة، وبدأ يلتهم مفاصل أنوثتها، وهي مذهولة مما يحدث..! همس خوفها في كيانه:

. عساف.. عساف.. ماذا تفعل..؟ ولماذا هنا..؟ ألا ترى أم مالك نائمة.. يا ويلي منها إذا أفاقت، ورأتنا..!

. ليتها تفعل.. يا ليت.. فأنا أريدها أن تشمّ رائحتكِ في غرفتها، ويجنّ جنونها.. علّها تستيقظ..!

لم تفهم المرأة حرفاً مما قال، لكنها استسلمت له، مُعتقدةً أنه يهذي من فرط شوقه لها..! انتهى الاجتياح، لكن أم مالك لم تستيقظ، لم تحرقها الغيرة، لتتمرّد على موتها، كما تمنّى زوجها..! رحلت، وتركته يهذي:

. إنها الضربة الثانية.. والضربتان على الرأس موجعتان.. موجعتان كثيراً..!

***

لم يحزن عساف على وفاة حسنة، كما حزن على زوال أسياده الفرنسيين، لكنه لم يفشل في إيجاد البديل..! فقد عاد ربيعه يُزهر على يد الموجة الجديدة، التي نصحته أم مالك بركوبها.. فما أن انتهت طقوس العزاء، حتى غادر (المسكينة)، متّجهاً إلى القرية المجاورة، التي يستقرّ فيها البيك الكبير، وصل إليها مُنهكاً، ألقت أنفاسه المُتقطّعة سلاماً، يحاول أن يكون كما ينبغي.. ردّ البيك سلامه ببرودٍ آلمهُ.. فبادر للتعريف بنفسه، لعلّ اسمه ومنزلته السابقة، يُعيدان له شيئاً من سطوته الكسيرة:

. أنا الحاج عساف يا بيك، جئتُك من قرية المسكينة.

قهقه البيك جذلاً، وهو يقول:

. أنت الحاج عساف..! أهلا.. أهلاً.. تعال.. تعال اجلس قربي، فأنا أعرفك منذ زمنٍ بعيد..! تعاونّا كثيراً من قبل، ولن ينقطع ما بيننا.. اطمئن..!

. تعاونّا..؟! ردّ عساف مستغرباً.. لكني لم أرك من قبل يا سيدي..!

. (ولو) يا رجل.. أنا جلال بيك.. ألا تعرف هذا الاسم..؟!

. جلال بيك..؟! أنت جلال بيك..! معقول..؟! صحيح أن الدنيا صغيرة.. كما يقولون..!

يتضاحك البيك، وهو يقول:

. صغيرة و(بس)..؟ صغيرة وحلوة يا عساف..! مثل العروس..! تُعطي شهدها، وعسلها لمن يُقدّر حسنها، ويدفع مهرها..

. وأنت خير من يُقدّر الحسن، ويُعطيه حقّه يا بيك..! فقد أصبحتَ بين ليلةٍ وضحاها صاحب كلّ هذه القرى.. ومن بينها قريتي، اشتريت معظم أملاكي دون أن أراك..!

. لا..(وأنت الصادق) قال البيك مستنكراً.. لم أحقق ما حققت بين ليلةٍ وضحاها.. خطّطتُ.. سهرت.. تعبتُ كثيراً.. حتى حافظتُ على أملاكي، ووسّعتها، فوصلتُ إلى ما أنا عليه..! عرفت تماماً ماذا تريد العروس، لتنام في فراشي، ودفعتُ مهرها حتى آخر قرش..!

تململ عساف في جلسته، وكأنه على الجمر يثوي..! ابتسم، ولهيب الحسد يكوي فؤاده:

. هنيئاً لك يا بيك.. فأنت تستحقّ، والله تستحقّ يا عمّي..! أما أنا.. فقد كنتُ مغفّلاً، مأخوذاً باللّقمة السّريعة..!

. باللقمة.. أم بالأحضان الدّافئة يا عساف..؟! كنتَ قطبي الآخر في المنطقة، اليد الثانية لأصحابنا.. لكنك رضيتَ أن تكون ساعدهم الأيسر، أما أنا فلا أرضى إلا أن أكون اليد اليمنى، وأنت تعلم أن اليمنى أقوى، وأقدر على التّسديد..! غير أنك لستَ سهلاً يا عساف.. وخطؤك الوحيد هو تفريطك بالأرض، وبيعها دون تفكير بخطورة ما تقوم به..

ضحك عساف بمرارة وقال:
. البركة فيك يا بيك، فأنت حافظتَ على تلك الأملاك، والأرض لم تذهب غريبة، فقد انتقلتْ من يدي إلى يد أخي.. يعني (من العبّ إلى الجيب) كما يُقال.
ابتسم البيك، بخبث وفكّر: اللعين يتخابث عليّ، ويريد أن يأخذني(بالعبطة).. لكن على مَنْ..؟ على جلال بيك..؟(لا والله بعيدة عن بوزك يا عساف..) فأنا وحدي سيّد هذه المنطقة..
(وأرضك راحت غريبة.. يا حرام..!)
. بماذا يفكر أخي وصديقي وشريكي البيك..؟ بادره عساف ليعيده من شروده.
. أنا معك يا عساف، وسنتابع تعاوننا، ستكون من الآن ساعدي الأيمن..
الأيمن يا عساف.. وليس الأيسر كما ارتضيتَ سابقاً.. أفهمت..؟ لكني أنصحك ألا تتذاكى عليّ، فلن تستطيع أن تكون أكثر من تابعٍ لي، مهما حاولت.. ستكون سوطي الذي أجلد به ظهور الفلاحين، ليُخصبوا أرضي، قبل إخصاب أرحام نسائهم..!
ويقهقه وهو يُسدّد نظراته النارية إلى عينيّ عساف، الذي يتصنّع الابتسام مُداراةً لخيبته. بينما تُبقبق روحه غضباً:
. (انتصرتَ عليّ أيها الكلب الأجرب، وسحبتَ البساط من تحتي.. لكني مضطرٌ للسير في ركابك، والدوران حولك، لأبقى في خانةٍ لا أستطيع العيش خارجها.)
ومنذ تلك اللحظة تحوّل عساف ناظراً لمصالح البيك، ونابحاً لا يكلّ على تخوم حقوله الشاسعة.. يحميها من كسل فلاحٍ، قد يرمي الفأس من يده لحظاتٍ، ليلتقط أنفاسه.. أو من آخر يُخبئ في سرواله كمشة قمحٍ لقوت عياله..! وباتت تلك الأراضي . التي كان جزءٌ كبير منها ملكه في يومٍ ما . ميدانه.. يصول ويجول فيه، ليُثبت لسيده أنه رجله المخلص.. رغم كرهه الشديد له..! غير أن ما يجعله يعمل بكل هذا الاندفاع، هو الفرح الغامر الذي يأخذ بمجامع قلبه، وهو يذلّ الفلاحين، ويقسو عليهم.. فمازال دمه يضجّ بشوارد الحقد على أهل المنطقة، مذ وطئتها قدماه..! وزاد حقده عليهم، لأنه خسر ابنه بسببهم..! لذلك تفانى في العمل، ذاب فيه.. فما تذمّر يوماً، ولا احتجّ، فما أن يُنهي جولته في إحدى القرى، حتى يُكلّفه البيك بجولةٍ جديدة في قريةٍ أخرى.
وفي نهاية إحدى الجولات، عاد مُنهكاً.. غير أنه لم يشأ أن يرتاح في مجلس سيده كعادته، بل طلب الإذن بالذهاب إلى بيته، قبل أن يبرد عرقه، فيعجز عن الوقوف. خاطبه البيك بصوته الفخم:
. يعطيك العافية عساف.. أنا أعرف أن المهمة لم تكن سهلة، وأعرف أيضاً أنك لها..! اشتقتَ لبيتك.. ها..؟ والله معك كل الحقّ.. فقد طال غيابك.. والمرأة لا يجوز الغياب عنها..! اذهب الآن، وعدْ في الصباح الباكر، فمهمّة الغد دقيقة وحسّاسة.. لا أستطيع تسليمها إلا لك..!

انطلق عساف في مهمته الجديدة، مع بداية الشروق، مُحمّلاً بتعليماتٍ دقيقة من سيّده، مشحوناً بثقته الغالية، التي منحته طاقةً إضافية للعمل..! أنجز المهمة على أكمل وجه.. وغادر القرية الأخيرة الموضوعة على جدول أعماله مُنهكاً، قطع حدودها بشقّ النفس.. مسح المسافة المُتبقية بعينيّ خبير، وقدّر أنه يستطيع أن يستريح قليلاً، قبل متابعة المسير، خلع عباءته، طواها، لتكون وسادةً يُسند عليها رأسه المتعب، تمدّد على العشب، أغمض عينيه، وسرى في جسده خدر التعب والنعاس، فاستغرق في نومٍ عميق..

أرسل البيك في طلبه، ليطمئنّ على سلامة ودقّة تنفيذ المهمّة، بحث الرجال عنه في كل مكان دون جدوى، وسيدهم يريده موجوداً.. ولا يقبل لتأخّره عذراً، توزّع الرجال في الطرقات، التي تربط القرى ببعضها، وبعد جهدٍ ومشقة وجده أحدهم.. صرخ مفزوعاً..! وفرّ هارباً يبحث عن رفاقه، وعندما اجتمعوا حوله، راعهم ما رأوا: مُكوّرةً كانت، تُغطّي وجهه وجبهته.. وقد وضعت بيضتها الكبيرة في فمه المفتوح هلعاً.. أو رغبةً.. أو..

وبقي الناس يتندّرون بقصة موته أشهراً، لا بل سنوات..! واكتسبت الأفعى قيمةً ومكانةً عند الفلاحين.. فبعضهم وصفها بالحكيمة.. لأنه ما من حاضنةٍ لبيضها أرحم، وأكثر دفئاً من شفتين اعتادتا احتضان شفاه الحسناوات..!

وقال البعض: لا.. لا.. إنها مرسالٌ إلهي، لإغلاق ذاك الفم الآثم بما يليق به..! والقلّة منهم اعتبروا الأفعى رمزاً لأمرٍ لا يستطيعون الإفصاح عنه..! وما اختيارها هذا المكان، لوضع بيضتها إلا رمزٌ آخر..!

. قطع .

يدعك غريب أوراقه، يرميها أرضاً، ويهمهم غاضباً:

. أيّة رموز، وأيّ جدّ هذا..؟! يا حيف..!

يتراءى له جّده بين الأوراق، بكامل هيبته وعنفوانه.. يهزّ عصاه في وجهه، وعيناه تقدحان شرراً..! تُرعبه المفاجأة.. يفرك عينيه بعنفٍ، ليطرد صورته من أمامه.. فيعلو صوت جدّه مُزمجراً:

. رمز.. أيها اللعين..؟! تنبش قبري، وتلعب بعظامي، ثم تتفلسف، وتُفسّر طريقة موتي على ذوقك.!

وليت ذوقك كان أفضل من ذوق أبيك.. ما مصلحتك في هذا الأمر يا ولد.. ها..؟ صرخ جده عساف في كيانه، رآه يلوّح بهراوته الغليظة، وسمعه يُهدّده بتكسير عظامه، إن هو تابع عمله المجنون..

. اهدأ يا جدّي.. خاطبه بدماثة.. اهدأ، وعدْ إلى مُستقرك، ودعني أعمل، سترك الله..

. ومن أين يأتيني الستر، منك أم من أبيك يا بن الكلب..؟ قل لي من أين عرفت عني كل ذلك..؟ وماذا تنوي أن تفعل..؟

. كل خيرٍ يا جدي، صدّقني.. لن أهينك، ولن أهتك حرمة عظامك، كل ما في الأمر أنني أريد الاستفادة من تاريخك الحافل..!

يرعد في وجهه بصوته الأجش:

. اخرس يا ولد، أتظن أنك قادر على خداعي..؟! أنا الذي خدعتُ بلداً بأكمله.. جئتهم لا أحمل إلا صرّة ثيابي، وبعد حينٍ ملكتُ الأرض التي تقوم عليها بيوتهم..! بمساعدتهم هم، لم يستطع أحدٌ منهم كشف أوراقي، حتى أخذتني العزة فيما أفعل، وكشفتُ نفسي أمامهم إمعاناً في إذلالهم..! أردتُ أن أقول لهم:

من ضعفكم ولدتُ، وعلى مائدة جهلكم كبرتُ، وفي رحاب تهاونكم تفرعنت..! وها أنا أكشف أمامكم عورتي، وأتحدّاكم أن تنظروا إليها، أن تروها.. انظروا إذا شئتم..! لكنهم أشاحوا عني، وانصرفوا إلى تفاصيل أيامهم الصغيرة، يُبذّرون فيها أعمارهم، ويجترّون هزيمتهم أمامي..! ثم تأتي أنت.. الولد التافه لتخدعني..؟! لملم أوراقك، اطوِ قلمك، وابحث لك عن امرأةٍ تخطفك من ذاتك ومن أبيك، وتنشغل بها.. اجعلها قضيتك.. يا بن مالك.!

. آهٍ يا جدي. أما زلتَ حاقداً على أبي بعد كل هذه السنين..؟ ألم تنسَ قصة خروجه عن طاعتك بعد..؟!

ويبكي قلبه، ترشح مساماته وجعاً، إذ يتذكّر قصة والديه، التي شكّلتهُ بأصابع تشوهها..! ويتابع حديثه مع جدّه برجاءٍ مشحونٍ بمشاعر متضاربة:

. جدّي. جدّي.. لا تُغادرني الآن، فلديّ سؤالٌ يُؤرّقني.. توقّفْ يا جدّي، فلن يطير قبرك، ستجده بانتظارك، مهما أطلتَ المكوث معي..!

. تأدّب يا ولد.. يهدر صوته، وهو يرمقه بنظراتٍ ناريّة، ماذا تريد أن تسأل..؟

يستجمع غريب شجاعته، ويقول مُتردّداً:

. مادمتَ قد كشفت أوراقك أمام الجميع، وعرف الناس قصتك مع الفرنسيين، فلماذا تمنعني من كتابتها الآن..؟ أتخجل منها بعد كل هذه السنين، وأنت لم تخجل منها في حينها..؟! أتُعلنها حيّاً وتستحي منها ميتاً..؟!

يتأرجح رأس الجدّ حسرةً ويقول:

. غبيّ وجاهلٌ كأبيك..! أتظنّ أن القضية قضية خجل..؟ الموضوع أكبر من هذه الكلمات الجوفاء..!

. نوّرني يا أبا مالك.. أرحني، فرأسي يكاد ينفجر..!

. اسمع يا ولد.. كلمةٌ واحدة تحكمُ العالم، لها نعيش، ومن أجلها نموت: إنها (المصلحة). نعم. المصلحة وحدها.. فالحروب، الثورات، العلاقات، كلها محكومةٌ بها، وتسعى لتحقيقها..! فما مصلحتك الآن بنبش قبري، والعبث بعظامي..؟! أتريد أن تصنع منها لعبةً، تُهديها لحبيبتك، التي لابدّ أن تكون حمقاء لتقبل بك..! أتريد أن تُسلّيها برفاة أجدادك أيها العاقّ..؟! قل لي ما مصلحتك، وماذا ستجني..؟ إن كان الأمر يستحقّ، فأنا معك..!

. نعم يا جدي يستحقّ، أعتقد أنه يستحقّ..

يقول غريب، وقد بدأت أعصابه ترتخي.. وروحه تهدأ.. ويُردفُ مستبشراً:

. إني أكتب قصة حياتي مسلسلاً تلفزيونياً يا جدّي..

. وما دخلي أنا..؟

يُزمجر الجدّ، ويهمّ بصفعه..

يتلمّس غريب خدّه، ويتحرك قليلاً، تاركاً بينه وبين غضب جده مسافة أمان..

ويُجيبه:

. أنت الأصل يا جدي، أنت الجذر.. فهل تُدرس النبتة بمعزلٍ عن جذرها..؟ دمك يسري في عروقي، فكيف أتجاهل تأثيرك عليّ، وكيف لتصرّفاتي أن تكون مُسوّغةً بمعزلٍ عن تاريخي..؟

. وهذا المسلسل ماذا يُقدّم لك..؟ يقول الجدّ بلهجة مصالحة.

. إنه تاريخي، جذوري.. هويّتي.. ثم إنه يقدّم لي المال والشهرة..

. الشهرة والمال لك، والتّشهير بي، أليس كذلك أيها اللّعين..؟

يضحك غريب، يقهقهُ بجنونٍ، ويسأله:

. أتريد المال يا جدّي، حتى وأنت في القبر..؟! أما شبعتَ منه يا أبا مالك..؟!

يهدر عساف بغضب:

. لا أيها الغبيّ، ما أردتُ قوله: إنك تبيع تاريخك بحفنة مال، وتشتري به سمعةً سيئة لك ولأجدادك.. أتتاجر بسمعتنا يا ولد..؟

يضرب غريب كفاً بكفّ مستنكراً..! ويصرخ في وجه جدّه:

. حيّرتني معك يا رجل، فقبل قليلٍ لم تكن سمعتك تعنيك، ولم يكن خجلك هو ما يدفعك لمنعي من متابعة عملي، والآن تنقض كلامك..!

. غبيّ.. أقسم إنك غبيّ.. ما قصدتُهُ أن الزمن قد تغيّر، وعليك أن تركب الأمواج للوصول إلى مصلحتك..!

. كيف يا جدّي..؟ أرجوك أرشدني.

. في زمنكم يتاجر الناس بأمورٍ أخرى، أمورٍ كبيرة.. يغمسون خرقهم بدماء منْ قضوا في سبيل قضيّةٍ ما.. يُلوّحون بها في كلّ مناسبة.. فيعلو شأنهم، ويحقّقون الشهرة والمجد معاً..! أنت يا غريب تجري وراء حفنة مالٍ، وشهرةٍ مؤقتة زائلة..! بينما يُنقّبُ غيرك عن قرابةٍ ولو من بعيد، تجمعه بأحد الرموز الواصلة، ليستثمره، ويحقّق ما يريد.. فقد يأتيه بموقع ودودٍ ولود..! هذه هي الورقة الرّابحة في أيامكم..! وأنت ماذا تفعل..؟ إنك تمشي بالمقلوب، الناس يكبرون، يصيرون ويتصوّرون بآبائهم، وأجدادهم.. وأنت.. آهٍ منك أنت.. آهٍ منك ومن أبيك.. لو أنه بقي تحت جناحي، لكنتما الآن تنعمان بأكثر مما ينعم به أكابر البلد...! فأنا مَلكُ اللحظة.. أعرف كيف أُطوّع الزمان والمكان، ليمتثلا لأمري.. وأعرف تماماً من أين تُؤكل الكتف..! لو أنه طاوعني لورث عنّي ما نصّبهُ ملكاً..! لكنّه خرج عن طاعتي، فانظر إلى أين مشى به غباؤه ورأسه اليابس..! أقسم إنه لم يرث عن أجداده إلا هذا العناد..!

يختفي الجدّ، بينما ضحكاته الشّامتة تتردّد في أرجاء الغرفة، وفي كيان غريب، الذي يلوح بيديه تأفّفاً، وبرأسه تحسّراً، ويهمهم:

. ومن أين لي بتلك القرابة المُشرّفة، من أين آتي بالرموز، لأغمس رايتي، بل كلّ ثيابي بدمائهم، وألوّح بها بمناسبةٍ وبلا مناسبة..؟! (حارتنا ضيّقة، ونعرف بعضنا) يا جدي..!

أم أنك تظنّ نفسك يوسف العظمة، أو صلاح الدين..؟!

ينتصب عساف من جديد أمام حفيده، ويقول بلهفةِ من وقع على كنز:

. نعم.. هذه هي..! ألا تعرف أن صلاح الدين منّا..؟ استفدْ من هذا الأمر يا غبيّ..

. أجل أعرف، وأعرف أيضاً أنك أسميتَ عمي صلاح الدين على اسمه.. لكن الانتماء لا يكون بتسمية الأبناء بأسماء من نُجلّ..! الانتماء شيء آخر.. شيء مختلف يا جدي..

. أوَتُلغي قرابة الدّم يا ولد..؟ أم أنك تتنكّر لهذه القرابة، وتُنكر أصلك كأبيك المخبول، الذي لحست عقله امرأة..؟!

. لا يا جدي.. أنا لا أنكر، ولا أتنكّر.. لكنّ ما فعلتَهُ خزاني.. كيف استطعت أن تكون عيناً للغزاة على بلدك، وسوطاً على أبنائه..؟! ثم تأتي الآن لتتقرّب من رمزٍ كصلاح الدين..؟ ألم يُخجلك وقوف (غورو) على قبره، ووقاحة تحدّيه له بمقولته الشهيرة: (ها قد عدنا يا صلاح الدين..) ما هذا التناقض الفظيع يا جدي..؟! أقسم لو أنك ابن صلاح الدين شخصيّاً، لتبرّأ منك، ولفظك..!

. يتبرّأ مني أنا..؟! يا حيف عليك، وعلى أبيك يا غريب.. الآن تأكدّتُ أنك مجنون مثله.. فلا حاجة بي للبقاء معك..

. جدّي.. جدّي.. لا تذهب الآن.. فما زال عندي ما أقوله لك..

يمدّ يديه محاولاً الإمساك بطيف جدّه، الذي اختفى كخيط دخانٍ طردته الرّيح.. فيهمس غريب مستنكراً:

. لابدّ أنك خرفٌ يا جدّي.. ولابدّ أن التراب لم يستطع إخماد لهيب عنفوانك وجنونك..!

_ ٢٣ _

علبٌ معدنيةٌ صدئة، كانت شهلا قد حقنت فيها الحياة، بورودها المتنوّعة الألوان والروائح، صارت الآن جزءاً من أكوام القمامة، في الأرض المجاورة لبيتها..! فهي لا تريد وروداً بعد رحيل الحبيب.. لا جمال بعد اليوم، ولا نبض في بيتها، أو حياتها بعد سفر مالك.. الذي قرّر العودة إلى قريته إثر موت والده..! دموعها خضّبت صدره لحظة الوداع.. وهي تقول له:

. غيابك أمرّ من فجيعتي الأولى.. فيوم فتحتُ عيني على موتي الأول، لم أكن قد اعتدتُ الحياة بعد..! أما موتي الجديد..! فكيف أواجهه..؟ وهل أستطيع التعايش معه..؟! وقد أدمنتك.. أدمنتُ نفسي معك.. فكيف تتركني، أتراك تستطيع قتلي..؟!

غمرها بصدره الرحب، فباتت زغلولاً صغيراً يرتجف خائفاً تحت جناحي نسر.. وطمأنها بأنها الحبيبة، فكيف له أن ينسى حنانها..؟ كيف لروحها أن تغادره، ولصورتها أن تجافي خياله..؟!

. (لن أغيب عنك طويلاً..) قالها، واستدار ليكمل لملمة أمتعته ودموعه..

حملت غريب بين يديها، ضمّته بشراسةٍ إلى صدرها المهدّد بالخواء، وهمست في مساماته:

. وأنت أيضاً ستتركني يا غريب.. أرجوك حبيبي قلْ له: ألا يُطيل الغياب.. عدْ به إليّ فأنا أمّك..!

تقبّله، تتشمّم وجهه، عنقه، جسده كاملاً.. يطول مشهد الوداع، فشهلا تحاول أن تستبقيهما بكل الوسائل.. لكن حججها، وعراقيلها الطفولية الهادفة للتّمسّك به، وإبقائه معها لحظةً أخرى، تهوي أمام إصراره على السفر بأسرع وقت.. واختصار مشهد الوداع المؤلم..!

***

يدخل مالك بيته بعد غياب سنوات، هذا البيت الذي لم يعد إليه إلا مرتين بعد الرحيل، فعودته الأولى كانت يوم ماتت أمه.. والثانية يوم شارك بتشييع والده، ثم رجع ليُنهي أموره وارتباطاته، ويعود أخيراً إلى البيت الذي احتضن طفولته، وصباه..

يتجوّل في أرجاء الدار، كأنه يسلّم على كل ركنٍ فيه.. لكن رياح الوحشة تصفر في كيانه.. يحسّ أنه كائنٌ غريب..! حُمل من بيئةٍ أخرى، ليعيش في مكانٍ يرفضه..! حتى غرفته..

أو التي كانت غرفته، ما ولّدت به إلا شعوراً عارماً بالانكسار..! تطفر من عينيه دموعٌ قاومها طويلاً، ويُعاتب تلك الأشياء، التي عايشت طفولته وشبابه:

. (حتى أنتِ تعلّمتِ القسوة، فغدوت بلا روح.. بلا ألفة..!)

يناديه غريب، فيهرع إليه، كأنما نقله صوته من عالم الأموات إلى الحياة.. يأخذه، ويذهب به إلى الأرض علّها تكون أرحم..! يتجوّل في أرجائها، يحاول أن يكون لها.. آملاً أن تكون هي الأخرى له.. يمنحها نفسه، فيغادر حالة الاغتراب التي تملؤه.. يتذكّر لقاءاته مع ظبية هنا وهناك.. يراها ترفل أمامه بثوبها الطويل، الذي يتماوج مع النسيم على الأعشاب، فيغدو جزءاً منها.. تنهمر عليه.. تغمره بدفئها.. تلفحه أنفاسها.. تشهق الفرحة في كيانه، يلفّها، يشدّها بقوة إلى صدره.. فيسمع طقطقة عظامها.. يبكي غريب بشدّة، ينتبه مالك إلى أنه كاد يخنقه.. يقبّلهُ بحنان، يحاول أن يُنسيه ما سبّبه له من ألم.. يحكي له عن حبيبةٍ.. فُجعتْ بها الحياة، قبل أن تشبع منها..! يضحك غريب، وهو يلهو بلحية والده.. ويلثغ:

. بابا.. بابا.. هذه الحكاية سمعتها منك مئة مرة..! ألا تعرف غيرها..؟!

يبتلع مالك غصّته، يفرك عينيه ويقول:

. لا والله يا بنيّ لا أعرف غيرها..! هل مللتَ منها يا ولد..؟

يحضن غريب رأس والده، يقبّله بحب، ويضحكان معاً..

_ ٢٤ _

وكأنها سمعت أصواتاً في بيت مالك.. تهرع شهلا، تجلب كرسيها، تضعه إلى جوار الحائط، تقف عليه، وتنظر إلى بيت حبيبها، فلا ترى أحداً.. تذوي فرحتها.. تسقط الابتسامة عن وجهها ورقةَ خريفٍ، تقذفها ريح الخيبة.. فتنزف روحها:

. رحل الأحبّة إذاً.. أجل رحلوا..

_ ٢٥ _

فتح غريبٌ عينيه اليوم على أوّل صدمةٍ في حياته الواعية، فقد شكاه زملاؤه في المدرسة للمعلم:

. غريب يرفض الذهاب معنا إلى المسجد يا أستاذ.. ويسخر منّا كلما حاولنا إقناعه بذلك..

. لا عليكم.

قال المعلم بصوته الفخم، وأردف:

. أنا أحلّ المشكلة، ادخلوا أنتم إلى صفّكم، واتركوا الباقي عليّ..

وكانت الخطوة الأولى على طريق الحلّ، هي إسهابهُ في توضيح مزايا الصلاة في المسجد، وضرورة حضور التلاميذ للخطب والدروس، التي يُلقيها الشيخ، خاصّةً يوم الجمعة.. وعند نهاية الدوام غادر التلاميذ مدرستهم، مُنتشين بتعاليم أستاذهم.. بينما بقي غريب في الصف بناءً على طلب المعلم، الذي اقترب منه، وجلس قربه، مسح على رأسه بتودّدٍ وسأله:

. لماذا لا تذهب إلى الجامع يا بنيّ..؟

تلعثم الطفل لحظاتٍ ثم قال بتردّد:

. أبي يا أستاذ.. أبي لا..

. ما به أبوك يا ولد..؟

خاف الطفل من لهجة المعلم التي بدأت تقسو، فأراد أن يرمي ما عنده ويخلص.. قال كمهرٍ يطرد عن كاهله قرادةً تُزعجه، وتُقلق دماءه:

. أبي يا أستاذ لا يُريدني أن أذهب إلى المسجد..!

ذُهل المعلم..! صعقه الجواب.. فرعد غاضباً:

. كيف.. هل من أبٍ لا يُريد الخير لابنه..؟! أنت تكذب يا ولد.. أليس كذلك..؟

ارتجف الطفل وهو يرمق عصا المعلم التي تتربّص به.. وقالت شفتاه الواجفتان:

. لا يا أستاذ.. أنا لا أكذب، فقد رجوتُ والدي أن يسمح لي بالذهاب إلى المسجد، لكنه رفض بشدّة وقال لي:

. أنت يا غريب لا ينطبق عليك ما ينطبق على هؤلاء..!

أدرك المعلّم أن الطفل يقول الحقيقة، دون أن يُدرك معناها..! ارتجفت أوصاله، هزّته تلك الكلمات من الأعماق، وقرّر تحدّي الأب، وجذب الصبيّ، رغم أنف والده إلى رحاب الدّين.. فخاطبه بحنوّ:

. الآن ستذهب معي، لنؤدي معاً صلاة الظهر في المسجد، وهناك ستعرف يا بنيّ أن والدك على خطأ، وستدعو له، لعلّ الله يهديه ويُسامحه..!

دخل الولد ذاك المكان الغريب مُتردّداً.. مُمزّقاً بين موقف والده، وبين رغبة معلمه..! رآه المعلم يُقدّم رجلاً، ويُؤخر أخرى..! فسحبه من يده، وبدأ يتوضّأ أمامه، وهو يقول:

. انظر إليّ يا غريب، وافعل مثلي، قلّدني لتكون طاهراً، مستعدّاً للصلاة..

فعل الطفل فِعل معلمه، ثم انضمّا معاً إلى جمهرةِ المُصلّين، وعند انتهاء الصلاة، استمع مع الآخرين إلى مواعظ بدأت تشدّ قلبه إلى هذا المكان..

وصلاةً إثر أخرى، بدأت السّكينة تتسلّل إلى أعماقه.. حتى اكتسبت حياته لوناً جديداً..! منحه القوة على مجابهة آراء والده..! رغم أنه لم يُفلح في إقناعه بأهمية ما يقوم به، لكنه استطاع تحقيق مشيئته، والمواظبة على ارتياد المسجد، حتى صار يُسميه الجميع:

(حمامة المساجد).. فما عاد بحاجةٍ إلى تشجيع أحد، بل صار هو من يُذكّر الآخرين بمواعيد الصلاة، ويستمع بلهفةٍ إلى تعاليم الشيخ، ينتظرها لحظةً بلحظة.. حتى أنه زهد بالوجبة الرئيسة التي يحرص والده على تناولها معه..!

ثارت ثائرة مالك.. جُنّ جنونه.. وهو ينتظر ابنه الذي لا يعود إلى البيت إلا لماماً.. دخل المسجد ذات مساء يُرغي ويُزبد.. سحب ابنه من يده، وخرج به.. لم تستطع عبارات الشيخ، وأدعيته المنثورة على الرؤوس الخاشعة أن تستوقفه..! رجاه الطفل أن ينتظر حتى يُنهي الشيخ كلامه، لكنه شدّه بقوةٍ، وغادر المكان، وما إن صارا خارجه، حتى نزل غضب الأب على وجه الابن ورأسه.. وفي البيت كان العقاب أشدّ وطأةً..! ربطهُ بحبلٍ متين إلى ساقِ شجرةٍ تتوسّط الدار، وزخّت على جلده الغضّ، لسعات عصا الرّمان المُجهزة لهذا الغرض..! والطفل يبكي، ويتوسّل إلى أبيه، ويُعلن امتثاله لرغبته، لكن مالك لا يسمع، ولا يرى أمامه إلا صورة والده الحاج عساف، مربوطاً إلى ذات الشجرة.. فيضربه بعنفٍ.. ويصرخ بملء صوته:

. تريد أن تُمشّي كلامك عليّ يا بن الكلب..؟! ألم أقل لك: إن جميع مقدّساتك لا تعنيني.. وكلّ ما كنتَ تُمارسه، سأرفضه، وأدوسه..؟ وابني لن يحمل . كما لم أحمل أنا من قبل . عباءة الرحمن على كتف، وعباءة الشيطان على الأخرى.. ليرتدي كل واحدةٍ منهما في الوقت المناسب، كما كنتَ تفعل..! عساف.. يا عسّاف.. اخرج من حياتي.. اخرج من جسد ولدي أيها الشيطان..! خذ.. خذ.. خذ..

وتشتدّ الضربات قسوةً.. فيقع الطفل على الأرض مغشيّاً عليه..! يفرك مالك عينيه مذعوراً..! يُذهله أن يرى وحيده يتلوّى، ويتهالك على وثاقه ورقةً ذاوية..! يقترب منه، يفكّ ساقيه المربوطتين إلى جذع الشجرة، ويحمله إلى غرفته، يقبله بحنانٍ وعلى وجنتيه تنهمر دموع ندمٍ دافئة:

. (أنسيتني يا بنيّ.. خاطبه بحبّ.. أخذوك مني..؟ كما أخذوا أمك من قبل..؟! أنا أحتاجك يا ولدي، ثم.. ألا ترى نفسك كيف تحوّلتَ كومة عظام..؟ انظر، خذ هذه المرآة، حدّق فيها، ألا ترى نفسك.. لم يبقَ منك سوى عينين جاحظتين، وفمٍ يابس..!)

لم يستطع غريب أن يردّ على مرافعة والده، لكن رائحة الرضا تتسللت إلى عروقه.. وإحساسٌ غامضٌ بالراحة بدأ يسري في أوصاله..

ثم امتنع عن الذهاب إلى المسجد بعد ذلك، امتثالاً لدموع والده.. وشيئاً فشيئاً نسي دروس الشيخ، وكأنما زال خوفه من أهوال القبر والجحيم، عاد إلى أوراقه يرسم عليها أشتات روحه، ووجوهاً يتوق إلى لقائها..

لم يخطر بباله، ولا بال أبيه . بعد فترة الطمأنينة التي تنعّم فيها باحتواء ابنه . أنه سيعود ثانية إلى سابق عهده، مدفوعاً بخوفٍ، لو تقاسمته الصحارى، لتعرّقت ذرّات ترابها إشفاقاً..!

أغلق الكتاب الذي اشتراه من المدينة أمس، وقد امتلأ رعباً..! وطار إلى المسجد من جديد، بعد أن كان قد انقطع عنه قرابة عامين..

. الويل لي.. قال مالك يائساً..! أنا منْ أعدته بيديّ إلى حيث لا أحبّ، ولا أرضى.. أردتُ إبعاده عن (المسكينة) التي تأخذه مني، فعوّدته النزول إلى المدينة.. فأخذتْه.. هي الأخرى..!

التفّ رفاق غريب حوله، أحاطه الشيخ بعنايةٍ خاصّة.. مخافة أن يطير خارج حدوده مرّةً جديدة..! وبدأ يختار له الكتب، ويُكافئه كلما أنهى قراءة أحدها.. أو كلما ختم سورةً من القرآن الكريم.. امتلأ قلبه حبوراً واطمئناناً، وصار يدخل المسجد وكأنه يدخل بيته، حاملاً معه ما يُحبّ من كتبٍ وأوراق وألوان.. جلس إثر خطبة تلك الجمعة، وضع أوراقه في حضنه، وراح يتأمّل شيخه بحبّ.. ويرسم ملامح وجهه..

وما إن انتهى من رسم لوحته، حتى سارع إليه يُريه ما فعل.. ظنّاً منه أن الأمر سيسعده، وسيكبر أكثر في عينيه.. لكنّ الشيخ تعوّذ، وحوقل.. وقطّع أوصال اللوحة، نُتفاً ثم رماها في وجهه:

. ما هذا يا غريب.. قال غاضباً..؟ أتكفر في حرم المسجد..؟! هذا حرام.. حرامٌ يا بنيّ..

تمزّق قلب الشاب الصغير، أُسقِط في روحه..! وفاضت عيناه دموعاً حيرى..! جثا عند قدميّ الشيخ، يتمسّح بهما خائفاً.. طالباً تفسيراً لما حدث.. مسح الشيخ على رأسه، وتمتم:

. (ربّاه لا تؤاخذه، فما زال طائشاً، جاهلاً.. اللهمّ إني أعيذ عبدك الصغير هذا، برحمتك من شيطانه المُتلبّس بروحه..)

ارتعشت شفتا الصبيّ، وقال واجفاً راجياً:

. ماذا فعلتُ يا شيخي..؟ أرجوك نورّني..

عدّل الشيخ جلسته، وقال بصوته الفخم:

. التصوير حرام يا ولدي.. أتتشبّه بالإله..؟! أنت تُقلّد الله فيما تفعل.. تضع نفسك بمنزلته.. أعوذ بالله.. أعوذ بالله..

. حاشا لله يا شيخي.. ردّ غريب مأخوذاً.. لكني أحب الرسم، أحبه أكثر من أيّ شيء..! وقد أحضرتُ معي بعض رسوماتي لأريك إياها.. انظر.. أليست جميلة..؟!

ضرب الشيخ الأوراق بيدٍ غاضبة، وأشاح عنها.. كأنه يرى عورات البشر، ُتعرض أمام ناظريه..! قلتُ لك:

. هذا حرام.. لملم جنونك يا ولد.. اجمع شياطينك واحرقها.. عسى رائحة الاحتراق تُطهّر روحك التّائهة..!

لملم غريب أوراقه، حضنها، واتّجه صوب الباب، لحق به أحد أترابه وهمس في أذنه:
. إن كان يؤلمك حرقها فلا تفعل.. غيّر بعض ملامحها، وينتهي الأمر، قصّ رؤوسها، لتمنعها من العودة إلى الحياة يوم القيامة..!
. ماذا..؟ قال غريب باستنكار.. الصور تعود إلى الحياة..! وهل كانت حيّةً أصلاً لتعود..؟!
. أجل.. قال الشاب بثقة، وهي ستنقضّ عليك، وتقتلك إن هي عادت إلى الحياة..!
ضحك غريب بمرارة وغادر المسجد، وهو يهذي:
(رسوماتي تعود للحياة..! وتقتلني..؟! أنا خالقٌ إذاً..! فكيف تتجرّأ عليّ مخلوقاتي..؟!)
وصل إلى البيت، دخل غرفته، أغلق الباب وراءه بالمفتاح، جمع كل ما رسمه، وبدأ يستعرض الوجوه: توقّف أمام وجهٍ، يُكرّره في كل الوجوه.. وجهٍ يتعشّق ملامحه دون أن يراه..! ناجاه قلبه:
(وأنتِ أماه ستعودين إلى الحياة، كما رسمتُكِ..؟ وهل ستهجمين عليّ كغيرك..؟! ليتك تعودين حتى لو قتلتني.. لكن أرجوكِ أماه.. ضمّيني إلى صدرك قليلاً.. دعيني أغمر رأسي فيه.. ثم اقتليني إن شئتِ.. لا يهمّ.. قبّليني.. قبّليني حتى الموت..)
تفيض عيناه شوقاً.. وتتدفّق النجوى:
(أمي ردّي عليّ الآن.. عودي الآن.. ألا يكفيكِ شوقي لتعودي للحياة..؟! آهٍ.. آه.. ليت ما قاله الشيخ حقيقة..!)
يُبعد اللوحة، يتفرّس في وجوهٍ أخرى، يحاول أن يُزيل بعض ملامحها، تغرق ممحاته في دماء اليأس.. ترتجف أصابعه، تُفلتُ الممحاةْ.. وتتهدّج روحه:
. لا.. لا أستطيع.. لا أستطيع..
يجمع لوحاته، يتوسّدها، ويرتجف رأسه فوقها، حتى يغفو.. غير أنه يستيقظ فزعاً على صوت الشيخ يصرخ في كيانه:
(احرقها يا بنيّ.. اقتلها قبل أن تقتلك..)
يُكوّم أوراقه على أرض الغرفة، ينتزع من بينها صورة أمه، يُضرم النار فيها.. تتلوّى شخصياته الغضّة بين ألسنة اللهب، يتلوّى قلبه هلعاً..! وهو يسمع أصوات استغاثتها.. رآها تُناديه.. تمدّ أيديها صوبه طالبةً الرحمة..! حاول أن يُخلّص بعضاً منها من جحيم الاحتراق.. أطفأها بأصابعه، وصرخ محروق القلب واليدين.. دخل والده مسرعاً، وجلاً:
. ما بك غريب.. ما هذا الذي يحترق.. يا بنيّ..؟
. إنها رسوماتي يا أبي.. لوحاتي صارت طعاماً لغول النار.. أطعمتُها للغول، كيلا تأكلني..! (تغديتُ بها قبل أن تتعشّى فيّ).
يُحضر مالك دلو الماء، يسكبه فوقها، وهو يُولول:
. لقد جُننتَ يا بنيّ..! يا خسارة عقلك يا غريب..!

يُقهقه غريب بجنونٍ دامع، وهو ينظر في عينيّ والده المنكسرتين:

. دعها تموت يا أبي.. دعها في جوف الغول..

وينقل بصره بتشفٍّ إلى رسوماته المُلطّخة بالموت.. يصرخ فيها:

. وأنتِ عودي إلى الحياة، إن استطعتِ.. لقد انتصرتُ عليكِ أخيراً، قدّمتُكِ قرباناً لله..!

يتهالك أمام رماد لوحاته، مُمزّقاً بين نشوة الانتصار على نفسه، وعلى أصابعه العاشقة للفنّ، وبين هزيمتها أمام طلبات الشيخ..! رمق والده المنكسر وتمتم:

. (اللهم اهدِ قومي إنهم لا يعلمون)..

ونفخ على أصابعه المُحترقة بزهو..! ثم قبضها مُتخيّلاً أنه يقبض على جمرةٍ ملتهبة.. وهمس لنفسه، وهو يتنهّد بعمق:

. الآن استرحت.. فهذا هو الزمان الذي قيل في صفته:

(سيأتي زمن يكون القابض فيه على دينه، كالقابض على جمرةٍ من نار..!)

وعاد في اليوم التالي إلى المسجد يزفّ البشرى لشيخه، يطلب الصفح عمّا اقترفت يداه..! ويعدهُ ألا يعود للرسم بعد ذلك.. لم يجرؤ أن يقول له: إنه ترك صورة أمه، لم يستطع حرقها، ولا قطْعَ رأسها.. لكنه أسرّ لبعض رفاقه بذلك.. وبكى بين أيديهم مُشفقاً من ذنبٍ، لا يستطيع منه برءاً..!

غير أن هذا الوئام بينه وبين المسجد لم يصمد.. فصورة أمه التي نجت من الهلاك، تستيقظ معه كلّ فجر، وكأنها تُلبّي نداء الأذان..! تُعاتبه عيناها على حرق بعض روحه..! تسأله عن صورٍ كنّ يُؤنسن وحشتها.. ويسمعها تُرتّل على مسامعه:

(وإذا الموءودة سُئلت بأيّ ذنبٍ قُتلتْ)

فيشدّ اللحاف على جسده المقرور، ويهذي:

. ليست وحدها الموءودة أماه..! فأنا قتلتُ نفسي يوم قتلتُها..!

تصطكّ عظامه فرقاً حتى يأخذه سلطان النوم من جديد..! يرتمي بين أحضانه هرباً من نفسه، وطلباً لسكينةٍ بات يفتقدها في أيّ مكانٍ خارج الفراش، الذي لم يعد يفارقه إلا للضرورة القصوى..! وشيئاً فشيئاً تباعدت زياراته للمسجد، حتى انقطعت.

إحسان سمعون يقتحم حياة غريب، مدفوعاً بنيّةٍ لن يُوفّر جهداً لتحقيقها.. فهو من جيرانه ويعرف تفاصيل حياته.. وقد سرّه ابتعاد غريب عن المسجد، ووجد في التّقلّبات التي تجتاح

حياته، تربةً خصبة يبذر فيها ما يشتهي..! ناقشه طويلاً في السياسة، ومشاكل الحياة.. فأدرك أن الشاب رغم ذكائه مازال (بغواً).. فأغدق عليه عطاياه من الكتب، التي تشدّه إلى دائرة الشيوعية، يقرؤها غريب بنهم، ويعود إليه بعد أيامٍ مُتأرجحاً بين النّقيضين..! يتحاوران لساعاتٍ طويلة، ويدأب كلّ منهما لاستمالة الآخر، وإقناعه بفكره، يُعسكر إحسان في أقصى اليسار، مُتشبثاً بقوة في موقعه، مدعّماً بفكرٍ وثقافةٍ متينة، وغريب مُشتّت الروح، مُمزّق الفكر..! فقلبه مازال مربوطاً بأعناق المآذن . رغم بعده عنها هذه الأيام . وعقله تستهويه الأفكار الجديدة، التي يقرؤها في كتب إحسان وحواراته.. وبين قلبه، وعقله تاه لسانه..! فهو ينثر فكرةً من هنا، وفكرةً من هناك..! أدرك إحسان أن غريب بات على بعد خطوتين أو أدنى من الحياة، كما يراها هو.. فأراد أن يُنهي الموضوع بالضربة القاضية، ويسحب صديقه بقوةٍ من الرمال المتحرّكة التي تتجاذبه.. ترفعه حيناً ليكون زبداً على وجهها، وتبتلعه أحياناً، ثم تلفظه غير عابئةٍ برضوض روحه.. وتهشّمِ أعصابه..! فتح درجاً من أدراج مكتبته، سحب منه عدّة كتيّباتٍ، ناولها لغريب، وهو يقول:

. اقرأ هذه الكتب، وستعلم أنك مازلتَ غريباً عن ذاتك، ومضحوكاً عليك..!

اقرأها باهتمام لترى ماذا يقول أصحابك..؟!

استفزّه هذا التّحدّي، فحمل الكتب، وعاد إلى بيته، دخل غرفته، أغلق الباب وراءه، وبدأ يقرأ بنهمٍ، حتى أنهى ما قُدّم له.. طار صوابه.. أعاد قراءة بعض الأسطر التي فاجأته، جحظت عيناه، ارتجفت أوصاله.. وحار في أمره، وأمرها..! إذ أدرك أن الأمر جدّ خطير..! وضع تلك الكتب أمامه، وبدأ يُحاكم أصحابها:

. ما هذا الذي تقولونه، ومن أين أتيتم بكلّ هذا الكره، وهذه الأحقاد..؟!

أمسك أحد الكتب، كأنه يُمسك بتلابيب مؤلفه، هزّه بغضب:

. منْ قال لك إنّ هؤلاء كفرة.. وكيف عرفت ما بقلوبهم، ومن خوّلكَ مُحاكمتهم..؟

قل لي.. منْ نصّبك على الإله وصيّاً..؟!

رماه أرضاً، وتناول الثاني:

. وأنت أيضاً تتضافر معه، وتُكفّر فئةً أخرى..؟ ما دليلك، ما حجّتك؟ وما علاقتك بالأمر..؟!

. وأنت.. تعال هنا.. أنت مصيبة المصائب.. أنت أبو الحروب، وحامل لواء الموت..!

أقسم إنك أنت الكافر..!

ينتبه لنفسه، يستعيد جملته الأخيرة، ويضحك هازئاً:

. (وكأني تأثّرتُ بكم، فحملتُ معكم لواء التّكفير..!)

جمع تلك الكتب بأصابع الغضب، حملها، وطار بها إلى المسجد.. رماها في حِجر الشيخ قائلاً:

. أهذا ما تريدنا أن نعرفه..؟ إنه السّم.. الموت.. هذه الكتب تقتل الثقة بالإنسان..
وحتى بالإله..!

استعرض الشيخ عناوين الكتيبات، وأسماء أصحابها، ففهم ما يتحدّث عنه الشاب، حاول أن يهدّئ من ثورته، وفورة غضبه.. قال له:

. إن الدين تسليمٌ يا ولدي.. ومُناقشته بطريقتك تُفسده..!

. طريقتي هي التي تُفسده..؟! قال غريب بصوتٍ ينزّ قهراً.

أدرك الشيخ أن الأمر خطير، وأن ما يعتمل في قلب الشاب، أقوى من أن يُعالَج بالمسكّنات..! فلا بدّ إذاً من قهر الدّاء بنفس سلاحه.. فقال بحزم:

. ارمِ هذه الكتب يا بنيّ، احرقها إن شئت.. فهي لا تُمثّل الدين..! وأنا سأعطيك ما يُريح عقلك التّائه..! تعال معي، لا تتردّد، ففي قلبك بذرةٌ رحمانيّة.. يجب ألا تموت..!

أمسك يده، واتّجها معاً إلى المكتبة، استعرض الشيخ عناوين الكتب المرصوفة بعناية على الرفوف، تناول أحدها، وأعطاه لغريب:

. اقرأ هذا الكتاب يا ولدي، فهو سيُعيد السلام إلى روحك بإذن الله..!

يتمعّن غريب في عنوان الكتاب، يُعيد قراءته، ويشرد قليلاً.. يسافر عقله إلى رحاب صديقه إحسان، فيتوهّم أن المؤلف يعرف طبيعة علاقته به، وأنه ما كتب هذا الكتاب إلا له..! وربما يقصد أن يُعينه، ويأخذ بيده للانتصار عليه.. تُشرق ملامحه، يودع شيخه، ويمضي مُتّجهاً إلى حقلٍ مازال متعلّقاً به . رغم أن والده قد باعه . يجلس تحت شجرةٍ وارفةٍ، ويبدأ بالتهام الكتاب.. تُذهله حجج الشخصيّة ومنطقها، الذي يُشبه منطق صديقه إحسان، ويُعجب به.. فيكاد يصرخ:

. أنت على حقّ، وأنا معك يا صديقي..!

لكنه لا يستطيع..! ففي داخله يدٌ جبّارةٌ . لا يعرف كيف نبتتْ . تلجمه..! ومن أعماقه يسمع صوتاً يناديه:

. لا تتسرع، تابع قراءة الكتاب..

فيتابع القراءة، تُدهشه قوة الطرف الثاني في الردّ، وتسفيه حجج الأول.. فيصرخ مُنتصراً:

. الله أكبر.. ظهر الحق، وزهق الباطل..!

ومع نهاية الكتاب ينسى ثورته السابقة، يحضنه، كمن يحضن مولوداً طال انتظاره، ويطير به إلى شيخه، يقبّل يديه شاكراً ممتنّاً، ويعود إلى رحاب الدين بقوةٍ أكبر.. وسعادة لا تُضاهيها سعادة..!

وظل يرفل في مواطن السلام حولين كاملين، شرب خلالهما حليب الأمل بلقاء وجه ربه طاهراً من كل دنس.. بريئاً من كل شكّ.. إلى أن سمع قصة انتحار حازم محمود من الشيخ نفسه،

فبعد انتهاء الصلاة تحدث الشيخ مطوّلاً عن الانتحار، ودلالاته على روحٍ ضعيفة الإيمان، وعقلٍ صغيرٍ فاسد.. وأكّد على نهاية المنتحر الوخيمة.. سأله أحد الشبان مستغرباً انفعاله وثورته:

. ما مناسبة هذا الكلام يا سيدي..؟

ردّ الشيخ، والغضب يقطر من أردانه:

. ألم تسمعوا باللعين حازم محمود..؟

. ما به يا شيخنا..؟ ردّ الشباب باستغراب..!

. لقد انتحر.. قال الشيخ باقتضاب، ثم أردف بعد زفرةٍ طويلة:

. قتلَ النفس التي حرّم الله.. ولماذا..؟ لأن والده رفض تزويجه من فتاةٍ لا تُناسبه..! فانتحر اللعين.. طرد نفسه بنفسه من جنّة والده، ومن رحمة الله..! فهو في جهنم وساءت مستقراً.

فكّر غريب قليلاً، ثم سأل الشيخ:

. ولماذا هو في جهنم يا سيدي..؟ ألا يكفيه أنه مات، وحُرم من حبيبته، ومن الحياة معاً..؟!

. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. قال الشيخ غاضباً..! ماذا تقول يا غريب..؟ إنه قاتل.. مُتحدٍّ لإرادة الله.. جاحدٌ لنعمه..! اختار المسير على طريق إبليس لعنة الله عليه..! فهو أوّل مُنتحرٍ في الكون..!

علتِ الهمهمات، واختلطت الأصواتُ بين مستغربٍ، ومستنكرٍ، ورافضٍ لما يسمع..! أدرك الشيخ أن ما قصده لم يصل إلى تلاميذه كما أراد.. فقال بفخامةٍ مقصودة:

. إبليس تحدّى خالقهُ، ورفض السجود لأبينا آدم.. مع أنه يعلم أن فعلته ستحرمه من رحمة الله.. أليس هذا انتحاراً..؟ ألا يعني ذلك أنه قتل نفسه بعناده وجحوده..؟

قال شابٌ حديث العهد بهذه الجلسات:

. أخفْتَنا يا شيخنا، فقد ظننّا أن إبليس قتل نفسه فعلاً، ومات..! ونحن مُعتادون على مسح أيدينا بوجهه، كلما اتّسختْ..! فكلما ارتكبنا خطأً، وسُئلنا عنه، نفضنا أيدينا من مسؤوليتنا وقلنا: إنه إبليس، لعنة الله عليه..! فموته مصيبة، كما تعلم يا سيدي..!

ضحك الشباب بخفرٍ.. بينما كظم الشيخ غيظه، وحاول لملمة الموضوع، مخافة سريان عدوى التّهكم بين الشباب.. فرسم على وجهه الواسع ابتسامةً توحي بالثقة.. وقال:

. كلامك صحيح يا بني، فموت إبليس مصيبةٌ فعلاً.. لأن الشرّ يجب أن يبقى في مواجهة الخير.. حتى يمتلك الخير القيمة التي يستحقّ..! فلو لم يكن الشرّ موجوداً، لانتفَتْ صفة الحرية عن الإنسان..! فالنقيضان موجودان، وهو حرٌّ في اختيار ما يناسبه..! فإبليس لم يمتْ بالمعنى الحرفيّ للموت.. بل انتحر، قتل نفسه بتحدّي إرادة الخالق، وهو يُدرك تماماً أنّ الله سيلعنه نتيجة عناده..! ومع ذلك بقي اللعين مُصراً على موقفه..!

تعوّذ معظم الشبان من الشيطان الرّجيم بوجلٍ.. مخافة أن يمسسهم السوء والدنس من ذكره.. بينما ظهرت على وجوه الآخرين علامات الإعجاب بحامل لواء الانتحار في سبيل المبدأ..! كان غريب من هؤلاء.. فقصة حازم محمود التي ربطها الشيخ بقصة إبليس، أيقظت في نفسه ما كان غافياً..! وبات يحسّ بشيء من التعاطف مع هذا الكائن..! كلما فكّر فيه وفي المصير الذي آل إليه..! وتنتابه في لحظاتٍ شتّى من النهار نوبات إعجابٍ بهذا اللعين..! حتى أن أول قصيدةٍ كتبها في حياته كانت له وعنه..! تخيّلهُ يقف أمامه شاباً وسيماً، ممشوقاً.. تسحبه ابتسامته الواثقة إلى حيث يريد.. فصوّرَهُ يمشي به إلى حقول المتعة، يفتح عينيه على مفاتن الحياة، يوجّه بصره إلى جسده، يُعلّمه العزف على أوتاره، ويُعطيه مفاتيح كنوزه..! مع ذلك يُكافأ بالرّجم، والشتائم..! قرأ قصيدته، ترنّم بها.. أخذته العزّة بما أبدع.. فصاح مُنتشياً: . أشكرك أيها اللعين، فقد صنعتَ منّي شاعراً..! سأرسمك كما رأيتك أنا.. لا كما يراك الآخرون: (بقرونٍ مُخيفةٍ وفمٍ مُلطّخٍ بالدّماء)..

وبدأت الخطوط ترسم ملامح الشيطان، تكبر وتكبر، لتوضّح معالمه كما يراها..

وعندما انتهى من رسم ما يريد، حمل لوحته وقصيدته، وانطلق جذلاً إلى صديقه إحسان..

قرأ له ما كتب، فأذهله.. عانقه إحسان مُهنّئاً، وقال بفرح:

. أنت شاعرٌ جميلٌ يا صديقي..!

ردّ غريب بزهو:

. انتظر لترى لوحتي إذاً..!

وفتح الورقة التي صوّر عليها الشيطان، أمام صديقه.

. ما هذا يا غريب..؟ قال إحسان مستغرباً..!

. إنه الشيطان.. فقد رسمته كما تراءى لي..!

ضحك إحسان بكلّ جوارحه، وهو يقول:

. الشيطان..؟! العب غيرها يا رجل..! فهذه صورتك.. هذا وجهك أنت.. فلماذا تدّعي غير ذلك..؟!

صُعق غريب..! أربكه ما سمع.. خجل من نفسه.. فغادر بيت إحسان دون أن يودّعه..

وفي غرفته وقف أمام مرآته المُعلّقة على الجدار، وضع الصورة التي رسمها بجانب وجهه، اتسعت حدقتا عينيه..! ازداد وجيب قلبه، وسائلٌ مُرٌّ مشى من رأسه حتى أصابع قدميه..! كلّله الحياء.. فمزّق الصورة بنزقٍ، رماها أرضاً، وهو يزفر:

. أنا الشيطان إذاً..؟! أتراه لبسني لأنني أُعجبتُ به..؟! لم يُصدّق اللعين، أنه وجد منْ يُعجب به، أو يُشفق عليه، حتى يلبسه، ويدخل فيه..! يا ويلي.. حتى في الشكل..؟!

وخرّ ساجداً، مُتضرّعاً إلى الله أن يُسامحه، ويُطهّر قلبه من إبليس، وينزع منه إعجابه به..! غير أن إبليس ليس خصماً سهلاً، فهو لا يتخلّى عن مُحبّيه بسهولة.. فراح يُرسل أظفاره المُشاكسة إلى حبيبه، لتحكّ روحه، في حالكات الليالي، وتكشط عنه أغلفتهُ العازلة، حتى وصلت إلى دمه..! لعبت به، ففكّكت عناصره، وأعادت تشكيلها..! فانقشع ضباب الرهبة والخشية.. تبدّد.. وأضاءت النيران عالمه، فمسح جبهته من آثار السجود الطويل، وانطلق يبحث عن مباهج الدنيا، ناسياً ما كان عليه حاله في الليالي الأخيرة..

_ ٢٧ _

في بيت إحسان سمعون يتعرّف غريب على خاله فادي، يقفان وجهاً لوجهٍ لأولّ مرّة..! فغريب كان يرى خاله عن بعد، ويتوق للارتماء في حضنه.. لكنه لم يجرؤ يوماً على الاقتراب منه، فقد حذّره والده من ذلك، ومن دخول بيت جدّه لأمه، حذرَ صدامٍ لا يريده.. والآن هو أمام خاله، عيناه في عينيه، وأنفاسه تُلهب وجنتيه.. تأمّل كلٌّ منهما ملامح الآخر.. لمح غريب طيف دمعةٍ، تلوح في عين خاله.. ففتح ذراعيه، وارتمى في حضنه.. احتضنه خاله، عانقه بشوق الجذور إلى الفروع.. وتشمّم غريب من عنق خاله رائحةً بحث عنها طويلاً..!

. كيف أنت يا بن الغالية..؟ قال فادي والدّموع تُخضّب وجنتيه..

لم يستطع غريب أن يتفوّه بكلمةٍ واحدة، لكن دموعه هدمت كلّ ما كان بينهما من حواجز.. أراد إحسان أن يُخفّف من مأساويّة الموقف، فقال مُتضاحكاً:

. والآن وقد اجتمع الشمل، وهدأت النفوس، نعود إلى ثورتك أستاذ غريب، فقد دخلتَ علينا هائجاً مائجاً.. ترغي وتُزبد، وما أسكتك إلا مفاجأتكَ بوجود خالك، فهاتِ حدّثنا عن السبب.

قال غريب زاهداً بأيّ شيء، يأخذه من فرحته بلقاء خاله:

. لا.. لا.. لا شيء، نسيتُ الموضوع من أساسه..

وأردف مُستبشراً:

. هذا اليوم مُخصّص للاحتفال بخالي فادي، فأنت لا تعرف مدى سعادتي بلقائه..

جذبه فادي نحوه، وراح يعبث بشعره، وهو يقول:

. أهلاً بالغالي ابن الغالية.. رحمة الله على أمك، ولعنة الله على من حرمنا منها ومنك..!

. من هو يا خالي..؟ ردّ غريب، وكأن القصة جديدة عليه..!

زفر فادي زفرة احتراقٍ، خرجت من أصابع قدميه.. وقال:

. ألا تعرفه يا غريب..؟! إنه جدك عساف، هو منْ قتل أمك، وخلق هذا الحاجز البغيض بيننا..

ويحتقن وجهه، فترتفع نبرة صوته:

. واللهِ لو كنتُ أقدر عليه يوم ذاك لقتلته.. لكني للأسف كنتُ صغيراً، ووالدي كان المرض قد أخذ منه قوته، وهدّ حيله، بعد فجيعته باستشهاد أخي بطرس رحمة الله عليه.. وبقي بلا سند.. كما كان يقول.. فأفلت اللعين من العقاب.. لكنه مات شرّ ميتة..! مات ميتة الكلاب..!

يتدخل إحسان في الحديث، مخافة اشتعال نارٍ يصعب إطفاؤها:

. لا داعي لهذا الكلام يا جماعة، فالموضوع أكل عليه الزّمان، وشرب.. ولا خير في نبش القبور مهما كانت الأسباب..!

يُقاطعه غريب الذي كان مأخوذاً بما سمع..! وكأنّ ما ألقاه خاله في روعه قد غيّبه:

. لحظة.. لحظة.. إحسان.. ماذا قلتَ يا خالي..؟ جدّي عساف قتل أمي..؟ كيف..؟

أنا أعرف أنها ماتت أثناء ولادتي..

. نعم يا غريب.. لكن ولادتك لم تكن طبيعيّة، فخوفها من كلاب جدك، ودفعهم لها في ذلك اليوم، هو الذي قرّب موعد ولادتك، وقتلها..! تفوه..

. آ.. آ.. صرخ غريب.. لهذا إذاً يكرهه أبي..! فهو يُردّد على الدّوام:

كل ما كان يريده عساف، أو يُحبه، لا ينطبق عليك يا غريب.. وأذكر أنه يوم سحبني من الجامع، وربطني إلى جذع شجرة التوت، كان يردّد، وهو يجلدني: قلتُ لك يا بن الكلب ألف مرّة: إن الجامع ليس لنا، إنه لأتباع عساف، وليس لك يا غبيّ..!

ضحك إحسان وفادي، وقالا معاً:

. لم ينطق والدك كلمة حقٍّ في حياته إلا هذه الكلمة..! واللهِ الرجل فهمان..

ما رأيك يا غريب..؟

ضحك غريب، حتى غابت عيناه الصغيرتان في محجريهما وقال:

. نعم.. نعم.. كان أبي على حقّ، ليتني أطعتُ أوامره.. فلو أنني امتثلتُ له من البداية، لحميتُ روحي مما لحق بها من تشوّهات..!

فاض قلب إحسان غبطةً بما يقول.. لكنه أراد أن يتأكّد من جدّية موقفه، بعدما عهده من تردّده..! فقال بتهكّمٍ ضاحك:

. اليوم تقول هذا الكلام إرضاءً لي ولخالك.. لكننا قد نسأل عنك غداً، فنجدك هناك في الجامع، مُتمسّكاً بأذيال الشيخ، مخافة أن تطير إلى الجحيم..!

. لا.. لا.. قال غريب بتصميم عالٍ.. هذه المرة لا. فالفراق أبديّ بيني وبينهم..!

اقترب منه إحسان، ومدّ يده مُصافحاً:

. مبارك يا صديقي.. مبارك فاليوم عيد ميلادك..

. أما أنا. قال فادي، والفرحة تطفر من عينيه: فسأحتفل بك.. وبعيد ميلادك غداً في بيتنا.. تعال إليّ صباحاً، فأنا بانتظارك.

في صباح اليوم التّالي، تسلّل غريب من غرفته قبل استيقاظ والده، وخرج مُتّجهاً إلى بيت جده لأمه، ارتجفت أوصاله مذ تخطّى عتبة الدار، انهمر على جدّه وجدّته، يُقبّل أيديهما ويبكي..! لم يسألاه عن هويته، فالدماء تعرف بعضها.. ولا حاجة للفرع أن يُقدّم بياناته الرسمية أمام الأصل.. حضنته جدته، كما كانت تحضن أمه.. تشمّمته.. وزفرت مُحترقة:

. لا تغب عنا طويلاً يا ولدي..

تنهّد، وهو يقبل رأسها:

. لن أغيب يا جدتي، فأنا ما صدّقتُ أني التقيتكم..

حضّر فادي الشاي، وسحبه من يده إلى غرفته، دخل غريب تلك الغرفة، وقلبه يخفق بشدة.. أحسّ أنه يعرف هذا المكان منذ زمنٍ بعيد..! لكنه غاب عنه مُرغماً، ولا بد من إعادة اكتشافه.. مسحت عيناه تفاصيل الغرفة، توقّفت على رسمٍ للسيدة العذراء مع ابنها، وهالات النور تُتوّج رأسيهما..! اقترب منها وجلاً.. تفرّس في عينيها، ملامحها، امتدّت يده بخشوعٍ، تلامس خطوطها..! ثمّ نزعها عن الجدار، قبّلها، ضمّها إلى صدره..! دنا فادي منه، قبّل رأسه، وهو يقول:

. مُذ رأيتك أول مرّةٍ تلعب مع أولاد جيراننا، أحسستُ أن فيك شيئاً من براءة يسوع..! والآن تأكدتُ من صدق إحساسي..! فأنت ابن أختي حقاً.. ولابد أنك تحمل بين جوانحك توقاً للعذراء وابنها..!

ذُهل غريب..! غامت عيناه، تسارعت دقات قلبه.. حتى كادت تصمّ أذنيه..! لم يشأ أن يعترف لخاله بأنه حضن الصورة، لأنه رأى فيها أمه.. ورأى نفسه في الصبيّ الذي تحضنه..! ظنّاً منه أن رسّاماً بارعاً قد خلّد ذكراها بعد موتها.. أعاد فادي الرسم إلى مكانه، وناول ابن أخته كأساً من الشاي، وهو يقول جذلاً:

. اشرب الشاي يا غريب، وهدّئ من روعك.. يبدو أن اللقاء الأول معها كان صعباً..!

لا تقل شيئاً.. فكلّ شيءٍ ظاهر على وجهك..! وأنا لا ألومك أبداً..! فهذه العذراء.. أم الربّ.. ولحضرتها جلالٌ، تخشع له الجبال..! استرخِ إن أردتَ، أغمض عينيك، ونم.. وسيكون لي معك شأن.. لن أتركك بعد الآن..!

تمدّد غريب على فراش خاله، وأغمض عينيه، محاولاً الهروب من حالةٍ، وجد نفسه يسبح في متاهتها..! تركه فادي ليرتاح، وبدأ يقلّب كتاباً عتيقاً، ويدوّن بعض عباراته على دفترٍ صغير، وعندما فتح غريب عينيه، بدأ خاله يقرأ على مسامعه، ما دوّنه على دفتره من أقوال السيد المسيح، التي وجدت طريقها إلى قلبه.. فتهلّل وجهه، وانفرجت أساريره..! مما ضاعف حماسة فادي، ففتح أحد الأناجيل، وراح يقرأ بصوتٍ مسموع.. وعندما انتهى من قراءة ما أراد، أغلق الإنجيل بخشوع.. ثم أعاده إلى مكانه، وهو يرمق وجه الشاب، ليقف من ملامحه على تأثير ما قرأه عليه.. فهم غريب مراده، فخاطبه مُبتسماً:

. أتعرف يا خال.. أن ما قرأته لي يشبه إلى حدّ كبير، ما تعلمته من الشيخ في الجامع..! لكن بأسلوب مختلف..! فدَعْك من هذه المواضيع، ولنتحدّث بأشياء أخرى.. فأنا (لا أريد أن أخرج من تحت الدّلف لأقف تحت المزراب..) كما يُقال..!

أخفى فادي خيبته ببسمة رضا.. وربت على كتف ابن أخته موافقاً..

وقبل أن يودّع غريب خاله في نهاية السهرة، رجاهُ أن يُعطيه صورة العذراء، ليُعلّقها في غرفته.. ناوله فادي الصورة، وهو يبتسم، مُعتقداً أن ما بثّهُ في روعه، قد وجد له مكاناً داخله..! رغم تظاهره بغير ذلك.. وما عناده إلا مراوغة، ربما ورثها عن أجداده..! والدّليل أنه أحبّ الصورة، ويريد الاحتفاظ بها..! خبّأ غريب الصورة في صدره، وطار بها إلى بيته، دخل غرفته، أغلق بابها بالمفتاح، وأخرج صورة أمّه التي نجت من الحريق القديم.. وضعها أمام رسم العذراء، قارن بينهما بعينيّ عاشقٍ مأخوذ..! فتهلّلت أساريره طرباً لما رآه من توافقٍ وتشابه بين الوجهين..! فهمس للعذراء جذلاً:

. مذ وقعت عيناي عليكِ، عرفت أني رأيتكِ من قبل في مكانٍ ما..!

_ ٢٨ _

كان للقائه مع صديقه إحسان هذا اليوم طعمٌ آخر..! لم يره مُبتهجاً كما يراه الآن..!

. ما سرّ سعادتك الفيّاضة يا صديقي.. سأله غريب بمرح.. لابدّ أنها المرأة، فمن غيرها يُزيّت المفاصل، لتكون عامرةً بالحياة..؟!

قهقه إحسان، وتراقصت يده على كتف غريب جذلةً:

. واللهِ كبرتَ يا غريب، وبتّ تعرف مفاتيح الرجال..!

. تلميذك رفيق إحسان، قالها غريب بشيء من الزهو.. وأردف: قل لي يا إحسان: هل يُطبّق شعاركم على هذه الفتاة أيضاً..؟!

. أيّ شعار؟ قال إحسان مُستغرباً..!

تضاحك غريب وقال غامزاً:

. ولوْ يا رجل (الرفيقة للرفاق، والابن للحزب..!)

. من قال لك هذا الكلام الفارغ..؟!

. هذا الكلام ليس من بنات أفكاري، ولا من صبيانها.. سمعته من الشباب في نهاية أحد الاجتماعات.. ويومها كان الحديث يدور حولي..

. كيف.. وما علاقتك أنت بهذا الكلام..؟

. في ذلك اليوم، قال أحد الرفاق لزميله، وهو يُشير إليّ:
. منذ متى وهذا الولد معنا..؟
ردّ الثاني:
. لا أعرف، لكنّ الرفيق إحسان هو من جاء به إلينا.
. تُرى كيف استطاع استمالته، وهو من روّاد المساجد..؟
. لابد أنه رغّبَهُ بلقاء الفتيات..!
. تُرى هل قال له صراحةً: (الرفيقة للرفاق، والابن للحزب..؟) حتى رمى سُبّحته في وجه شيخه، وطار إلينا آملاً أن تحتضنه إحدى الرفيقات، فهو على ما أظنّ لم يُفطم بعد..! وغرقا في الضحك.. حتى غابا عني..!
. ولماذا لم تقل لي هذا الكلام من قبل..؟ ثم.. من هما هذان التافهان، اللذان تجرّأا على الحزب، وعليّ، وعليك..؟!
. لا أعلم.. صدّقني.. لكني تألمتُ يوم ذاك كثيراً، وحبستُ نفسي في البيت عدّة أيام، حتى استطعت استعادة توازني..!
ضغط إحسان على جبينه بعنف، وزفر محترقاً:
. لا عليك صديقي.. سأتدبّر الأمر.. والآن دعنا من هذا النكد، وقم بنا نغلي الشاي، تعال معي إلى المطبخ، هيا..
قرفص إحسان في زاوية المطبخ، رشق وجهه بالماء البارد، ثم قال:
. يا سلام..! لا شيء يُريح الأعصاب كالماء البارد.. تعال وجرّب غريب.. اغسل وجهك حتى أجهّز الشاي.
غسل غريب وجهه ورأسه، تنهّد بعمق، وحمل عدّة الشاي، مُتّجهاً بها إلى أرض الدار، افترشا الأرض، شربا الشاي، تنشّقا عبيره صامتين.. سافر كلّ منهما في عوالمه الخاصة.. فغريب الذي آلمه أن يُعكّر مزاج صديقه، راح يسترجع أكثر اللحظات إيلاماً في حياته الواعية.. وكأنه يُعاقب نفسه على كدرٍ، حمله إلى عينيّ صديقه الوحيد:
(فيرى نفسه يُخرج الورقة التي خبّأها في جيب قميصه بعناية، يفتحها بتيهِ فنانٍ مغرور أمام عيني إحسان:
. انظر يا صديقي، فأنا لستُ شاعراً وحسب، بل أنا رسّام أيضاً..! فقد رسمتُ الشيطان كما تخيّلته..
يتملّى إحسان الرسم، ويضحك هازئاً:
. تقول إنك رسمتَ الشيطان، أين هو هذا اللعين..؟ فأنا لا أرى غيرك في الصورة..! هذه صورتك أنت يا غريب.. صورتك.. صورتك..!

وتتردّد هذه الكلمة في حجرات عقله المتعب على لسان صديقه..! وكأنه يقول له:

. (أنت هو الشيطان.. وإلا كيف ترسم وجهك، وأنت تقصد رسم وجهه..؟!)

يصرخ فزعاً:

. لا.. لستُ الشيطان..! لست الشيطان..!

ينتفض إحسان، تُجفله صرخات غريب..! يدنو منه، يمسح على رأسه بودّ، يضمّه إلى صدره، ويهمس له:

. لستَ شيطاناً ولا ملاكاً يا صديقي..! أنت إنسان.. إنسان وحسب، ألا يكفيك ذلك..! ثم أنت رفيقي، وصديقي الغالي، لذلك فأنا أعتذر إليك عن انزعاجي الذي سبّب توترك..! وتكفيراً عن ذنبي سأروّح عنكَ، وأقول لك ما حدث بيني وبينها ليلة أمس..!

أتسمعني غريب..؟

أومأ غريبٌ برأسه موافقاً، فبدأ إحسان يسرد عليه، ما يظنه كفيلاً بإخراجه من حالة الكآبة والشعور بالذنب:

(قالت لي: حدّثني عن نفسك حبيبي، فأنا لا أعرف عنك إلا عطايا الحب.. كن معي من لحمٍ ودم، لأكون امرأتك..

غيّرتُ جلستي، وقلتُ بما يشبه الجدّ:

. يكفيك ويكفيني ما عرفتهِ عني، صدّقيني..

تمايلت بغنج غصنٍ غضّ، يُراقص النسيم، وهدلت:

. أرجوك حبيبي.. أرجوك.

رددتُ متضاحكاً:

. أنا قمتُ بواجبي، وحذّرتكِ، اسمعي إذاً، وذنبك على جنبك:

أنا يا آنستي مقبل من قريةٍ مشلوحةٍ هناك.. هناك على أطراف المدى، لا يمكن الوصول إليها برّاً ولا جواً إلا مروراً بكفر النسيم، وكفر النسيم هذه قرية صغيرة، أنجبت للعالم كائناتٍ يشبهون البشر..! ولأن دائرة النفوس الميمونة، لم تتمكّن من إثبات نسبهم للقردة، ولم تُفلح في نفي انتمائهم للبشر، اضطرّتْ آسفةً لإدخالهم في سجلاتها..

مما خوّلهم دخول مدرسة قريتنا، بقوّة السجلات الرسمية.. في تلك المدرسة نلتقي بهم كلّ صباح، نحضر الدروس معاً، وفي نهاية الدوام، تدور معركة حامية الوطيس بين الفريقين على حدود القرية، قبل أن يذهب كلّ إلى دياره..

ضحكت بعفوية وتساءلت:

. و أنت أيضاً كنتَ..؟

. أجل حبيبتي.. انظري هنا.. هنا في حاجبي الأيمن، ألا ترين هذه العلامة؟ إنها ضربة موسى، جاد عليّ بها صديقي مسعود.. وهنا تحت شفتي السفلى، ألا ترين هذا الأخدود..؟ إنه هدية من صديقي تحسين..!

. وأنت ماذا أهديتهم..؟ سألتني مستغربة..!

فأجبتُها مزهوّاً:

. لم أقصّر صدّقيني..! فأنا صاحب واجبٍ، كما تعلمين..

. وكيف انتهى الموضوع، أما زلتم أعداء إلى اليوم..؟

ضحكتُ حتى دمعت عيناي، وأنا أقول:

. لو تعرفين ماذا فعلتُ بهم بعد ذلك..!

قالت هازئةً، ونظراتها معلّقةٌ على علامتيّ الفارقتين:

. لا أظنك تركت عليهم آثاراً أعمق مما أرى..!

. لا.. لا.. إنها الأعمق.. (وحياة عينيك) فصديقي تحسين هو الآن زوج أختي لمياء، أتعرفين لمياء..؟ لو أنك عرفتها لما اتّهمتني بقلّة الحيلة، لمياء هذه قادرة على انتزاع الفوز بجميع مباريات كرة السّلة، والمصارعة الحرّة أيضاً.. لو تسنّى لها أن تشارك في أيّ منها..! وهي تملك موهبةً أخرى، تتفرّد بها على مستوى العالم ..!

إنه لسانها.. آهٍ من ذاك اللسان..! أتصدقين أنها تستطيع أن تجرّ بغلاً بلسانها..؟!

قال لها والدي يوماً، عندما وصلته آخر أخبار بطولاتها:

. (روحي يا بنت.. والله سأزوجك من أول كلبٍ يطرق بابنا..)

بعد يومين كان تحسين هو الكلب.. أقصد الصهر الموعود..! صحيح أنني قطّعتُ بقايا حذائي العتيق، على الطريق بين قريتنا وقريتهم، وصحيح أيضاً أن ريقي قد جفّ في حلقي.. وأنا أقنعه بمزايا الزواج، لكن القضية تستحق..!

. وماذا عن صاحب العلامة الثانية، هل زوّجته أختك الأخرى..؟!

. لا.. لا.. أختي " لطيفة " لا تقلّ فروسيّةً و(رجولةً).. عن أختها..!

لذا زوّجتها لكبيرهم، فهي الآن تحلّ وتربط.. وتُعتبر من وجهاء المنطقة..!

أما مسعود.. فكنت كلما نظرتُ في المرآة، وطالعني هذا الحاجب الطعين، امتلأتُ غيظاً منه، وبدأتُ أفكّر له بمصيبةٍ تهدّ حيله..! فكانت ابنة عمّي (روضة)، هي تلك المصيبة..!

ابنة عمي (روضة) عرجاء كحمارنا..! تضحكين، وتستغربين كيف أربط بين الحالتين..! بصراحة لستُ وحدي من يربط بينهما، فجميع أهل القرية، لا يذكرون روضة حتى يتبعون ذكرها بذكر حمارنا الأعرج..! لماذا..؟ سأجيبك:

. هذا الحمار كان في عزّ فتوّته معتدّاً بنفسه..! يمشي بين الحقول، ولا يرى أحداً في وجهه.. ويبدو أن هذه الحال ضايقت روضة ابنة عمي، فانقضّت على شجرة رمانٍ قريبة، قطعت منها غصناً غليظاً، وانهالت به ضرباً على متن حمارنا المعتدّ بنفسه.. ضربته بكلّ (رجولتها)

. التي تملكها بنات عائلتنا الكريمة . وهي تصرخ في وجهه:

. احنِ رأسك يا حمار، انظر إلى الأرض (فكلّ عائلتك حمير بحمير).

لكنه لم يُذعن لأوامرها.. بل ناولها (رفسةً) على ساقها اليسرى، أدّت إلى عطبها.. غير أن روضة ليست سهلة.. ولا تنام على ضيم.. فقد ردّت عليه بالمثل، وناولته (لبطةً) من ساقها اليمنى على ساقه اليسرى.. وعادا يعرجان معاً..!

والآن.. مارأيك بهذه العائلة حبيبتي..؟! أمازلتِ مُستعدّةً لتنضمّي إليها..؟

قهقهت ساخرةً.. ثم رمتني بنظرة احتقارٍ، وغادرت..!)

ضحك غريب حتى لم يبقَ في نفسه أيّ أثرٍ للأسى، وسأله:

. أكنتَ جادّاً بما أخبرتها به، أم أنك قصدتَ إبعادها عنك بأهون السبل..؟!

. (حطّ بالخرج) يا رجل.. فالعلاقة بالمرأة لا تحتمل الجدّية..! وإن ذهبتْ هي، فيوجد غيرها الكثير.! ثم.. أنا بالذات لا أرغب بالزواج، ولست من أنصاره..! ولن أغيّر هويتي وهوية عائلتي، لأجل قبيلةٍ من النساء..!

ـ ٢٩ ـ

أغصان الأشجار تضرب نافذة الغرفة بغضب.. وغريب غارقٌ في خطوط لوحته، لا يُعير بالاً لما يحدث في الخارج، بينما عينا مالك تُلاحقان خطوطه.. ويتأرجح رأسه، وهو يقول مازحاً:

. أما كفاك خربشةً يا ولد..؟!

يقهقه غريب بمرحٍ:

. خربشة يا أبا غريب..؟ أتسمي الفنّ خربشة..! وأنت الرجل الفهيم، ماذا تركتَ للهمج الرّعاع إذاً..؟!

. لأني فهيم كما تقول، أسمّي الأشياء بأسمائها، قل لي بربك ما فائدة ما تفعله..؟

أليس الأجدر بك أن تبحث عن عملٍ تأكل منه خبزاً..؟

. أبي لا أستطيع أن أكون إلا أنا.. هذه الرسومات هي أنا يا أبا غريب..

يستغفر مالك ربّه بصدرٍ ضيّق، ويُردف:

. أتريد أن تُقنعني أن هذه الأوراق هي شخصيتك...؟ أقسم بربّي أنك لا تعرف ما ترسم.. ولا أحد سيفهم معنى خربشاتك هذه..! الحياة يا ولدي عِراك، والعراك يلزمه سلاح، لا ريشة وأصباغ..!

الحياة عاهرة لا تسلّم نفسها لمن يعشقها، ويتعامل معها بعينين ذابلتين كعينيك..!
. ولمن تُسلم نفسها إذاً.. أخبرني يا أبا غريب.. فهذا المجال لا يغلبك فيه أحد..!
ينكمش مالك على نفسه، فالوخزة جاءت قاسيةً عليه.. أحسّ أنه عارٍ أمام ولده..
لكنه أصرّ على متابعة وعظه، فهو لم يستطع أن يُقدّم لابنه أرضاً، تطرد من حياته شبح الفقر، ولا استطاع أن يُعينهُ على نيل شهادةٍ عليا، تكون سنداً له.. فالفقر يقضم بأسنانه الزرق لحاء حياتهم ولبّها..! أفلا يقدّم له النصح إذاً..؟! كان هذا هاجسه مذ شبّ غريب عن الطوق، ابتسم بمرارةٍ وتابع حديثه:
. الحياة يا بني يفوز بها اثنان فقط: واحدٌ يأخذها من ناصيتها إلى مخدعه، وواحدٌ يُتقن اللعب على مفاتنها..! ويكسر عينها بما يسفحه تحت قدميها من عطاءات..!
يتململ غريب، ويكاد يفقد صبره.. فقد ملّ محاضرات أبيه، التي سمعها مئات المرّات، رغم أنها تعبق برائحة النساء..! وهي كفيلة مهما كان موضوعها، بإثارة شهوة العجوز، وإسالة لعابه..! لكنه ورغم نفور نفسه من هذه المحاضرات، لا يستطيع أن يجرح والده، لا يجرؤ على خدش مشاعر الأب والأخ والصديق..! صحيح أنه لا يرضى عن الكثير من تصرفاته، لكنه متعاطفٌ معه.. يفهمه، يحسّ به، يُدرك وجعه، وموجبات الكثير من مواقفه..! يخاطبه بحنوّ الأغصان على جذعها الهرم:
. أبي.. أرجوك يا أبي.. افهمني.. أنا لا أريد اغتصاب أحد، ولن أدخل في معركةٍ مع أحد.. ما أريده من رحلة حياتي أظن أني عرفته، وأسير إليه، فأنا لم أعد صغيراً.. أم أنك نسيت أني أقترب من الخامسة والعشرين..
يتنهّد مالك بعمق، ويزفر باحتراق:
. كبر الولد، وما عادت زوّادتي القديمة تُسكتُ جوعه..

ـ ٣٠ ـ

حبس غريب نفسه في غرفته عدّة أيام، يُفكّر في شخصيته.. محاولاً فهمها.. فقد هزّ كيانه ما حدث معه في الآونة الأخيرة..! أرهقه التفكير، ولمّا يصل إلى صيغةٍ تُرضيه..! فتح دفتره، وبدأ يُدوّن عليه ما يتذكره من صفاته السلبية، وعلى الورقة المقابلة يكتب ما يظنّه إيجابياً في ذاته.. رجحت كفّة إيجابياته في المفاضلة الأولى، فتنهّد مرتاحاً..! لكن أهم حدثين في حياته شذّا عن نواميس مفاضلته..! فهو لا يعرف إلى أيّ الصّفين ينتميان، وفي أية خانةٍ يصبّان..! فتأرجحُهُ بين التدين والإلحاد شطراً هاماً من حياته..! قد يُحسب له، وقد يُحسب عليه..! حيّره الأمر، شتّتهُ.. تخيّل نفسه كبهلوانٍ يسير على حبلٍ مُعلّقٍ في الفضاء، والكون تحته مقسومٌ إلى

شطرين، شطر تُعمّره المساجد والكنائس، وتتصاعد منه الأدعية ورائحة البخور، وشطر تفوح منه رائحة الحياة المنفلتة بكلّ متعها ومفاتنها..! وهو يرمق هذا بعينٍ وذاك بالعين الأخرى..! وترقص فيه حيرته على حافّة الهاوية..! يميل تارةً إلى اليمين وأخرى إلى الشمال..! يملؤه شوقٌ لا يُقاوم إلى أحدهما، وهو في حضن الآخر..! حتى حسم أمره في النهاية، وغسل رأسه من رائحة البخور المُقدّسة، ومرّغه بعبير الأرض وطينها..! دون كبير ثقةٍ بصحة ما قام به، أو عدم صحته..! فما زال رأسه كالكرة المجنونة، يتقافز من موقعٍ إلى آخر..! باحثاً له عن مستقرٍّ، أو مستراح دون جدوى..! أراد الهروب.. فوجد نفسه مُتعلّقاً بأذيال الموضوع الثاني، الذي حيّره، وأتعبه أكثر من سابقه..! نزفت روحه المثلومة:

. تخيّلتُ أمي التي لم أرها، ورسمتها، فكانت صورتها تشبه صورة العذراء..! ورسمتُ الشيطان كما تخيلتُه، فإذا بي أرسم وجهي.. صورتي أنا..! كيف حدث ذلك..؟ ولماذا..؟! أكاد أجنّ.. لكني أظنّ أن شبَهَ صورة أمي برسم العذراء يُحسب لي.. أما أن أرسم وجهي، وأنا أقصد الشيطان..؟! فهذا ما لا أعرف إن كان يحسب لي أم عليّ..! هل هو غصنٌ يانعٌ غُرس في قلبي، فمات مسموماً..؟! أم هو وتدٌ يابسٌ دُقّ في دمي فأورق بعد موته..؟! أنا لا أفهم شيئاً.. لمنْ سألجأ.. ومن أستشير في أمري..؟ آهٍ.. آه.. منْ لي بصدرٍ أرمي عليه رأسي القلق..! أبوح له بما حدث معي، ولا يشمتُ بي، أو يضحك مني..؟! يصدّق أني رسمتُ العذراء عندما رسمتُ أمي..! و.. آ.. أجل.. أجل.. إنه خالي فادي.. لا أحد غيره يعنيه هذا الأمر، لا أحد سيفهمني مثله..

بعد دقائق كان غريب عند خاله، يعرض عليه رسم العذراء الذي أخذه من عنده، وورقةً رسم عليها وجه أمّه..

. انظر يا خال.. هذه الوجه رسمته قبل أن أرى رسم السيدة العذراء..

تفرّس فادي في الوجهين، وضحك مُتهكماً:

. أتضحك عليّ أم على نفسك يا خال..؟! كلّ هذا الشبه وتقول إنك رسمتها قبل رؤيتها..! لم يبقَ إلا أن تقول إنك أحد القديسين..! هه..هه.. عليك سلام الربّ.. وبركة العذراء التي رسمتها..!

آلمه تكذيب خاله له، وسخريته منه.. فنفرت الدموع من عينيه وهو يقول:

. أنا لم أرسم العذراء يا خال.. بل رسمتُ أمي.. أختك ظبية يا خالي.. كما رآها قلبي.. ووصفها لي أبي..!

جمد فادي في مكانه، وكأن دمه قد توقّف عن الجريان..! انتصب شعر ساعديه.. جحظت عيناه، وتهدّل فمه..! أدرك غريب أن ما قاله أذهل خاله.. أخذه من ذاته..! فهزّه من كتفيه، كأنما يودّ استعادته، ليلقي في روعه بقيّة القصة:

. خالي.. صدّقني هذا ما حدث معي.. فعندما رأيت الصورة عندك أول مرة، توقّفتُ أمامها

طويلاً.. ألا تذكر ذلك؟ كنتُ بين مُصدّقٍ لروحي، ومُكذّبٍ لها..! خفق قلبي في تلك اللحظةِ بشدّة وهتف: لقد رأيت هذه الصورة في مكانٍ ما..! أجل رأيتها..

وتوهّمتُ يوم ذاك أنها أمي..!

احتضنه فادي بعينيه، رمقه بإكبار.. ثم ضمّه إلى صدره.. غمره بحنان دموعه، التي لم يستطع كبحها، وقبّله على جبينه قائلاً:

. هنيئاً لك يا غريب.. وهنيئاً لنا بك..! أنت.. أنت قدّيس..! ومن الآن فصاعداً لن أتركك.. فأنا سأرعى هذا القدّيس المخبوء في صدرك، لأوفّر له أسباب البقاء والحياة.

كاد غريب يُخبر خاله عن الصورةِ الأخرى، صورةِ الشيطان، وهو يصحبه إلى الكنيسة في اليوم التالي.. وصلت الكلمة عدة مرات إلى شفتيه، وابتلعها..! لم يجرؤ على البوح خوفاً على خاله، الذي هامتْ روحه تيهاً وحبوراً.. باكتشاف قدّيسٍ نبت من دمه..! فإن هو أخبره بما لديه، قد يسقط من عليائه على أرضٍ قاسية، وتتشظى روحه..! دخلا الكنيسة معاً، اتجها مباشرةً إلى راعيها الذي باركهما، تناولا من يده الخبز المقدس، ثم وقفا أمام تمثال السيدة العذراء، انحنى فادي أمامها وتمتم مُبتهلاً، ثم أشعل شمعةً وقال بخشوع:

. جئتكِ يا أم الرب بقدّيسٍ طاهر فباركيه..! وأسبغي سلامك على روحه.. كيلا يطير مرّةً أخرى خارج رحابك..!

ثم استأذن العذراء ليتجوّل مع ابن أخته في أرجاء الكنيسة، يُعرّفه على تفاصيلها فيزداد تمسّكاً بها..! توقّف غريب قليلاً ليرنو من إحدى النوافذ، فرأى الجامع الذي احتضن شطراً من حياته، يقف قبالته.. خُيّل إليه أنه يُناديه، فهفا قلبه نحوه.. وبكى شوقاً وإشفاقاً..! مسح فادي دموع غريب، وجذبه عن النافذة، وهو يهمس:

. لا تنظر بعيداً يا غريب، تلك مرحلةٌ مضت، وانقضت.. وقد آن الأوان لتستقرّ، بعدما وجدتَ نفسك..! أنت الآن هنا، وستبقى هنا..! تعال، تعال..

وأجلسه على دكّةٍ قريبةٍ من العذراء، تناول كتاباً، وراح يقرأ له ما يدعم وجوده في هذا المكان، ويؤسس لتعلّقه به..! ولفرط غبطة فادي بما يفعل، لم يلاحظ تمزّق غريب، ولم يسمع حديثه مع نفسه.. كان مأخوذاً بجلال المهمة المقدّسة التي يؤديها..! حاول غريب عدة مراتٍ أن يخبره بأمر الرسم الآخر، علّه يستفيق من أوهامه، ويعرف أنه لا جدوى مما يفعله..! وأنه ربما يكون مُخطئاً في تصوره عنه.. لكن فادي لم يسمع، أو ربما غريب توهّم أنه يقول، وهو لم يتفوّه بكلمةٍ مما يريد..!

مرّت أشهر وغريب يسمع من خاله خطاباً، يظن أنه سمع ما يشبههُ في مكانٍ آخر..!

لكن بأسلوبٍ مختلف..! غير أنه لم يستطع أن يكون له..! وما عاد قادراً على تحمّل كل هذا الضياع..! فبدأ يفكر جدّياً بالحلّ..

_ ٣١ _

قَرع الباب الخشبيّ العتيق، في عتمة الوقت.. أجابه صوتها، كأنما من جيلٍ سابق:

. مَن..؟ مالك..؟

. نعم مالك يا شهلا.

شهقت روحها:

. عرفتُكَ من طعم يديكَ على الباب..!

. افتحي إذاً لأستطيع التّنفّس، شهقتين فقط..! فأنا لا أريد البقاء.. أودّ فقط أن أراكِ..

أرى فيكِ نصف الحياة، ونصف الموت.. نصف شهلا، ونصف ظبية..!

. ستموت عاشقاً لها.. قالت شهلا، وفتحت له الأبواب جميعها..!

حضنتْها روحه.. تعربش عليها الجسد: هاأنذا يا شهلا، لم أمت لأنكِ مازلتِ هنا.. في هذا العالم..

. ولن تموت.. أجابته.. لن تموت قبلي.. ادخل، ادخل، عندي لك..

. لا.. لا.. نفض يده مقاطعاً.. لم يبقَ وقتٌ لذلك..! سأعود.. نعم، نعم.. سأعود..

ومضى.. حاولت إمساكه.. لكنه غاب.. كقبضة وهم..!

_ ٣٢ -

عاد غريب من بيت جدّه هذا المساء، بعد مُشادّةٍ مع خاله، كادت تطيح بثقته به، وتخلعه عن عرش القداسة الذي تبوّأه يوم الصورة..! لولا أن فادي يُقدّر ظروف غريب النفسية، ويعرف الضغوطات التي تُثقل كاهل روحه..! وجد والده مخموراً.. تفوح منه رائحة النساء..! شقّ عليه حاله، آلمه ألا يجده إلا مُستباحاً.. أراد أن يتفاهم معه، فكلّمه رجلاً لرجل:

. تزوج يا أبي.. وكفاك عبثاً..! أرجوك افعلها، وأرحني..

. أتزوج..! هه.. أنا أتزوج بعد أمك..؟ خسئتَ، وخسئت أية امرأةٍ تفكر أن تحلّ محلها..!

وتلمّس الصليب على صدره..

يمسك غريب يديّ أبيه ليوقف ارتجافهما، ويقول بضحكةٍ حيرى:

. منْ يسمعك يصدّق يا مالك..! يصدّق وفاءك.. قل لي من التي كانت عندك اليوم..؟ وهل بقي لديك شيء تبيعه لتُبذّره عليها أو على غيرها..؟! انظر إلى نفسك.. أصبحتَ جلداً منشوراً على عظم..! جعتَ وجوّعتني معك، وتدّعي الوفاء..! والله أمرك غريب يا رجل..! فأنا لم أرَ ولم

أسمع عن وفاء كوفائك..! ليتك تزوجتَ كل نساء الأرض، وعشتَ سوياً..!
. اخرس يا ولد.. صرخ مالك.. لستُ مضطراً أن أشرح لك.. فأنت غبيّ لأنك لم تعشق.. فلو أنك تذوقتَ طعم الحب يوماً لفهمتَ وعذرتَني..!
أدرك غريب أنه لا مجال للإصلاح، وأن كل شيء قد تمّ حسمه داخل والده.. فتركه يعابث أوهامه، ودخل غرفته، فهو اليوم بأمسّ الحاجة إلى خلوةٍ مع نفسه، يريد أن يسمع صوت غريب بين هذه الأصوات الكثيرة، التي تضجّ داخله..! جوقةٌ لا ضابط لها تمارس جنونها في عروقه..! صوت فادي، مالك، إحسان، الشيخ، رفاقه في الجامع، زميله أحمد الذي يجلده صوته..! تتعالى أصوات الجميع، تختلط ببعضها..! تتداخل الأفواه الصارخة.. تشكّل شدقاً واحداً، غريباً وكريهاً يودّ ابتلاعه..! يحاول مُخاتلته، لكن الفم الشبق يتقن دوره، ويعرف من أين تؤكل الرأس..! يُحسُّ غريب أن رأسه قد صار مضغةً داخل ذاك الشدق..! فيصرخ بملء صوته:
. لا.. لا.. كفى.. دعوني.. أريد أن أعيش كما أشتهي، بعيداً عنكم جميعاً..
صرختهُ تُمزّق الفم النهم إلى أفواه.. ويعود كل جزءٍ إلى صاحبه منكفئاً خائباً.. تنهّد غريب بارتياحٍ وهمس لروحه:
. أجل.. لابد من الرحيل عنهم.. سأغادر الآن.. ولن أخبر أحداً بنيّتي، لكني سأترك كلمتين تشرحان كل شيء..
وبدأ يكتب: (خالي.. ما سأقوله الآن ينطبق على الجميع، لكني سأوجّهه لك أنت، لا أدري لماذا..؟! ربما لأنك الأقرب إليّ، أو لأنك كنتَ آخر حجرٍ ضرب رأسي، ففجّر جنوني..! وساهم في طردي خارج عالمكم.. أنت يا خالي آخر كوبٍ من الكلس شربتُه رغماً عني.. ضاعف المساحة المُتكلّسة في داخلي..! صحيح أنك مزجتَ شرابك بماء الورد والدموع، لكنه بقي كلساً، وفعل بي ما فعلتْهُ قبله تلك الأكواب، التي شربتُها من يد غيرك..! تحجرّتُ
يا خالي..! حرقني كلسك.. حتى كادت المساحة الحيّة داخلي تموت..! كلكم يريدني له.. ولم يفكر أحد منكم فيما أريده أنا.. محبتكم خنقتني، حوّلتني كومة أحجار، لا ماء ينضح، ولا عشب ينبت من رحمها.. فهل يجرؤ طيرٌ على الاقتراب منها..؟! خالي:
أشياء كثيرة أودّ أن أقولها لك، لكني تعبت.. تعبت.. فأنا راحل.. لا أحمل معي إلا ما تبقّى منّي..!
ولا زاد لديّ إلا كومة أحجارٍ خرساء، مرصوفة في داخلي بغير نظام.. تشدّني إلى الأرض، وتُبطّئ خطواتي أنّى حللت..! راحلٌ أنا يا خالي على غير هدى.. فادعُ لي.. أسمعت..؟
فأنا مازلتُ مؤمناً بربّ جميل، عالم وعليم.. وأكبر مما تظنون..)
طوى الرسالة بعناية، وضعها في جيبه، وتسلّل من الدّار، كيلا يوقظ والده، مشى في أزقة ضيعته، حتى وصل بيت جدّه، وقف على حجرٍ خلف سور الدار، ورمى الرسالة أمام غرفة

خاله، وتابع مسيره في طرقات القرية الترابية، وقف بين حارة أمه وحارة أبيه، يتأمل البيوت، يتخيّل الناس داخلها.. رآهم مشغولين بما لا يعنيه.. تابع سيره حتى توقّف في المنطقة الفاصلة بين المسجد الصغير والكنيسة، رمق هذا بعين وتلك بالأخرى..! خُيّل إليه أن كلاً منهما يمدّ يداً أسطوريّةً نحوه.. لتقبض على عنقه..! وتشدّه إليها.. تتبارى اليدان، تستنفران قوتهما، فيشطرانه شطرين، وتأخذ كل يدٍ حصّتها، غير عابئةٍ بدمائه التي لطّخت وجه الكون..! تنتابه رعشة خاطفة كلمعة البرق، فيتلمّس جسده للوقوف على حقيقة وجوده..! يحثّ الخطا مبتعداً، وهو يحمل في داخله شرخاً عميقاً..

_ ٣٣ _

مساء مالك الخمريّ، يُلملم ذيوله، ليرتمي في حضن العتم.. بينما هو يترنّح سكراً بين يديّ امرأة.. ينظر إليها، ولا يراها، ويُغمغم: رحل غريب يا سميحة، ولد غريباً، وعاش غريباً، وسيبقى غريباً..!

تجيبه المرأة عاتبةً:

. أنا فاتن يا مالك، ولستُ سميحة.. وابنك ليس غريباً، فهو حفيد الحاج عساف سيّد المسكينة..!

يُجيبها مالك كمن يُكلّم نفسه: غريب سيّد المسكينة..؟! ما بك يا امرأة..؟ كأنكِ تهلوسين..! غريب ابن الناظمية.. وليس حفيد عساف..! وقد رحل.. هجرني ورحل يا حفيظة..! أتعرفين إلى أين..؟

أشاحت المرأة عنه، وبدأت تُلملم نفسها، لتتركه لهذيانه.. الذي تابعه ذاهلاً عن كلّ شيء:

. راح غريب، رحل ابن الناظمية.. الناظمية مسقط رأسه.. وهو ابن ظبية وشهلا..! شهلا..؟! أجل.. إنها هي.. لابد أن غريب عندها الآن.. فإلى أين سيذهب، إلا إلى حضنها..؟ وأنا أيضاً سأذهب إليها.. غداً..

واستغرق في غيبوبةٍ سكرى..

_ ٣٤ _

الطاولة الصغيرة التي تفصل بينهما ترتجّ بشدة، وأكواب الشاي ترتجف أوصالها، وتسفح ما تبقّى في جوفها، مُلطّخةً كلّ ما يُحيط بها، ينتبه روّاد المكان، المُتحلّقين حول الطاولات المجاورة، وتحاول أعينهم تسجيل تفاصيل الواقعة بفضول.. وظلال يلفّها الخجل.. فتتوارى خلف حركاتٍ عبثيّة.. وضحكاتٍ وهمهماتٍ مخنوقة.. بينما عينا غريب تقدحان شرراً.. تُجفّف ظلال الشاي

المسفوح، وتحاول يداها عناق يديه..
. اهدأ حبيبي.. ما بك..؟ الموضوع أبسط مما تتصور..
يرتفع صوته رغماً عنه:
. ظلال ماذا تقولين..؟ أهذا هو الخبر الجميل الذي تحملينه لي..؟! أنا أعمل في معملٍ للجوارب..؟ وعشر ساعات يومياً..؟! لماذا..؟! لأسدّد أجرة الجحر الذي أسكنه..؟! كم سيبقى لي من الوقت لذاتي..؟!
. حبيبي.. هكذا هي الحياة.. هل من خيارٍ أمامنا..؟ ويبقى الرّمد أفضل من العمى..!
. ليس رمداً ما أنا فيه، إنه العمى شخصيّاً، وبأبشع صوره.. ظلال.. هل أبذّر عمري..؟ هل أدفعه أجراً لسقفٍ لا يمنحني سوى ظلّ أمانٍ مهزوز..؟ لا تنظري إليّ بهذه الطريقة.. فلا أمن لجائع..! لا سلام لمن لا يجدُ مُتّسعاً له.. لروحه.. ظلال كيف ترضين لي ذلك..؟! ومتى سأرسم.. متى سأعمل لحلمنا المشترك.. أنسيت كلّ ذلك، وجئت تزفّين لي البشرى العظيمة:
. (فُرجت حبيبي.. فُرجت.. وجدتُ لك عملاً، في معمل الجوارب القريب من حيّنا..)
يا لفرحتي.. يا لعظيم فرحتي بك.. وببشراك..!
ويُعاود ضرب الطاولة بيدٍ من غضب..
يعتصر الألم قلبها، يرشح رأسها وعنقها ماءً ثقيلاً.. ترفع شعرها، تُجفّف عرقها.. وتفكّر:
. لا أدري ما ذنبي أنا في كلّ هذه القضيّة، يُعاملني على أساس أني سبب خراب العالم.. وكأن الحلّ بيدي، وأحجبه عنه..!
تمسح دمعةً نزفت من محجرٍ مُحترق.. وتُخاطبه بشيءٍ من الاتّزان:
. ما الحلّ حبيبي.. ماذا سنفعل.؟ وهل بقي بابٌ لم نطرقه، أو طريقٌ لم نمشِ فيه..؟ ما رأيك أتبقى دون عمل..؟ ومشروعنا.. كيف سنعمل عليه إذاً..؟ هل ستُجهضه..؟!
بسخريةٍ حامضة يُجيبها:
. لم تعد بيننا مشاريع، انتهى كلّ شيء.. وغداً سأرجع إلى الضيعة..
. الضيعة..؟ وماذا ستفعل هناك..؟ وأنا لمن ستتركني.. هل هنتُ عليك..؟!
. اتّخذتُ قراري وانتهى الأمر.. فهناك على أقلّ تقدير يوجد سقفٌ أنام تحتهُ، دون أن أضطرّ لبيع عمري من أجل ذلك.. وتبقى لقمة الطعام، أشارك أبي فيها.. وربما تُسعده عودتي، وتعيد له حياته الضائعة..
باستنكارٍ معجونٍ بالأسى تسأله:
. غريب.. أتُلخّص حياتك بصفحةٍ واحدة..؟! بسقفٍ ولقمة طعام..؟! وأنا.. وحبنا.. وغريب..؟ غريب الكبير الذي ينتظرك هناك.. على مشارف المستقبل..؟ ينتظرك لتصل إليه سويّاً معافى..

ألا تخجل منه.. إنْ خيّبتَ أمله.. وصغّرته..؟ غريب يُلوّح لك، يناديك.. فسافر إليه.. لنسافر إليه معاً.. أرجوك حبيبي..

يرحل على متن خياله بعيداً عنها..

(يرى والده مُترنّحاً في حضن امرأةٍ يكرهها، تفوح من مساماته رائحة الخمر..! ويسمعها تُهدّده:

. لا تأتِ إليّ مرّةً أخرى بجيبٍ فارغ.. فأنا أكره الرجل (الجربان)..

ويراه يبكي بين يديها . وهو لم يبكِ قط إلا في حالة سكر. ويسمعه يقول لها:

. أعطيتك الكثير يا سعدة.. أنسيتِ..؟

فتزجره غاضبةً:

. نسيت، نعم نسيت أيها الـ..).

يهزّ غريب رأسه ليطرد صورة الشؤم من عينيه، ويغسلها بدمعةٍ حارّة..!

تمدّ ظلال أصابعها، لتمسح دمعتَهُ بحنوِ الجريح على الجريح.. وتهدل:

. أعرف أنك لا تستطيع البعد عني، فأنت تبكي لمجرّد مرور الفكرة في مخيّلتك..! وأنا كذلك لا أستطيع التضحية بك، ولن أسمح لك بقتل نفسك وقتلي..!

تنهّد بعمق، وقال وقد تراخى موقفه أمام رقّتها:

. من أجلك فقط يا ظلال سأبقى، سأتحمّل كلّ شيء، ليعيش حبّنا..!

. ومعمل الجوارب..؟ سألته ببسمة يانعة..

. أمري إلى الله ولك..! سأعمل به..

. وأنا سأتكفّل بالباقي، أنا مسؤولة عن كلّ ما يخصّك، فالمهمّ ألا يُجهض مشروع عمرنا..

_ ٣٥ _

على مقعدٍ مُنهك، تجلس ظلال وحيدةً، في الحديقة التي يلتقيان فيها عادةً، لاشيء يحجب عنها أشعة الشمس الحارقة، التي تخترق رأسها المتعب..

وهي لا تحاول أن تستمطر ظلاً لا يجيء وحده.. تودّ لحرارة الشمس أن تُجفّف رطوبة دماغها.. أن تتغلغل في تلافيفه، عسى الأشباح التي تسكنه تولّي، فيهدأ بالها، وتخفق في كيانها أجنحة الوئام.. أطالت المكوث.. والأفكار عارضات أزياءٍ يتلوّيْنَ في ذهنها.. يتنافسن.. مُتخلّياتٍ عن سلاحهنّ النبيل.. تتناوب الألوان على وجهها، تبعاً لارتفاع الخضاب أو انخفاضه في عروق الفكرة التي تطفو على السطح.. تفتح دفترها وتكتب: (الحيرة تأكلني.. فما عساي أفعل مع مجنونٍ أحبّه، ولستُ واثقةً من حبّه لي..؟ كيف أطمئنّ له، وهو لا يحبّ نفسه..؟! لم يستطع أن يثبت في عملٍ أكثر من شهرٍ مذ عرفته..!

إنه مجنون.. مريض.. لابدّ أنه مريض.. لا.. لا.. إنه مبدع، وهذا حال المبدعين.. أليسوا مجموعة من المرضى..؟! غير أني ما التقيت بمثلك يا غريب..! إنك حقاً غريب.. غريبٌ في كلّ شيء.. وأنا تعبتُ منك، وجودك كما الغياب مُنهكٌ، قاتل..! مئات المرات في اليوم أجري المفاضلة بين البقاء معك، أو البعد عنك.. أتصدّق.. بالقلم والورقة أفاضل بين موجبات بقائي معك، وضرورات انسحابي منك.. ودائماً يأتيني الجواب: لابد من الانسحاب.. فما عدتُ قادرةً على تحمّل عبء بيتك وبيتي معاً.. طلبات ابنتي تلاحقني.. أعينها اليتيمة تجلدني.. تذكّرني على الدوام بفجيعتين ما كانتا لولا وجودي.. ليتني متُّ يوم ذاك... قبل أن أفجع بزوجي ووليدي، ثم بوالديّ.. كانا عندي، يحاولان التّخفيف من وقع المصيبة على روحي .. لم يدّخرا جهداً لإبعاد شبح الإثميّة عنّي.. وسافرا عندما تيقّنا أني بدأت أستعيد نفسي، وأرمي عنّي وشاح الموت.. إذ لا ذنب لي في وجوده، لكنه القدر.. لم يعجبه شفائي.. فأعاد نسج عباءة الألم على نول حياتي.. مات أبي، وكذلك أمي في حادث مُريع.. قُتلا في طريق عودتهما، وحملتُ أنا وزر ما حدث.. أجل.. كلّ ما حدث كان بسببي..! فأنا اللعنة التي حلّت على المسكين زوجي وقتلتْهُ.. ثم طاش حجرها فقتلتْ أهلي..! إنها لعنتي من جديد.. تحرق كل من يخصّني.. وتُحمّلني ما لا طاقة لي به..! ولا أدري أين سينتهي بي المطاف..!؟ وهل تراها انتهت تلك اللعنة بمقتل أغلى الناس، أم أنها ستظلّ لصيقةً بي.. ترافقني وتغتال أحبّتي.. ؟ أيكون حبّي لغريب وجهاً آخر لها..؟! أتكون قد غيّرت سلاحها..؟ ربما.. فالسلاح كالثياب يتطوّر مع الموضة. وما يقتلني اليوم ربما يكون بلسماً شافياً غداً..! من يدري..؟

يبدو أني بدأتُ أهلوس.. خيوط الدخان تملأ عالمي.. وإحساسٌ عارم بمسؤوليتي عن البلاء الذي يجتاح العالم يكسرني.. يحقنني خزياً..!

غريب.. كم تمنيتُ أن تكون لي الملاذ.. الجبل الذي أركن ظهري المكسور إليه.. أزفر أبخرة احتراقي على صدره.. تمنيتُ لو أستطيع أن أدفن رأسي بين جناحيك، أن أرمي على كاهلك بعض متاعبي، وأغفو.. لكن هيهات..! فوجودك في حياتي أضاف على سفر مسؤولياتي سطراً آخر.. سطراً موجعاً..! أعادني من جديد إلى ماضٍ وددتُ أن أطويه، ماضٍ ما وجدتُ نفسي في رحابه إلا ذكراً مشوّهاً..! أنا التي قال عني الكثيرون:

(إنها شلال الأنوثة الذي لا يُقاوم..)

وجدتُ نفسي على الدوام مضطرةً لتقمّص شخصية الرجل، لأنه كان غائباً.. جباناً.. فاضطررتُ لأخذ دوره..! لم يكن ذلك يُريحني، مع أنّ العطاء هو مصدر سعادتي.. لكنه العطاء الذي أختاره أنا، وأرتضيه.

بحتُ لإحدى صديقاتي بما يؤرّقني، فإذا ما بها يُشبه ما بي..! قالت لي يوم ذاك، وهي تضحك بمرارة:

. إنها موضة يا صديقتي.. ألا تعرفين بماذا ينصح الرجل في هذه الأيام أخاه الرجل..؟ يقول له بكلّ ثقة:

. أمامك طريقان لا ثالث لهما، ليسلم رأسُكَ وجيبُك.. فإن صادقتَ فصادق مُثقفة، فهذه تؤمن بمساواتها معك، فلا ترضى أن تصرف عليها، بل ربما تضرب النخوة في رأسها، وتصرف هي عليك، لتحسّ بتفوّقها..! وإن لم تستطع وهذا هو الخيار الثاني: فأعطِ المرأة التي تتعثّر بها كبسولة القات السحرية: (الحبّ) تسكّن عقلها إلى أجلٍ غير معلوم..! فيكون لك ما تشاء من كنوزها..!

غريب.. هل أنت مثلهم.. أيكون الرجال كلهم سواء..؟ وما أنت إلا نسخة من تلك النسخ التي بتُّ أكرهها..!

لم أخسر ثقتي بك بعد، فوضعك مختلفٌ عن أوضاع الذين عرفتهم من الرجال، مازلتُ مؤمنة بك.. لأنك مبدع، مازال ينوس في داخلي بصيص أملٍ، بأنك ستعود لذاتك، ستعرف قيمتك.. قيمة الكنز المكنون داخلك.. وتعمل لتفجيره.. غريب.. أنا متعبة.. بقاؤك دون عملٍ يذلّني، يدفعني للبعد عنك، يرميني خارج حدود روحي المُعلّقة بك.. غريب.. ساعدني لأكون لك..

الأعباء تقتلني.. آهٍ.. آه.. ماذا أفعل..؟ مُمزّقة أنا، وأنت لا تُحسّ بي..!)

نسمات المساء تُعابث وجهها.. توقظها، تستعيد إحساسها بالوقت.. تُغلق دفترها، تتنهّد باحتراقٍ وتمضي.

_ ٣٦ _

مساءً، عاد غريب إلى غرفته، دخلها جذلاً.. وهو يُدندنُ مقطعاً من نشرة الأخبار، التي سمعها منذ قليل في المقهى، يترنّم بها كأيّ مراهقٍ علقت على لسانه مقطوعةٌ تُدغدغ غرائزه..!

(جائزة نوبل للسّلام مُنحت هذا العام، لرجلٍ يحارب الفقر لا الإرهاب.. لرجلٍ يُعطي الفقير شبكة، لا سمكة..!)

وكان المقطع الثاني من أهزوجته لازمةً يُعيدها كلما داهمه شبح الخوف من الآتي:

(شبكة لا سمكة.. شبكة لا سمكة..) يا سلام..! لم تتمخّض قريحة مبدعٍ من قبل عن أهزوجةٍ أجمل مما سمعت..!

نظر إلى جهاز الهاتف بحب، اقترب منه، ربت عليه، قبل أن يطلب ظلال ويقول لها:

. أبشري حبيبتي.. وبشّري أطفالنا المُؤجّلين، أن القادة الدمويين، صانعيّ الحروب تنحّوا عن عرش السلام.. خُلعوا عنه... وحمل الراية صانعو الأمان.. حملها منْ يخجل من طفلٍ يبكي.. من أمٍ يبس رحمها جوعاً.. وزوجٍ نسي لون عينيّ امرأته.. وطعم شفتيها.. في غمرة صراعه بحثاً

عن الفُتات..! أعرف أنك سعيدةٌ مثلي الآن، لا بل أكثر مني.. فالقضية تعنينا معاً، تعني الجميع.. حبيبتي.. ذكّرني ما حدث اليوم بلقائنا الأول، أتذكرين تلك الليلة..؟

. تُجيبه مُتسائلةً: وما علاقة لقائنا بنوبل والسلام..؟!

. سعادتي.. سعادتي بهذا النبأ لها مذاق اللقاء الأول.. فحلاوة عثوري عليك بعد طول انتظار.. لا يُعادلها عندي إلا حلاوة ما سمعته اليوم..!

يا لها من ليلة...! أهي أثيرةٌ عندك، كما هي عندي.. ظلال..؟ ليتني لبّيتُ دعوة عاصم من قبل، لحضور جلساته الأدبية، لم يكن الأمر مُغرياً بالنسبة لي.. لا بل كان مُنفّراً.. يُذكّرني بجلسات النميمة، المُنعقدة في أكثر من مكانٍ في مدينتنا.. أو باجتماعاتٍ مغلقة، تُحاك فيها المؤامرات من كل شكلٍ ولون..! لذلك رفضتُ دائماً أن أكون أحد أعضاء الاجتماعات، أياً كان هدفها، هل أبوح لك بسرّ:

(الأهداف البرّاقة لا تُغريني..) بل تجعلني أتقزّز..! لماذا..؟

لأنها تهزّ ثقتي بالإنسان.. لا.. لا.. صديقتي.. افهميني.. ليس بالإنسان كمطلق.. بل بإنساننا الذي نعرفه في محيطنا.. لمَ..؟ تقولين لمَ..؟

لأني لم أعايش إلى الآن من يسنّون لأنفسهم، أو لمؤسسةٍ أو حتى لحزبٍ سياسيّ، أو جماعة أدبية، خطّةً وأهدافاً ويلتزمون بها..! يبتكرونها بإبداعٍ وكأنهم في حالة تجلٍّ لا بشرية..! يُعلنون ولاءهم المطلق لها، وعندما يصلون إلى مبتغاهم، وتوضع الأمور على المحك: تزول الأطراف الصناعيّة، والعدسات اللاصقة، والأصباغ، وينتهي مفعول (السيلكون)، و(الفياكرا).. وتعود الأمور إلى نصابها، رخوةً هزيلةً.. لا تعدُ بحملٍ ولا ولادة..! فكيف أثق بهم..؟! لكنّ ما حدث أني تجاوزتُ قوانيني ورغباتي، وذهبت إلى السهرة، مدفوعاً بأمرٍ غامض لا أدرك كنهه.. أو لم أكن يوم ذاك أدركه.. وسمعتُك تُناقشين أحد النقاد بطلاقة.. لأول مرة تبهرني امرأةٌ خارج خانة الأنوثة..!

كانت المرأة في نظري باقة وردٍ، تضجّ بعبيرٍ مُثير.. إذ أفعّلُ حاسة الشمّ الهامّة جداً في شخصيتي..! ولعبةً مغناجاً تُدغدغ شقاوة طفولتي وصباي..! وحلماً دافئاً أعبره، إلى رحم الحياة الأولى..! وعندما سمعتُك، دخل معادلةَ حياتي مع المرأة رقمٌ جديد.. رقم له أهميّة الصفر في حسابات العمر..!

أجابته ضاحكةً:

. (يا خوفي يْكون صفري عَ الشّمال)..! كفاك ثرثرةً هذا اليوم.. تصبح على خير..

يُلقي هذا الصباح قنبلته الضوئية في عروقها.. تغادر فراشها جذلةً.. تلملم فوضوية الأمس، تُعدّ قهوتها، تضعها على طاولتها المنخفضة كأحلامها.. توقظ ابنتها، رفيقتها، لتقتسما معاً عبق الصباح.. تتمطّى رؤيا، تتثاءب في فراشها، وهي تقول:

. أماه حتى يوم الجمعة..؟! لماذا لا تريحين جسدك يوم العطلة على الأقلّ..؟

تضحكان معاً.. تقبّلها ظلال وهي تقول:

. كل أسبوع أسمع منك ذات العبارة، ألم تقتنعي بعدم جدواها..؟!

. وأنت مشاكسة كابنتك.. لا تسمعين الكلمة..!

تحضنها والدتها، تلثم جبينها، تجلسان معاً لارتشاف القهوة التي بردت..

. آه ما ألذها.. تقول ظلال متضاحكةً..

. ما ألذها.. أم ما أبردها يا أماه..؟ يبدو أنكِ تعوّدتِ عليها هكذا..!

تتنهّد ظلال بألم مفاجئ:

. يبدو أن الحياة لئيمة معي يا بنتي..! تسقيني الساخن بارداً، والبارد فاتراً ممجوجاً..!

. هوّني عليك ظلال.. لا تكوني متشائمة يا أم رؤيا.. فيُعديني تشاؤمك.. وأنا اليوم سعيدة.. وعندي أخبارٌ أظنّ أنها سارّة..

ويُشرق وجهها، وهي تقترب من أمها، وتضع رأسها على صدرها، تمسح ظلال على شعرها الأسود الفرعوني..

. ماذا عندك يا بنت..؟ هل أنت عاشقة..؟ من هو، هل أعرفه..؟ قولي بسرعة..

بطربٍ لا يناله إلا من أدار له الحبّ وجهه المشرق، قالت:

. أجل يا أمي أنا عاشقة.. عاشقة حتى النخاع..! والموضوع جدّي هذه المرة، يبدو أنك ستخسرين صحبتي الجميلة، سأغادركِ إلى عشّ آخر يا ظلال.. وسأرى ماذا ستفعلين دوني.. وكيف ستكون خميلتكِ إن خلتْ منّي، وخسرتْ زقزقاتي، وعذوبة ثرثراتي..!!

دموع ظلال المُنهمرة على خدّيها، تُربك رؤيا..! فيهدل صوتها منكسراً:

. ظلال.. ما هذا.. أهي دموع الفرح.. أم أنك على موعدٍ مع الحزن هذا الصباح..؟ مازال الوقت مبكّراً على دموعك الغالية يا أمي..!

تكفكف الأم دموعها بكفّها، تقبّلها بحب، وتسألها ملهوفةً:

. من هو..؟ قولي بسرعة، من الذي يجرؤ على خطفك مني، قبل أن أشبع منك.. ومن عبير احتضانك وجنونك..؟

. لن أكون بعيدةً عنك، لا تخافي.. فكلانا نحتاج فيئك يا ظلال، وسنبقى تحت جناحيك.. العريس ليس غريباً.. إنه أقرب مما تظنين..! (احزري) من يكون..؟!

تفكر ظلال، تستعرض صور المقرّبين منها، لا أحد منهم تُرشّحه طبيعته وصفاته، ليكون الفارس المأمول، القادر على امتلاك قلب هذه المهرة الشَموس.. إنها تحتاج صفاتٍ خاصة.. لا تتوافر إلا في القلة من شباب هذه الأيام.. تُرى: مَن من معارفها المقرّبين يملك ما يأسر قلب ابنتها وعقلها..؟

. عجزتُ يا بنتي، فشلتُ في معرفة البطل، الذي تفوّق حبه على حبي، وانتصر عليّ..

. ما هذا يا ظلال.. غيرة..؟ أتغارين منه عليّ..؟ اطمئنّي.. لن تستطيعي معه أن تمارسي دور (الحماية)..! معه فقط لن تكوني حماةً تقليدية، لأنه.. لأنه غريب.

. غريب في ماذا يا بنت..؟

. غريب يا أمي.. غريب صديقك..!

مسحت على عجل أمطاراً حارّة اجتاحت تضاريسها، حاولت مُداراتها بضحكةٍ مذعورة..!

. غريب.. غريب بذاته..؟

. نعم يا أمي ما بك ألم يُفرحك الخبر..؟

بصوتٍ مخنوقٍ أجابتها:

. أفرحني.. نعم أفرحني أكثر مما تتصوّرين.. قتلني من الفرح..! أتحبينه يا رؤيا..؟

. أحبه.. أحبه أكثر من نفسي.. أتصدّقين يا أمي..؟ أن رؤيا تحب أحداً أكثر مما تحب ذاتها..؟ رؤيا التي تعشق نفسها، والتي تقولين عنها نرجسية.. تحبّ بهذا الشكل..؟

. وهو.. أ.. يُ.. حـ.. بّـ.. كِ..؟؟

. يحبني..؟ لماذا تستهينين بي أمّاه..؟ قولي: أيعبدك..؟ أم تظنين أن ابنتك غبية لتقع في شرَك حب من طرفٍ واحد..؟ لا.. لا.. يا أم رؤيا.. لم أستسلم لحبه، حتى طار صوابه وهو يُلاحقني، ويُحاصرني.. ويستعرض أمام قلعتي، كل ما تعلّمه الرجال عبر التاريخ من فنون الصيد..!

تبتلع ظلال حمماً تشوي عروقها.. ومن جمر شفتيها تفرّ فراخٌ داهمت عشّها نيرانٌ مباغته:

. هل صرّح لك بحبه، أم أنها مجرّد توقّعات..؟

. ما بك أماه..؟ أقول لك يحبني، يعشقني.. وتسألين: هل صرّح..؟ نعم صرّح..

صرّح يا ظلال، ارتحتِ الآن..؟

. نعم ارتحت.. ارتحتُ كثيراً..

وغمغمت لنفسها:

. (ارتحت راحة مطعون، سُحبت السكين من جرحه..!)

وغابت عيناها فيما كان.. أحرقت خلايا ذاكرتها تلك الصور الحيّة، التي باتت الآن في خانة الذكريات والخيانات.

ويلي.. من عمري التعس.. هل سأبقى دائماً على حافة الهاوية..؟! لم أجد نفسي يوماً في مأمنٍ منها.. وربما لا أستطيع العيش إلا على شفيرها.. لا أستطيع أن أكون على بُعد مسافةٍ منها.. أتراها اللهب، وأنا الفراشة الهائمة..؟ أم هي نبتةٌ وحشية مفترسة، تأسر ضالتها بعبيرها، وسحر ألوانها، فأراني أحوم حولها، حتى أقع عليها..! لكنْ.. أتراها تُبقي على روحي حيّةً..؟ أم أن هاويتي اليوم أشرس من كل ما رأيت..؟ غريب.. هل أنت آخر مصائبي وأكبرها..؟! كيف استطعت أن تفعل بي كل هذا..؟ كيف طاوعك قلبك أن تطعن قلبي بابنتي..؟ صنعتَ مديتك من أضلعي، وغرستها في النقطة الأوجع..!

كنتُ خائفةً على الدوام من يومٍ كهذا، قلتُ لك مراراً:

. لا تقترب منها، لا تستعرض أمامها ما يُغريها بك، وكنتَ تقول لي:

. اطمئني حبيبتي.. لن أسمح لها بالاقتراب من حدودي، وإن أحسستُ بانجذابها نحوي، فلن أحتاج أكثر من كلمتين.. كلمتين فقط يُعيدانها إلى خط الأمان، يبنيان بيني وبينها جبالاً، لا مجال لتجاوزها..

لم أخفْ منكَ يوماً، فخوفي كان منها، من انجرافها إليك.. كلماتك منذ بداية علاقتنا، زرعت في أمداء عمري أعلام السلام:

من راح يحمل في جوانحه الضحى هانت عليه أشعة المصباح

وتضحك بزهوٍ كلما وخزتْك رائحة الارتياب في نظراتي، فتسيل كلماتك مُبلسمةً عروقي:

. رحمة الله عليك يا بدوي الجبل.. فما قلتَه يعبّر عنّي..! لا يهمّني قصدك الحقيقي..

فما وصلني أن ظلالي هي الضحى، وأمامها تخفتُ كل الأضواء، وتضيع..!

. آهٍ يا غريب.. أكان ذلك تجديفاً..؟ تُرى منْ منكما بدأ بنسج خيوطه للإيقاع بالآخر..؟ أتُراك تحبها حقاً، أم أنك تخدعها، تخونها معي، وتخونني معها..؟! لهفي عليك يا بنتي..!

ما أقسى ما أنت فيه، لو علمتِ.. لكن.. لا.. لا.. لن تعلمي يوماً بأنك ضرّة أمك.. لن أجرح طفولتك بما أعلم.. وحسبي من الموت أن أُذبح، ولا تُخدشي..! قلبي يتمزّق فرقاً عليك.. لكن.. كيف سأقنعك بالابتعاد عنه، وأنا أرى ما أرى من حبك له، ماذا أقول لك، وأي شرخٍ سأبني بينكما..؟! وإن سوّدتُ وجههُ في عينيك، وغضضتُ من شأنه، ألن تقولي لي:

. كيف تقبلين رجلاً كهذا صديقاً لكِ..؟

الحيرة تأكلني.. ماذا عساي أفعل، وكيف أتخلّص مما أنا فيه..؟

وأنت غريب ما عذرك..؟ ألديك عذر..؟ ما عساك تقول لو سألتك..؟

أتراك تستطيع مواجهتي..؟!

تفيض دموعها، لتُغرق أوراقاً، كانت تهذي بين سطورها.. وتقذف على صدرها وجعاً لا ترى لروحها منه بُرءاً..! تُلملم الأشلاء، تصنع منها تمثالاً لقلبها المشروخ، تلوّنه بلون حبٍ طعين.. وتغرق في بحورٍ من دماءِ أجنّتها المُجهضين..

قطع

يتململ غريب وراء طاولته.. وهو يحاول أن يكتب شيئاً في المسلسل الذي يعمل عليه، لكن رائحة الألوان تشدّه، وشبقٌ عارمٌ للرسم يملأ كيانه.. يجرفه ليلتحم باللوحة، ويذوب مع ألوانها.. يسري في دمها..! وكأنها عشيقةٌ تناديه.. فيترك طاولة الكتابة، ويهرع إلى القماشة البيضاء، يقف أمامها، يغمس ريشته باللون الأحمر، ويرسم خطوطاً تتشابك وتتفرّع، ثم تلتقي في نقطةٍ واحدة، وهو يقول:

. هذه هي (المسكينة) الرّمادية، التي لا تنتمي..! ينتبه إلى الريشة التي خرجت عن طاعته، وعصَتْ روحه.. وإلى ألوانه العاقّة ترسم مالا يعي..! فيحسّ أنه يُنجب أجنّةً لا ينتمون له..! ينبتون من دمه.. غير أنهم أبناء حرام..! يجنّ الغضب في رؤوس أصابعه، فيرشق وجه لوحته بمزيجٍ من الألوان، ويصرخ:

. خذي يا خائنة.. اشربي كل هذه الأصباغ الكاذبة.. واشتعلي مثلي.. اشتعلي.. فأصابعي تتلظّى.. تحترق..

يرمي الريشة من يده، وقد بدأت تذوب، وتسيل قطراتها على الأرض الحاسرة.. لتحفر ندوباً على وجهها.. ابتعد عن اللوحة خائفاً من ظلال نيرانٍ، تتلامح بين خطوطها.. وعاد يقرأ في رواية حبيبته.

_ ٣٩ _

بلاهة البياض تلفّها، وعالمٌ مشحونٌ بالفراغ، يُطبق على صدرها.. يخنق في داخلها نبض اليمام.. وهي تتقلّب على سريرها، إثر خلوّ دمها من المهدّئات التي حُقنت بها، تفتح عينيها بتكاسل، تُفزعها وحدتها، إذ تكتشف أنها في المشفى.. فتصرخ وجلةً:

. لماذا أنا هنا.. ما الذي حدث... ولماذا أنا وحيدة..؟ رؤيا.. رباه.. رؤيا ليست معي..؟ أتكون..؟

يُرعبها خاطرٌ مرقَ في مخيّلتها..!

(أتكونين معه..؟ منذ متى وأنا هنا..؟ رؤيا.. هل أنت معه الآن..؟ رميتني هنا لتتمرّغي في أحضانه..؟! وأنت غريب أتراك تعرف ما حلّ بي، وتتركني..؟ أتعرف أنك عارٍ أمامي الآن..؟ ما أبشع عريك، وما أغربه..! إنه يسوطني.. يقتل فيّ الأنثى التي أوقدت في كهوفك شعلة الحياة.. أوقدت النار التي تدفئك مقروراً، وتنير دربك تائهاً.. ألم أكن الماء الذي حمل مراكب حضورك، حين أطلتَ الغياب عن روحك، وقطع الثلج تتراقص في كؤوسك، كيما يحرقك لهيبها..! ألست أنا من تلقّفتك من رحم أمك، وغسلت عينيك برحيق الحياة.. ألستُ من هدهدها حتى غفت بعدما لفظك رحمها..؟ غريب.. أنا من قطعتُ حبل السرّة بينك وبين الموت، وأنا القادرة على إعادة وصله..! كيف نسيت ذلك، وتجرّأت عليّ، كيف لعبت بأحجار قلعتي..؟! أتغتال الملك بأيدي جنوده أيها الـ..؟!).

تتناول الهاتف، وتطلبه:

. غريب تعال إليّ حالاً.. أنا في المشفى..

بتثاقلٍ أجابها:

. الآن..؟ ألا تعرفين كم الساعة..؟ إنها الثالثة صباحاً..

انكمشت على نفسها مخزيةً، فهو لم يسألها لماذا المشفى، وأيّ مشفى...؟ لم يُفاجأ.. لم يختلج صوته، ولا لفحتها حرارة خوفه، ولا هزّها قلقه..

أغلق الخطّ، ودفن رأسهُ في عري ليلى.. التي تقلّبتْ مُتململةً من مكالمةٍ، تأتيه في مثل هذا الوقت، فتشغله عنها..

. ما بكِ حبيبتي..؟

تُخاطبها قبلاتهُ في محاولةٍ لطرد سحابة الغيرة التي رفرفت في فضائها.. تحاول أن تقول شيئاً، لكن شفتيه تمصّان حليب كلماتها.. يهمد غضبها، يجنّ في عروقها الوصال.. يفحّ صوته:

. آآآهٍ ما أشهاكِ يا ليلى آآآه..!

وتعبق في المكان رائحة التراب إثر هطول المطر.. يجلس على سرير شهوته، يُشعل سيكارةً، يسحب منها نفساً عميقاً، ويفكر:

. كم هو غبيّ منْ قال: (عندما تُطفأ الأضواء فكلّ النساء سواء..) النسوان مثل الفواكه كل واحدة بلون وطعم ورائحة..! ولا تُغني الواحدة عن الثانية أبداً..!

وتمرّ في خاطره صورة صديقه إحسان، يسمع ضحكاته، يراها تتدفّق موجةً إثر موجة.. عندما كان يُعاتبه على علاقاته النسائية الكثيرة، ويُذكّره بعذاب يوم الدين، إن هو استمرّ في هذه الطريق.. يراه يُعدّل جلسته، ويتوقف لحظاتٍ عن الضحك، ليقول له:

. اسمع غريب.. لو كان الخالق يريد لذكَرك ألا يفتح إلا قفلاً واحداً، لصمّمهُ على شاكلة مفتاح

بيتك، بنتوءاتٍ ومُسنّناتٍ تمنعه من ولوج أيّ قفلٍ، إلا ما هو مخصّصٌ له..! لكنه صمّمه بطريقةٍ فنيّة، تُعطيه حرية التجوّل أينما شاء.. وتمنحه القدرة على ولوج جميع الأبواب..! وممارسة دوره البطوليّ في كلّ الحصون..!

يُقهقه جذلاً ويقول:

. صدقتَ يا إحسان.. يا صديقي الجميل.. وجزاك الله عنّي كلّ خير..!

لم تستطع ظلال أن تبكي خيبتها.. جرحَتْها لامبالاته، وهي لا تعلم أنه يتقلّب في أحضان ليلاهُ.. بينما هي تتقلّب في أحضان مرضها..! ضجّ الضحك في عروقها.. ضحكتْ ملء حزنها.. قهراً.. دماً..! موجةً إثر موجة.. ودفقةً لاهبةً إثر أخرى.. حتى استهلكت ما تبقّى من قوة تحمّلها.. لكنه النوم لم يجرؤ على الاقتراب من جفنيها، ولا من قلبها تلك الليلة.. عاودت مكالمته عند الصباح:

. غريب أنا في مشفى الرحمة تعال إليّ.

بعد ساعتين كان عندها، يجلس على حافّة السرير، وعيناه تنزّان ألماً.. أدرك بحدسه الحاضر على الدوام، أن القضية أكبر من وعكةٍ صحية.. حاولت يدهُ أن تُروّح عنها، وتُخفّف من حدّة الموقف الذي بات مكشوفاً..

قال بعدما أذعنت أصابعه مُنكفئةً، ولاذت بجليدها:

. ما الأمر حبيبتي، ماذا حدث لكِ..؟

سدّدت نظراتها إلى عينيه، ورمت في وجهه سؤالها اللاهب بصورةٍ جدّ مباشرة:

. غريب لماذا رؤيا..؟

صدمته المفاجأة.. فلم يستطع أن يواري ارتباكه.. فسؤالها كان سهمَ خبيرٍ، رمته يد حاذق.. فأنّى له أن يُداري سقوطه..؟

فُضح أمري إذاً.. همس لنفسه.. فلأقلْ كلّ شيء، فإن لم تأسرها صراحتي، وتسامحني، لابد أنها ستقتلها.. والنتيجة واحدة في الحالتين بالنسبة لي..

. لم أستطع مقاومة جنون شبابها، ولا فورة الأنوثة الطافحة من كيانها.. حاولتُ الابتعاد.. لكني هُزمتُ، جيوشها مُسلّحة بما لم أستطع معه صبراً.. فسقطت حصوني أمام طغيان جمالها.. كانت زليخة، وأنا لستُ يوسف..!

بحارٌ مسمومةٌ تجتاح روحها، تخنق أوصالها.. تكاد تتمزّق، تحاول أن تصرخ، يتكسّر صوتها على أمواج السموم.. تغمغم كلماتٍ غير مترابطة.. وتخبو كموقدٍ قديم..! يحاول إيقاظها بصوته، بأصابعه وفمه، لكنّ جميع وسائله عجزت عن إعادة الحياة إليها..! كاد قلبه يتوقف هلعاً، فهو لم يشعر في حياته بالخوف كما يشعر الآن..! خوفٌ من نوعٍ جديد نبت بين جوانحه..! وشعورٌ بالخزي يطلي وجهه.. لم يكن يتوقع أنها تعيش هناك في خافيته.. بكلّ هذه القوة..! الآن فقط

أدرك ذلك..! عندما اقترب جنود الموت من المساحة البيضاء التي تسكنها ظلال داخله..!
. لا.. يصرخ بصوتٍ يشقّ الفضاءات: لا تموتي ظلال.. لا تخنقي في روحي عشق الحياة.. عودي إليّ فأنت الحبيبة.. أنت وحدك الحبيبة.. الآن فقط أدركتُ ذلك.. أقسم إنك أنت.. أنتِ..
وينهمر على سريرها، يهزّها بقوة، ينتحب كما لم يفعل من قبل.. يدخل الطبيب، يفحصها، يقيس نبضها، يحقنها على عجلٍ بحقنةٍ مُهدّئة، تُعلّق لها الممرضة (سيروماً) تحقنه بنوعين من الأدوية، يمسح الطبيب على رأس غريب بأصابع أبوية:
. لا عليك يا ولدي ستتحسّن حالتها عما قريب بإذن الله، اتركها الآن لترتاح، وعد إليها في وقتٍ آخر.
ينحني عليها، يتنشّق عبير عنقها.. يلثم جبينها، ويغادر.

ـ ٤٠ ـ

غريب.. ماذا فعلتَ بنفسك يا (الغريب)..؟! ها أنت تهيم على وجهك في الشوارع..
تائهاً في زحمة الفراغ..! ضائعاً في أتون العبث..! كأنّ إهابك من الموت قُدّ..! أو كأنما منافذ الحياة في كيانك اختارت أن تغضّ الطّرف، وتُغمض أجفانها عن واقعٍ ما عادت تريده، ولا تستسيغه، تمشي بك الطرقات، تعبرك الأسواق، تعرض مفاتنها الأضواء.. وأنت لستَ هنا..! لستَ في أيّ مكان.. أكان يجب أن يُهدّدك القدر بخسارتها حتى تُحسّ بقيمتها..؟ أكان يجب أن يُلوّح بسوطه أمام وجهك لتفيق، وتبحث لك عن موطئ قدم، وتسأل:
(إلى متى..؟ بل إلى أين يا غريب..؟! أيها الغريبُ عني..! لم يخطر في بالي يوماً أن أسألك عن علّة أيٍّ من تصرّفاتك.. لم أستوقفك في ساعة صحو، وأستفتيك فيما مضى، وفيما سيأتي من أيام.. لم أقف معك وجهاً لوجه، وأحاكم أفعالك، ولا حتى أقوالك منذ زمنٍ بعيد.. مذ غادرتُ طفولتي، وخلعتُ مالك عن عرش أبوّته لي.. خلعتُه..؟! هل أنا من خلعه، أم هو من نسيني من زمنٍ طويل..؟ مالك.. لماذا فعلتَ بي ما فعلت..؟ أنا ابن ظبية حبيبتك، التي لم تعشق سواها . رغم تقلّب عشرات النساء في حجرك . ألستُ سليل الحب المتحدّي، فكيف استطعتَ أن تُضيّعني..؟ تابعتَ مسيرة والدك الميمونة، وبعتَ ما عجز عن بيعه من الأراضي
. لا توبةً واحتساباً . بل لأن الموت سبقه، قبل أن يقضي على كل ما يملك، لكنه ترك وراءه من يُكمل مسيرته.. بدّدتَ كلّ شيء، صرفتهُ على النساء.. نسائك العابثات.. فلا أنت أحببتَ أيّاً منهنّ، ولا هامت بك أية امرأة.. سمعتك مراراً تبكي آخر الليل، وقد ذهبت الخمرة بلبّك.. تبكي حظك الذي رماك في أحضان نسوةٍ، لا يُقدّرن من الرجل إلا جيوبه..! سمعتُك تشتم جدّي عساف الذي وضعك على بداية سكّة الانحدار.. هو من عبّد أمامك طريق الانهيار، والاستهانة

بالأرض.. هو من أراد أن يحرمك حبك.. لاعتباراتٍ مجنونة.. كم مرةً حمّلتَهُ مسؤولية موت ظبيتك.. أمي التي لم أرها.. أمي التي قتلها الفقر والخوف.. قبل أن يقتلها هجوم رجاله عليك وعليها، لمْتَ والدك الميت طويلاً على قتلِ حبيبتك، ودفعِكَ لإنكار كل ما يُقدّسه جيلهُ..! وقد ربّيتني على ذلك.. أسميتني غريباً.. وتعوّدتُ معك أن أكون غريباً..!

لا أحبّ شيئاً، ولا أكره شيئاً..! علاقتي بالحياة مرهونةٌ بمعاكستي للآخرين.. أفعل ما يكرهون.. وأنفر مما يحبون..! يكفي أن يحترموا أمراً لأزدريه، وأن يحتقروا آخر لأشدّ رحالي إليه..! لم يكن للحب بعد ظبية مكانٌ عندك.. فكلّ امرأةٍ ترمش لك، تصبح مشروع وجبة، تدفع ثمنها من روحك، التي تسفحها عند قدميها.. ثم تعود مخموراً.. تبصق عليها وعلى نفسك، وعلى والدك الحاج..!

مالك.. لم أحقد عليك في تلك الأيام، رغم شبح الجوع الذي كان يُحاصرنا.. بعتَ كلّ شيء، وما عدتَ قادراً على العمل.. استنفذت طاقتك حتى آخر شهقة لذة..! وأنا أشدّ على بطني حجراً، لتخفيف إحساسي بالجوع.. لم أحقد عليك.. بكيتُ معك دون أن تُحسّ بي في لياليك الدّامعات..! وعندما تُقرقر معدتي، وتصرخ طالبةً لقمةً هانئة، أشدّ الحزام أكثر، وأزجرها:

(إنها أملاكه وهو حرّ بها، ثم هي ليست إلا مالاً حراماً، فلتذهب إلى الجحيم.. ووالدي حُرم طويلاً، وهو يُعوّض الآن ما فاته في شبابه، فلا تُحرّضيني عليه..) وتعوّدتْ معدتي على الاستكانة.. حتى صار يملؤها كوبٌ من الماء..!

أما اليوم.. اليوم فقط.. أحسستُ بجريمتك.. أنت يا أبي لم تصنع مني رجلاً.. أنا كائنٌ نهمٌ متعطّشٌ لكل شيء..! لا تُشبعني كلّ نساء الأرض، ولا كلّ خيراتها.. أعتذر إليك يا مالك، فحتى المومس تدّعي أنها من سلالةٍ طاهرة..! أما أنا فلا أستطيع، لا أستطيع..!

(لقد ذُلّ من بالتْ عليه الثعالب) وأنا بالتْ عليّ كلّ ثعالب القرون الغابرة..! فغدت نفسي هلاميّة، لا الله يسكنها ولا الشيطان..! مالك.. أنت لم تُنجب إنساناً.. فأنا الجوع مُجسّداً.. أنا الجوع يمشي على قدمين.. وحشٌ تجلده اللقمة في فم غيره، فيستدمي لاقتناصها..! لكنه وحشٌ ضعيف، لا يُتقن استخدام النبيل من الأسلحة والوسائل، فيصنع ترياقاً مُراوغاً من ريقه الذي يتقاطر شهوةً، يسقيه لفريسته فيوقعها في فخ الموت، وتُسلم نفسها له راضيةً..! هذا أنا يا أبتي.. فانظر ماذا تُراك صنعت.. وماذا صنع والدك من قبلك..؟

أتراه جدّي الحاج عساف كان يعرف (مكيافيلي) ومقولته الشهيرة:(الغاية تُبرّر الوسيلة)..؟ لابدّ أنه يعرفه، وربما هو منْ أوحى له بكتاب (الأمير) صاحب النصائح الذهبيّة لكلّ ذي سلطة لتوسيع سلطته والاحتفاظ بها، ولابدّ أنه هو من أرشده إلى تلك النصيحة، الذي تُرصّع صدر كتابه، والتي تدعو الأمير، أيّ أميرٍ أن يتخلّى عن دينه، إذا تعارض مع مصلحته في دوام حكمه..! وهذا ما دفع عُتاة التاريخ وجلّاديه لتقديس ذلك الكتاب، ووضعه تعويذةً تحت

وسائدهم..! أبي.. أتراك حملتَ في دمائك روح ذاك الكتاب، الذي أظنّ أن لجدّي وأمثاله فضلٌ في تأليفه، كما يكون لملهمة الشاعر فضلٌ في إبداع قصائده..! ثم انتقل إليّ بالوراثة..؟!
آهٍ لو تعلم ماذا فعلتُ، وكيف هي حياتي..؟ لو تعلم أية امرأةٍ ذبحت، وأيّ سلاحٍ استخدمتُ..؟!
عذراً يا أبي فقد تفوّقتُ عليك، وعلى جدّي..! وما كنتُ أرغب بذلك، فاعذراني.. تلميذٌ غرّ أنا.. لكنه هزم معلميه الكبار..!).
ويبكي، يبكي طفلاً حمله داخله، من ضيعته البعيدة إلى العاصمة.. لكن طفله كان هزيلاً.. مريضاً.. طفله كان مأزوماً، يحمل في كل خليةٍ منه بذور موته..! يُناديه، يُنادي طفلهُ المشوّه بصوتٍ مبحوحٍ جريح:
. غريب.. أما زلتَ هنا..؟ أرجوك لا تمت.. فأنا أحتاجك لأبقى إنساناً.. لا تمت صغيري فأنا دونك مزرعة يباب..! لا تغادر.. لا.. لا تغادر.. عساها تسامحني ظلال..

قطع

لعينيكِ ظلالي أعمل على مشروع (الدراما).. أعمل ليبقى غريب إنساناً..! غير أنّي مشتاقٌ لإتمام لوحتي.. بي توقٌ للارتماء في حضنها.. علّ ألوانها تخفي ندوبي.. تُطهّرني..! فأعود إليكِ، إلى روايتك، بقوّةِ أنثى تواصلت مع حبيبها بعد طول احتراق..!
يمسك الفرشاة، يمرّرها على وجه لوحته، تمشي فرشاته، تمشي، لا بل ترقص، تطير.. تُحلّق.. حتى يُفرّغ جنون شحناته في رحم اللوحة البيضاء..! يجلس أمامها، يتملّى وجهَ حبيبةٍ، كان غبارَ طلعِها منذ لحظات..! فإذا به يكتشف أن ريشته كانت عاقراً..! وأنّه نسي أن يغمسها بالألوان.. أن يملأ عروقها بالحبر السرّي..! كلّله الخزي، وأحسّ أنّه صلبَ حبيبته أمامه، بكلّ أشواقها، ولهفتها لحبره ودمه، وجلس يُمارس العادة السرّية أمامها..! على مرأى احتراقها..! ترك اللوحة الجريحة مخزيّاً، وعاد إلى رواية ظلال، وهو يقول:
. سأكتب، أجل سأكتب لأجل حبيبتي، هي تُريدني أن أحوّل روايتها مسلسلاً تلفزيونياً،
وأنا لن أخيّب أملها..!
يقرأ فصلاً كتبتْهُ ظلال عن جده، ويبدأ بالعمل عليه، يُفاجئهُ شبحهُ يرشح من الجدار المقابل، فيمزّق الورقة، ويرميها في وجهه، وهو يقول:
. اذكر الـ.. ويصمت مرتجفاً..
فيُقاطعه عساف:
. تريد أن تقول: (اذكر العفريت يطلع لك..) حسناً يا ولد.. أنا أحذّرك، وأنصحك ألا تذكر اسمي

أبداً في عملك التّافه هذا..

. ولكن يا جدي أنت أساس هذا العمل وعموده..

يجيبه ضاحكاً:

. أرأيت..؟ لأنكم فاشلون، تُعلّقون كل شيء على الماضي..!

. لا.. يا جدي.. ليس صحيحاً.. ولكن..

يقاطعه جده:

. لكن ماذا يا ولد..؟ لماذا تُصرّ على عقوقك لسلالتك..؟ اترك ما بيدك، وتعال إلى الرسم وأنا سأرشدك..

ينهض غريب متثاقلاً، يقترب من اللوحة التي تركها عذراء قبل قليل.. يُفاجأ بصورة جده عليها، وقد تضاعف حجمه حتى بدا كأنه يملأ الكون..! تمعّن غريب في اللوحة فزعاً.. فرأى صورة جده تتراجع لتصبح خلفيّةً لصورة قريةٍ عتيقة، بيوتها طينٌ ودروبها غبار..!

فيسأل جده مستغرباً:

. ما هذا يا جدي..؟ قلت إنك سترشدني لأرسم المسكينة..؟

. أجل يا ولد.. ها هي.. فقد رسمتَها، رسمتَ مسكينة الأمس.. (العنقاء).

. أتقول العنقاء..؟! أين هي هذه العنقاء..؟! فأنا لم أرَ إلا غباراً.. بيوت غبار، سماء غبار، جدران غبار، حتى الأسماء غبار..!

. هذا الغبار الذي لا يُعجبك، هو الذي خدمني يوم جئتُها لا أملك شيئاً.. افترشتُ إحدى زواياها المُهملة، وبعد أعوامٍ صرتُ سيّدها..!

. لا أصدّق أن هذه القرية البائسة التي تفخر بسيادتك عليها هي العنقاء..؟!

يردّ عساف بثقة:

. نعم كانت عنقاء..! بأهلها.. عنقاء بما يحتويه جوفها من كنوز..! حتى جئتُها، فقلبْتُ عاليها سافلها..

ويسترسل عساف بتبجحه وزهوه..! ولم ينتبه إلى أصابع غريب القابضة بقوّةٍ على مكشط الرسم، وهو يُقرّبه شيئاً فشيئاً من اللوحة، التي تظهر عليها صورة جده، ويطعنها، وهو يصرخ:

. خذ يا عساف، خذها مني.. فأنا ابن العنقاء السّبيّة..!

وما أن يُلامس سلاحه الغاضب جسد اللوحة، حتى يرتعد، وترقص فرائصه على تردّدات قهقهات عساف الشامتة.. فيتهالك على كرسيه مأخوذاً..

ـ ٤١ ـ

صوت مالك يملأ كيانها.. يوقظها من غفلات الليل والنهار.. تسمعه يناجيها:
. شهلا يا نعناع روحي.. ويا طينها.. أراكِ تُحوّمين في سمائي غيماً أخضر..! يُمطرني نظراتٍ عاشقة..! شهلا افتحي لي بابك.. لأراكِ لحظةً قبل الرّحيل..!
. اذهب.. فما عادت الروح تُصدّقك.. تقول، وهي تفتح الباب للفراغ..!
لم يكن هناك إلا العتمة، وحلمها.. حلمها المعتاد بعودة الحبيب..

ـ ٤٢ ـ

لم ينم غريب هذه الليلة أيضاً، كان يتقلّب على فراشه، والسّهاد رفيقٌ لا يَملّ.. لم يُطالعه طيف جدّه كعادته في لياليه الطويلة..! بل كان طيف ظلال، ممتزجاً بأطياف (المسكينة).. هو الذي يتملّك لبّه..! والشوقُ جمرةٌ تحرق هشيم الرّوح.. أو دودة تقرض أوراق القلب.. يُناجي (المسكينة) بخشوع زاهدٍ متعبّد:
. عائدٌ أنا إليكِ يا ضيعتي.. يا ظلالي.. عائد.. وستلدُ سماؤكِ شمسها اليوم على يديّ..!
بدّل ثيابه على عجل.. إنه الهزيع الأخير من الليل.. المدينة خالية إلا من شوارعها، وبعض السُكارى.. سيارات أجرةٍ قليلة مرّت مسرعةً، لماذا لا تتوقف..؟ سأل غريب نفسه، وأجابها:
. لابدّ أنهم لا يعرفون الطريق إلى المسكينة..!
أخيراً زعقت أمامه مكابح سيارةٍ، وسأله سائقها:
. أنت ذاهبٌ إلى المسكينة..؟ اركب سأوصلك.
ومضت السيارة، تنهب الطريق والشوق والذكريات..! وحين بدتِ المسكينة بأضوائها في تهاويم الفجر الأغبش، كأنها جمرةٌ تتنفّس على حافة الأفق والقلب..! طلب غريب إلى السائق أن يتوقف، ثم نقده الأجر مُضاعفاً، ومضى نحو المسكينة.. لم يسمع السائق وهو يقول له:
. مازالت بعيدة، بعيدة جداً..
كذلك لم يكن يسمع وقع أقدامه على إسفلت الطريق الرطب.. عيناه مُعلّقتان (بالمسكينة)، وذراعاه مُشوحتان نحوها، كمن يهمّ بالعناق..! عناق حبيب عاد أخيراً من سفرٍ بعيد..!
لم يعرف إن كان يبكي، أو أنه يُريد أن يبكي..! مازالت (المسكينة) مستلقيةً على ذراع الفجر..! وآخر أضوائها شرعت بالذبول.. بينما بدأ رأس الشمس يبزغ من رحم الغيب.. لكن حبل السّرة مازال بينهما موصولاً.. كظلّ غريب الذي امتدّ أمامه طويلاً.. كأنه يُسابقه للوصول..! ملامح ضيعته تتضّح شيئاً فشيئاً.. وقصر جدّه عساف، يتوسّط بيوتها، ويجثم فوقها كوحشٍ أسطوريّ على أشلاء فريسة..! نبح كلبٌ فأجفل غريب، وجمدت خطواته.. تشنّجت أوصاله، ودموعه،

بينما سقط ذراعاه في فراغ التّلويح..! هزّ رأسه، كأنه يطرد هاجساً خبيثاً:
. كيف لم أتذكر أنك مازلتَ هنا أيها الشيطان..؟! وكأنك مُوكلٌ بقتل أفراحي يا عساف..!
أدار ظهره (لضيعته).. والدموع تترقرق في مآقيه.. مشى مبتعداً.. أحسّ أن عينيّ (المسكينة) تخترقان ظهره..! أسرعَ في مشيته، أسرعَ أكثر، أكثر.. حتى صارت مشيته ركضاً.. ولم يدرِ أبداً أن أشعة الشمس، التي وُلدتْ على يديّ رجوعه، قد جفّفت دموعه عن الإسفلت.. بعد أن رسمت فيها أقواس قزحٍ هاربة..

ـ ٤٣ ـ

الوقت الذي قضته ظلال في المشفى، أتاح لها مراجعة أحداثٍ كانت تراها تلخيصاً لأعمارٍ مضت.. نفقتْ كأيّ حيوانٍ لا تُضيف حياته على الحياة شيئاً.. أحداث مريرة تنتهك روحها، لكنها كانت تراها بعين العاشق، فيبدو وجهها أجمل، وغايتها أنبل، تمضي الساعات، وهي تُقلّب صفحات الذاكرة.. تقرأ سطورها جرحاً، جرحاً.. توقفتْ طويلاً عند ذلك اليوم الذي اتفقا فيه على لقاءٍ مبكّر خارج حدود الجدران الميتة.. قالت له:
. ما رأيك حبيبي أن نلتقي غداً مع الشروق في مقام الشيخ محي الدين، نقرأ له الفاتحة، ونستقبل معه يوماً جديداً، فأنا أعرف كم تُجلّ ذاك الشيخ، وتحترم فكره، وأدرك معنى أن تحظى بنفحة يومٍ جديد، وأنت تستظلّ عبير بخوره..
أدهشته فكرتها، فهو إضافةً لتوقه للاغتسال من أدران الحياة، في حضرة الشيخ محي الدين، يودّ التّمتّع بمشهد ولادة الشمس الذي يعشقه، رقص قلبه للفكرة، وطلب إليها أن توقظه قبل الموعد بساعة، فهو لم يعتد مغادرة فراشه باكراً.. طلبته قبل مغادرتها البيت، فحّ صوت هاتفه طويلاً، ولم يأتها الجواب، عاودت الاتصال، حتى تقطّعت أنفاسها مع انقطاع رنين الهاتف.. تركت كلّ شيء في مكانه، رمت من يدها ما هيّأته للرحلة، وانطلقت إليه، فتحت باب غرفته بالمفتاح الذي تحتفظ به، ودخلت، راعها أن تراه مستلقياً في فراشه، وغطاؤه السميك يرتجف على جسده.. انهمرت عليه بوجل:
. ما بك غريب..؟ أأنت مريض حبيبي..؟
. لستُ أدري.. قال صوته المتقطع..
لمست جبينه، لسعتها سخونته، ابتسمت بثقة طبيبٍ اكتشف حالة مريضه من اللمسة الأولى.. همست بحب:
. استدر حبيبي، الأمر بسيط، لا تخف..

وراحت يداها تُدلّكان ظهرهُ.

. آخ.. آخ.. إنك تقسين عليّ..!

. لا.. لا.. لا تخف أظن أني أتقن بعض الحركات، التي تنفع في مثل حالتك..

. وما هي حالتي دكتورة ظلال..؟!

. أتسخر مني غريب..؟

وتبتلع يدها دمعةً نفرت كظبيٍ مذعورٍ من مكمنه..

. لا.. لا.. حبيبتي.. أنا أمزح فقط، وأذكّرك على سبيل الدعابة، أنك تُبالغين في تأكيد فهمك لكلّ ما يعتريني.. حسناً سيدتي.. آمنّا أنك تفهمين النفوس، من خلال مطالعاتك النفسية، لكن الأمراض الجسدية، ألا تحتاج برأيك طبيباً..؟

. استدر، استدر جيداً لأكمل تدليك ظهرك، وأرحني قليلاً من تعليقاتك. وسترى بعد قليل نتائج ما فعلت..!

يرنّ هاتفه، تقتربُ منه لتناوله إياه، يسبقها إليه، ويُجيب بعباراتٍ مبتورة، وبلهجةٍ تحاول أن تجمع بين اللهفة واللامبالاة.. كأنه يُقدّم سكّرةً لمن تتكلم معه، وأخرى لتلك الجاثية عند قدميه.. لكن يبدو أن سكّرتهُ ضلّتْ طريقها، ضاعت في شِعاب صوته المرتبك.. فلم تصل إلى تلك البعيدة القريبة التي تحدّثه، فاحتدّت لهجتها، وارتفع منسوب (الفيرمون) في لهيب عتابها..! (الفيرمون) الذي تُفرزه أنثى العنكبوت، لجذب ذكرها.. اضطربتْ حركاته، فأزاح عنه اللحاف، رماه جانباً، غيّر جلسته، ورقّت كلماته لدرجةٍ أثارت شكوكها.. رغم ثقتها العمياء به يوم ذاك.. تململتْ قلقةٍ كأنها على الجمر تُغضي، ونفختْ بعض احتراقها.. أجفله لهيبها، سارع لاستدراك الموقف، الذي أوشك على الإفلات منه، اعتذر من تلك التي تُكلمه على الطرف الآخر، على أن يُتابعا الحديث في الوقت المناسب.. غير أنه لم يُنهِ المكالمة حتى أخذ منها وعداً بالرضا.. ثم ودون مقدّماتٍ عاوده المرض، اجتاحته رعدةٌ دفعته ليندسّ في فراشه، ويسحب من جديد غطاءه عليه.. وعاد جنود المرض يتسكعون سكارى على مساحة جسده.. وهو يتأوّه معلناً استسلامه لاجتياحهم، طالباً الرّحمة منهم ومن ظلال، التي أحسّتْ بالمهانة إذ أدركتْ أنها صغيرة في عينيه، ليتجرأ ويُمثّل عليها.. حاولت التّرفّع عن العتاب، وآثرت الإحجام عن كشف ما وصلها..! لكن الأنثى الجريحة داخلها، بكت رغماً عنها.. وقالت ما لا تحبّ قوله.. صرخ في وجهها بصوتٍ لا يتناسب مع مأساويّة ما يملؤها.. ولا مع اللهجة التي تُعاتبه بها الأنثى التي تسكنها، والتي باتت تكرهها الآن، لكثرة ما جرّتْ عليها، وصغّرتها..!

أجفلها صوته الآمر:

. كفى يا ظلال، كفى أهذا وقته، ألا ترين ما أنا فيه..؟ أم أن أنانيتك وظنونك منعاك من العناية بي..؟ كلّ النساء سواء.. كلّكنّ حواء، وإن تبدّلت الملابس والعطور..!

أخفى رأسه بيديه.. لم تُصدقه، ومازال الموضوع يضجّ في داخلها كلما تذكرته..! جلدتها عبارته الأخيرة طويلاً.. لكنها في تلك اللحظة بالذات، تجاهلت مشاعرها.. وزجرت تلك الأنثى الغبيّة التي تسكنها، وتحاول أن تقودها إلى الهاوية:

. (كفّي عن النّق، واصمتي قليلاً فهذا حبيبي، وعليّ أن أعتني به في صحوه ومطره..!).

وتُسرع إلى المطبخ، تغلي قدراً من الماء، تسكبه في وعاءٍ واسع، تُعدّله لتتحمّله قدماه، تُضيف له الملح، دون أن تدري علّة ذلك..! لكنها تتذكّر أن أمها طالما فعلت ذلك مع أبيها، وكان والدها يرتاح، وينام بعد أن يلثم يدي والدتها راضياً مُمتنّاً..

تغسل قدميه بالماء والملح، تدلكهما بقوة، لتطرد السموم، والبرد المزمن من عظامه، تُنشّفهما، تُساعده ليستلقي، وتلفّ الغطاء عليه، كيلا تترك منفذاً يدخل منه شبح البرد إلى جسده، يملؤها شعورٌ بالراحة، وتعبر ذاكرتها طفولة رؤيا، تنام بعمقِ حلمٍ لمْ يُولد..! وهي تتنشّق شذاها.. وتُدخل أصابعها ثنايا غطائها تحت الفراش.

أعود إليك غريب، وأسأل نفسي: أيكون حبّي لك كحبّي لها..؟! فوحدها رؤيا تملكني في كل ما تفعل، وأزقزق لها راضيةً.. أحاول توجيهها، لكني سرعان ما أصفح عن كل ما يبدر منها.. وهذا ما أفعله معك.! ما معنى ذلك..؟ أيكون عطر الحب واحداً، ولو تنوّعت أصوله ومصادره..؟! أدخل المطبخ، أغلي لك شراباً ساخناً، أحمله إليك، أجدك مستغرقاً في نومك، أضع الكوب في زاوية الغرفة، أغطيه، ألثم جبينك، وأغادر.

* * *

عدتُ إليك بعد ساعتين، وهتف قلبي قبل لساني:

. هل ارتحتَ حبيبي..؟

أجبتني:

. نعم.. قليلاً.. لم أشعر بك وأنت تغادرين، أين ذهبتِ..؟

. أحضرتُ لك الطعام، ألستَ جائعاً..؟

سكبتُ ما أحضرته في أطباق مناسبة، وقدمته لك:

. تعال حبيبي قبل أن يبرد.

وجلستُ أمامك، أراقبك وأنت تأكل بشهيةٍ ملأتْني فرحاً.. انتبهتَ بعد قليلٍ أني لا أشاركك الطعام، فقلت:

. لماذا لا تأكلين حبيبتي..؟

ضحكتُ بحبّ، وأجبتك:

. كلْ أنت حبيبي، لا عليك منّي فهذا لك..

كنتُ جائعةً ربما أكثر منك، لكن قلبي لم يُطاوعني.. لم أستطع مشاركتك طعامك، فسعادتي بك

كانت تكفيني، وتكمّ نداء الجوع عندي.. لكنّ سعادتي لم تكتمل، عاودك التعب بعد الطعام، وأنينك دقّ في عظامي مسامير الهلع..!

. ما بك غريب.. بماذا تحسّ..؟ سألتُكَ.

أشرتَ إلى معدتك ورأسك، أردتُ إحضار الطبيب، لكنك رجوتني ألا أتركك وحدك.. وكأنك طفلٌ يخاف العتمة:

. لا تتركيني ظلال.. ها أنا بدأتُ أتحسّن.. يبدو أنني أكلتُ بنهم..

. حاول أن تنام حبيبي، أغمض عينيك، وارمِ وراءك العالم بأكمله.. إلا أنا..

وضحكنا معاً..

. أجل إلا أنتِ..

ورمقتْني عيناك بنظرةٍ وصلت أشعتها إلى عظامي.. أشعلتْ فيّ ما كنتُ أفكر فيه، دون أن أجرؤ على البوح به..! اقتربتُ منك أكثر، استلقيت قربك، تحت لحافك، التصق جسدي بك.. ارتعدت أوصالي، اشتعلتُ لهفةً.. شفتاي جمرتان، أو نجمتان لا أملك من أمرهما شيئاً.. سافرتا في كل اتجاه.. ويداي تفكّان أزرار الشّوق.. بينما تتدحرج أنفاسي على بيادر صدرك.. لتوقظ بلهيبها سنابلك الثرّة..!

ساهمةً كنتُ ومأخوذة برائحة السنابل، تنضج على نار شهوتي.. ولهيب اشتياقي..! عندما دفعْتَني.. أبعدتني بقسوةِ جزّار، أتقن تجريد اللحم عن العظم..! ركدتْ أنهار دمائي.. وتلك المسامات المزروعة على مساحة جسدي، والتي كانت منذ لحظاتٍ تُزغرد فرحاً، بمطرٍ مُشتهى، زمّت أفواهها، وانكمشت خيبةً..! ما فعلتَهُ كان يفي بالغرض..! فما من حاجةٍ بك للكلام، غير أنك آثرتَ أن تُجهز على جراحي:

. لا أدري كيف تُفكرين، ألا ترين أني مريض..؟ كيف تشغلك متعتك عن آلامي أيتها العاشقة..؟!

. متعتي..؟ عاشقة..؟ أتسخر مني..؟ ألستَ واثقاً من حبّي..! كيف استطعتَ أن تُصغّرني.. وتُحوّلني إلى مجرّد امرأةٍ عابثة تتصيّد المتعة..؟!

وبكيتُ.. بكيت في ذاك اليوم، أكثر من أيّ يومٍ مضى.. بكيتُ دماً بلا لون..!

حاولتَ التّخفيف عني، قلتَ بدماثةٍ مصطنعة:

. اعذريني ظلال، فأنا مُتعب، والمرض كما تعرفين، يُضني الجسد والروح معاً.. أرجوكِ اتركيني الآن، فأنا لا أعرف ما أقول..

تركتُك يومئذٍ.. وجثّة (كونسويلو) بطلة إيزابيل الليندي تجثم على صدري..! قتلتَها بيديك.. خنقتها.. مع أنها كانت تعيش في داخلي منذ أمدٍ بعيد..! عذراً إيزابيل.. كانت بطلتكِ تعيش معي.. وما فعلتْهُ مع المزارع الهندي الملسوع، كنتُ سأفعله مع غريب.. أردتُ أن أداويه بالحب،

وأعيد له التّوازن، كما أعادت بطلتكِ الحياة للهنديّ، الذي منحها فرصة العطاء انتصاراً للحياة..! لكني أُطرد الآن من مختبر الحياة خائبةً، خاويةً.. وجثّتي على كتفي.. جثّتي التي سأحملها طويلاً.. طويلاً..

حرّضتها تلك الذكريات الجريحة على الكتابة، وإفراغ أنين زفراتها في آذان أوراقٍ خرساء.. لا تُفشي سرّها، لرجلٍ باتت على يقينٍ أنه كان يخونها مع كلّ شهيقٍ وزفير، يتردّد في صدره..! نزفت روحها المُستباحة:

. أهذا سرّ جفافك، وهجرانك لي.. وأنا بين يديك إذاً..؟! كم حرمتني منك.. وغمرتني بحمحمةٍ لم تُنجب صهيلاً..!

وبدأت تردّدات حزنها تسيل على الورق:

(حين قلّ حليبك، وتقاعس جسدك عن الحبّ.. وبات إذ يُقابلني ينكمش خجلاً.. ذوتْ عروق الحياة فيّ.. ونشّزت حناجر البلابل في حدائقي.. والزغاريد، وتهاويل الأرواح الشّغوفة، تحوّلت بكاء طفلٍ قادم على أمٍ راحلة..!

لم تكن تزجرني في الصباحات، ولا تلفّ نفسك بعباءة العجز، عندما يذوي الضياء.. كانت لأثوابي في عينيك رائحة البراري.. ولصوتي تردّدات فرس شَموسٍ، تصهل مُشاكسةً بلادة الغيوم في سماء مدينتنا..! قلتَ لي يوماً:

. صهيلك يصعق تلال الغيوم العقيمة، يُخصبها.. يُوقظ فيها شوقاً قديماً للولادة.. فيفيض عطاؤها دفّاقاً ليغسل الجبال.. صهيلكِ صلاة استسقاءٍ لا تُردّ..!

فأين صلاتي الآن..؟ هل صمّت الآلهة آذانها عنها..؟ أم أنه الموت قد زحفت جنوده على صدري، اجتاحني عسكره الهمجيّ، في عقر روحي..! تمرّغت جياده على بيادري، فما عاد قمحها يصلح للخبز ولا للبذار..! ولماذا عندما هرب رحيقك هرب معه كل شيء..؟ لماذا إذ رحل، أخذ معه جميع مفردات اللغة، وإيماءات الأعين، ورعشات الأجنحة..؟! كيف استطاعت حقائب سفرك أن تتسع لك..؟ أما كنتَ حبيبي.. فكيف إذاً رحلت..؟ والحبيب لا يُتقن الرّحيل، لا يُجيد الهروب..؟! لكنك غبتَ.. غاب كل ما فيك.. وكأن شخص الحبّ إذا اشتكى منه عضوٌ، تداعى له سائر الجسد بالرّحيل والغياب..! قلتُ لك فيما مضى: لم يكن لفمي يوماً طعم العسل، ولا لشفاهي رائحة البخور والقرنفل البرّي، حتى استباحني نحلكَ..! لكني لن أسألك اليوم عن نحلاتك، التي كانت تحمل إلى خمائلي غبار الطّلع.. لتُخصب الروح.. فغبار طلعك تذروه الريح، تحمله إلى مفاوز بعيدة..! والأردنّ الذي كان ينبع من روحك، ويصبّ في روحي.. ليُعمّدها.. بات سراباً..! ومزرابك وقد استطال عنقه، بات يصبّ في السواقي البعيدة.. فلن أسألك عن اغترابه.. ولن أذكّرك بشيء..)

مطر ذكرياتها، توقّف فجأةً عن الهطول.. لا لأن سماءها استهلكت ذخيرتها.. وفرّغت شحنتها،

فغدت مكفوفة العين والطرف واللسان.. لكنه دخولك عليها هو من وقف حائلاً دون تدفّقها..

وجدتَها مُبلّلةً برذاذ الخوف، وقد أينعتْ زهور الخيبة على ملامحها..! وقفتَ أمامها صامتاً، لكنه الصمت الذي يقول كل شيء.. أخبرها صمتُك أنك خسرت حريتك، إذ غادرتَ سجنها..! فريشتك أُجهضت، أسقطت أجنّتها.. وتثاءب في رحمها مسوخٌ لا يصلحون للحياة..!

غير أنها لم تعد قادرةً على تصديق صمتك..! أخفتْ في صدرها أوراقاً سوّدتْها بأوجاعها.. وهي تتأرجح على أمواجِ ما كان منك.. وقالت عيناها الحزينتان:

. لماذا عدتَ غريب..؟ هل من سهم آخر مازال حبيس كنانتك.. ويُطالبك بالإفراج عنه..؟

قلتَ خجلاً:

. جئتُ أعترف بذنبي، لعلّ اعترافي يمهّد طريق نقائي..

قالت:

. إذاً هناك سهام أخرى.. هاتها.. ولا تكن رحيماً بي، ولتكنْ سهامك العقاب الذي أستحق، على جرم البراءة، ورذيلة العشق..!

. لا يا ظلال.. هذه ليست قناعتك، فلا تُعاقبيني بما لا أحتمل، سأقول كل شيء..

لا إمعاناً في تعذيبك . كما قد يتبادر لذهنك . لكني أودّ أن أُعرّض ذاك الشطر العفن من حياتي للنور. نور عينيك أملاً بالشفاء:

. لم تكن علاقتي برؤيا بريئةً.. حاولتُ الهروب من جبروت الجسد، لكنه كان طاغياً..

فكيف أفرّ خارجه..؟!

. جسد..؟!

فحّ صوتها مستنكراً:

. غريب هل..؟

وغصّت.. لم تستطع أن تقولها.. ترمّد ريقها، جحظت روحها، نفرت من كل مساماتها أعينٌ مُترعةٌ بألف موتٍ وموت..! تلفّتتْ حولها بحثاً عن صاعقةٍ تُنزلها على رأسه، وقعت عيناها على إبريق الماء الزجاجيّ قربها، أرادت أن تمدّ يدها لتتناوله، حاولت رفعها، أعياها الفشل.. وجرحَها عجزها، ويقينها أنّ حيلها قد انهدّ، وقوتها تسرّبتْ مع حبّات العرق الباردة التي تخنق مساماتها..!

سدّدتْ إلى عينيه نظراتٍ ناريّة هزّته.. فقال مُبرّراً:

. إنه الشيطان.. زيّن لي الأمر، أغراني بلذةٍ ما حظيتُ بمثلها من قبل..!

قالت بصوت الألم، وبحّة الجرح:

. أيها السافل.. عرفت قبلها الكثير من النساء.. أنسيت..؟ هل أذكّركَ بأول امرأةٍ عاشرتَها..؟ أتراك نسيتَ والدة صديقك أحمد، التي ضاجعتها تحت درج بيتها..؟ ثم دخلت غرفة ابنها.. صديقك..! سهرتَ معه، وكأن شيئاً لم يكن..! وصارت تلك الوجبة عشاءك اليومي الذي يمدّكَ

بالطاقة، ويشحنك بالقوة، لمتابعة الدراسة..! (فالبكالوريا) ليست لعبة، وهي تحتاج إلى وقودٍ من نوعٍ خاصّ..! أتراك نسيت..؟!

تململتْ روحك.. أحسستَ أن الكلمات تتعرّق خجلاً وخزياً قبل أن تقولها..! لكن.. لابدّ من البوح، فأنت ما جئتَ إلا لهذا الهدف:

. تعرفين تماماً أن الحادثة تُؤلمني.. وأتمنّى لو تنشقّ الأرض وتبتلعني كلما تذكرتها.. وتعرفين أيضاً أن تلك المرأة هي التي أغوتني.. يوم فتحتْ لي باب الدار بهدوء، وسحبتني من يدي إلى ذاك المكان، حضنتني، قبّلتني.. ثم.. ثم حدث ما حدث.. كرهتُ نفسي، احتقرتُها بعد تلك الحادثة، إنها جرحٌ يئنّ في ذاكرتي، وأنت من ساعدتني على نسيانه، كدتُ أشفى منه.. فلماذا تُقلّبين أوراق الماضي الموجعة..؟

. لماذا..؟ تقول لماذا أيها العفن..؟ إني أضعك أمام حقيقتك المُفزعة، أُريك وجهك في مرآةٍ لا تكذب، علّك تُصدم بقبحه.. فتضع حدّاً لحياتك، وتُريح العالم من رائحة عفنك.. ادّعيتَ أنك تُحبني، وأغويتَ ابنتي.. سطوتَ عليها، أفسدتَ طفولتها.. ثم تُعلّق جريمتك على رقبة الشيطان..؟! أي شيطانٍ هذا..؟ وهل يجرؤ الشيطان أن يبذر بذارَهُ في أرضك..؟

. صدّقيني ظلال لم يكن الأمر بيدي، هتف بي ذاك اللعين مراراً:

. إنها غابةٌ بكر أيها الغبي، ادخلها.. فما من لذةٍ في العالم، تُعادل دخول أرضٍ عذراء ما وطئها إلاك..!

وكلما تمنّعتُ، زجرني، وصاح في وجهي:

. أيها الجبان.. لماذا لا تأكل إلا من طبقٍ سبقك إليه غيرك..؟ إنك حيوانٌ حقيرٌ يرضى بالفضلات، وينتظر من جُبنه، أن يصطاد أسياده الفريسة، ويأكلون منها ما يريدون، ثم يأتي دوره لمصمصةِ العظام المُعفّرة بالتراب..!

صدّقيني.. هذا الصوت كان يدوي في كياني، كلما وددتُ الابتعاد عنها.. لكنه لم يأسرني تماماً.. لم يأخذني إلى نهاية الطريق..

شهقتْ كغريقٍ وقع على قشّة:

. أتعني أنك لم..

. أجل لم أمتثل له تماماً، مشيتُ معه إلى حدودٍ لا يستحيل معها التراجع..

لكني الآن نادم، أقسم إني نادم..!

. نادم لأنك لم تُكمل جريمتك أيها النذل..؟

. لا.. لا.. ظلال.. أنا نادم على ما فعلت، وليس على ما لم أفعل، وأنا الآن أقدّم لك عنقي.. افعلي بي ما تشائين..

. سأفعل، أجل سأفعل.. تهمس لنفسها..

وقد شحنتها صفاقة تبريراته بطاقةٍ أوقدتْ لهيباً في أصابعها.. وبلمح البصر تناولت الإبريق، وضربته على وجهه، لم يستطع أن يتفادى الضربة التي لم يتوقعها، ولم يكن ليصدّق ما حدث..! خدعه هدوؤها وصبرها، وهو يشرح لها تفاصيل جريمته، تحطّم الإبريق على وجهه، وتخضّبت الأرض بقطرات دمٍ وزجاج.. لكنّ نارها لم تخمد، هجمت عليه تريد خنقه بيديها، دخل الطبيب ومساعدته بسرعةٍ، فصوتُ تكسّر الزجاج، كان كفيلاً باستدعائهما.. خلّصاه من بين يديها، ثم أعطاها الطبيب حقنةً مُهدّئة، وأخذ غريب إلى غرفةٍ أخرى، تاركاً مساعدته لتراقبها، والنوم يسري في أوصالها شيئاً فشيئاً..

بعد عدّة ساعاتٍ كان غريب يرقد في الجناح المجاور، وقد أجريت له عمليّة جراحيّة لاستخراج شظايا الزجاج من إحدى عينيه، غصّ المكان برجال الشرطة، الذين انتظروا زوال أثر التخدير عنه، ليأخذوا إفادته، تململ في فراشه، ومن عينه السليمة سقطت دموعٌ حارّة.. سأله المحقّق بعدما أخذ تفاصيل هويّته الشخصيّة:

. وصلنا أن المدعوّة ظلال الرّحيل شرعت في قتلكَ، فماذا تقول..؟

. ظلال..؟! لا.. لا.. لم تكن تقصد..! أقصد أن ظلال لا علاقة لها بالأمر..!

. أتضحك علينا، أم على نفسك..؟ كيف تقول: إنها لم تكن تقصد، ثم تنفي علاقتها بالموضوع..؟ هذا شروع بالقتل، يعني جريمة، ويجب أن تُعاقب عليها.

. جريمة..؟ ظلال..؟ لا. لا.. صدّقني حضرة المحقّق: ظلال لا علاقة لها، والقضيّة كلها أنني دختُ، وأنا أناولها إبريق الماء، فوقعتُ على الأرض، وحدث ما حدث..

. دختَ..؟ وما سبب هذه الدوخة المفاجئة..؟

. يبدو أنني وقفتُ بسرعة، وبما أنني أعاني من فقر الدمّ، فالموضوع طبيعي..

. تقصد أنك لن تدّعي عليها؟

. نعم سيدي، لن أدعي على أحد.

_ ٤٤ _

كلّ ليلةٍ صارت شهلا تسمع طرقات مالك على بابِ مُنتصف الليل..! تنهض من فراشها مسرعةً، تضع منديلها على رأسها، وهي تقول:

. نعم.. نعم.. حبيبي.. أنا قادمة، سأفتح لك..

وتفتح الباب للعتم والفراغ.. تجوس عيناها طيّات الظلام الحالكة، فلا ترى أحداً..!

وفي الليالي المُقمرة، صار الجيران يسمعون صوتها، تنادي:

. مالك.. حبيبي.. ادخل، تعال.. هل جلبتَ معك ابننا غريب..؟!

_ ٤٥ _

هدأ المشفى، بعد الظهيرة، ولاذ المناوبون في غرفهم للاستراحة، أما المرضى فقد استغرق كلّ منهم فيما يخصّه، ويُريحه.. فغريب شدّ الرحال إلى أعماق نفسه، يستقرئها، يُحاسبها، يُقلّب أوراقها الصفر، آملاً بشيءٍ من التطهير لها، إن هي تعرّضت لنور الكشف..
فتسيل الوقائع أمام ناظريه، كما دم القتيل أمام القاتل:
(إنها الخسارة الأوجع بين سلسلة خساراتي.. كل الذين خسرتهم كانوا ذكوراً، يلوذون بدفء الأنثى، لتأكيد رجولتهم.. فوحدها المرأة من تملك خاتم الرجولة، تطبع به ملامح الذكر، تنفخ في دمه من روحها، فيغدو رجلاً..!
جميعهم كانوا أصدقائي، يثقون بي ثقةً لا يرقى إليها الشكّ، لكن رامي كان أكثرهم اطمئناناً لوجودي، أحبّها مذ التقاها في الجامعة أول مرة، باح لها بمشاعره، فصارحتهُ أنها أحبته منذ لقائهما الأول.. عاشا معاً حبيبين متناغمين، وصديقين متفاهمين، عرّفته على صديقاتها المقربات، غير أنه لم يشأ أن يُعرّفها إلا عليّ، قال لها: . سأعرفك اليوم على صديقٍ استغنيتُ به عن معظم علاقاتي، وسترين أني على حقّ..
وجاء بها إليّ، سهرنا معاً، تحاورنا، قرأنا شعراً، غنّينا، وفاضت خفّةُ ظلّي أكثر من المعتاد.. فقد رأيتُ في الفتاة خليلةً لي.. رغم أنها لا تملك ما يُميّزها، فهي فتاةٌ عادية.. وليست ممن ينلنَ إعجابي.. لكني وضعتُها في بالي، فهي تحبّ رامي، وهذا وحده ما أغراني بها.. هذا ما جعلها في نظري المرأة المُشتهاة.. التي عليّ أن أفعل أي شيء لأنالها..! وبدأتُ منذ تلك الليلة أخطط للأمر، ظناً مني أن الموضوع ليس سهلاً، كغيره من مواقف مشابهة، نجحتُ بها أكثر مما كنت أتوقع.. فقد جرتِ المياه في جداولي دون كبير عناء.. فرامي الذي تُوفي والده في تلك الفترة، أوصاني بها قبل سفره إلى قريته، قال لي والغصّة تخنقه:
. غريب اعتنِ بلينا في غيابي.. فأنا لا أثق إلا بك.. لا تدعها تحتاج شيئاً، فهي غريبةٌ هنا.. وأنا لن أنسى معروفك ما حييت..
. لا عليك يا صديقي.. قلتُ له مُطمئناً، سافر أنت، ولا تشغل بالك، فأفضالك عليّ ستجعلني طوع أمرها في كل ما تريد.. (ولو يا رجل..)
اتصلتُ بها، فليس من المعقول أن أنتظرها، حتى تطلب مني الوقوف إلى جانبها في هذه المحنة، وواجبي يُحتم عليّ عرض المساعدة، دون أن أضطرها لطلبها.. التقينا.. واسيتُها..

مسحتُ دموعها بأصابع الأخ والصديق، لكنّ أصابعي سرعان ما كشفتْ نواياها، وبانتْ نواجذها.. وتحوّلتْ سريراً يُهدهد جسداً طال تعطشه لدفء الحبيب المسافر.. جلستْ بعدها تُمطر دموع الندم على سقوطها السريع.. وجلستُ أمطر فراشاتٍ ترتشف دموعها.. وتُهوّن عليها ما حدث.. حمّلتُ ما ذرفتُهُ كلّ عطشي للحب، وحنيني القديم للأمان..! خبّرتُها عن حاجتي ليدٍ حانيةٍ تمسح جراحي، وصدرٍ رحبٍ يأخذني إلى أفيائه من هجير تصحّري.. بذرتُ أمامها طفولةً نزفتْ من عينين يابستين.. ومساماتٍ تكلّست عليها الدموع..! دموع حرمانٍ غزير.. نشرتُ أمامها أشرعةً ممزّقةً، لسفنٍ محطمة على قارعة الضياع.. بدأتْ ترفو أشرعتي، تُرمّمُ انكساراتها، لتحولها أجنحةً أطير بها في سمائها.. وتخلّصتْ خيطاً فخيطاً من حيائها، بل صارت تؤكّد لي بعد ذلك، أن بُعدَ رامي ليس إلا تدبيراً من القدر، لتتمكّن من اكتشاف ذاتها، ومعرفة طريقها..! وقعت الفتاة في شباكي إذاً..! وحين عاد رامي أخبرَتْهُ دون أدنى خجل أو تبكيت أنها كانت مخطئةً في علاقتها به.. وأن البعد قد كشف لها هشاشة تلك العلاقة..! ولم تتردّد في إخباره فور عودته، أنها تحبني أنا.. غريب.. وأننا إنما خُلقنا لبعضنا، وما لقاؤها به قبلي إلا مُداعبةٌ من القدر، أو مزحة أراد بها أن يُدغدغ مشاعرها.. ويُدرّبها على حبّ جارف، لن تستطيع تحمّلهُ، إلا إذا مرّت قبله بمرحلةٍ تجريبية..! صُعق رامي الخارج حديثاً من صدمة الفقد، بفراقٍ أحسّه أوجع..! أذهلته جرأتها في الاعتراف، ووقاحتها في تحليل الموقف..! لم يستطع تحمّل ما حدث، سافر بعد فترةٍ قصيرة خارج البلد، وانقطعت أخباره، وجاءتني لينا جذلةً.. تزفّ لي بشرى رحيله..

قلتُ لها ببرودٍ لا يقدرُ عليه إلا الموتى:

. ارحلي أنت أيضاً، فقد انتهت مهمتك..!

فحّ صوتها، وهي تتراخى على أرض الغرفة بين مُصدّقةٍ ومُكذبة:

. غريب.. أنت تمزح.. أليس كذلك..؟

. لا.. صرختُ بها.. تماسكي، واخرجي من عالمي، فقد انتهى كل ما بيننا بانتهاء رامي من حياتك..!

. غريب.. أنا أحبك.. وقد تخلّيتُ عن رامي لأجلك، هل نسيت..؟ أنت سندي الوحيد في هذا العالم.. فلا تتركني حبيبي..

لكني تركتها تُفرّغ كل ما بداخلها، تضرب وجهها، تشدّ شعرها، تشتمني حيناً، تتمسّح بي حيناً.. دون أن أحرّك ساكناً.. حتى يئستْ، وخرجت مُفلسةً من كل شيء..

لماذا فعلتُ ذلك، وأفعله دائماً لا أدري..! فوحدها المرأة العاشقة تُغريني بامتلاكها..! ولو كانت ربّة القبح، ومُبدعة البلادة..! وما أن أصل منها إلى مرادي، حتى أملّ منها، وأكره وجودها معي، فأغادرها، ويُغادرني بالطبع حبيبها السابق، الذي غالباً ما يكون صديقي، خسرتُ كل الذين عرفتهم، حوّلتُ أصدقائي أعداءً، ولم أظفر بحبيبة، تأخذ بمجامع قلبي.. رغم أني لم أفشل مع

امرأةٍ حتى الآن..! لم تقف واحدةٌ منهن في وجهي وتقول: لا.. غير أن هذا لم يسعدني.. لم يُشعرني بالأمان..! بل خرّب ثقتي بكل النساء.. فما من واحدةٍ تستحقّ إعجابي، كلهنّ مشاريع خائنات، سرعان ما يتحوّلن بين يديّ إلى مُبدعاتٍ في الخيانة..! بارعاتٍ في تبريرها، وتأكيد ضرورتها..! أنا الذي لا أملك أدنى المغريات، فلا نخلي باسقٌ، ولا قطوفي دانيات..! رجلٌ لم تُعطِهِ الدنيا من أيّ شيء إلا حدّ الكفاف..! فماذا تُراهنّ يفعلن مع سواي ممن يملكون مقوّمات الحب والحياة، من مالٍ وجمالٍ وسواهما..؟!!

إلا ظلال.. وحدها ظلال تختلف.. نعم تختلف.. ومع ذلك لم يشفني حبها مما أنا فيه..! ولم أكتشف أنني أحببتها، حتى كدتُ أفقدها، أو كادتْ تموت بين يديّ، أتراني فعلاً أحبها..؟ أم أحبّ حبّها لي..؟ هل أنا محكومٌ بحاجتي لها.؟! لم أعد أفهم نفسي..

لا أعرف ما أريد، ولا أين أنا.. وهل ضاعت مني الظلال..؟!)

استهلك آخر خيطٍ من مصباح ليلته تلك، وهو يُقلّب أوراق روحه، يستفتي ماضيه وحاضره.. باحثاً عن علّةٍ يراها في شخصيته، ولا يعرف لها سبباً ولا دواء.. ويُردّد عند كل مفصلٍ أو عقدة تواجهه، بصوتِ جنيّةٍ ثكلى:

. ترى هل ضاعت مني الظلال..؟ وهل أرادت قتلي بالفعل..؟ إن كانت تلك إرادتها فقد خسرتها.. خسرتها إلى غير رجعة..!

لأول مرّةٍ منذ اعتاد تفريغ ما بروحه على الآلة الكاتبة، يحسّ أن الأوراق تناديه، تحكّ عريها بروحه.. يتقدّم منها حذراً..! فهو يخاف مواجهتها.. يرى فيها المرأة التي لم يلتقِ بها..! فيهرب من سحرٍ يخشاه في عينيها.. سحرٍ يُعرّيه..! لذلك يلجأ معها إلى المداورة، كيلا يلتقيها إلا من وراء حجاب..! فراراً من رائحة الورق، التي يعتقد أنها تستدرجه ليقول ما يريد، وما لا يريد..! وتأخذ منه ما لا يرغب في إعطائه..! عرف سحر الورق طفلاً ويافعاً.. وفرّ منه على مشارف الرجولة..!

والآن الأوراق تطلبهُ.. تُعاتبه.. تفتح صدورها له.. يُحاول مُخاتلتها، والفرار من عينيها إلى طريقته السابقة، لكنّ طرائقه جميعاً تسقط أمام استبدادها..! يتقدّم نحوها مأخوذاً..! يركع في حرمها.. وتفضّ روحه عذريتها، بمداد الشعر..

....

ـ ٤٦ ـ

غادرت ظلال المشفى هذا الصباح، دخلت بيتها برفقة ابنتها، اتجهت مباشرةً إلى غرفتها، استلقت على سريرها، اقتربت منها رؤيا، قبّلتها على جبينها، وسألتها مُستغربةً:

. ألم تشتاقي لبيتنا أمّاه..! لماذا لم أسمع جملتك المعهودة إثر كل غياب..؟! كنتِ تنظرين إليّ،

ونحن نفتح الباب، وتقولين بمرح:
. تنفّسي بعمقٍ يا بنتي، تنشّقي عبق الحبّ من بيتنا، فلا حبّ أنقى من عبيره..!
ما الذي حدث لنا، هل خسرنا كل ذلك يا أم رؤيا..؟!
رمقتْها أمّها بانكسار، وانكفأتْ على نفسها، تُتمتم كلماتٍ غير مفهومة.. لم تستطع رؤيا أن تفهم سرّ حزن أمها، لم يصلها تمزّقها، فلم يخطر ببالها، أن غريب الذي تعشقهُ، هو أساس كل ما تُعانيه والدتها، وما ستعانيهِ هي.. حملتْ حيرتها، وتركت أمها لأحزانها..
تتقلّب ظلال على فراشها، تُغمض عينيها، تحاول النوم، لكن صورة ابنتها، وهي تتلوّى بين ذراعي غريب تُلاحقها.. تهزّ رأسها بعنفٍ مُحاولةً طردها.. غير أن تلك الصورة تتراقص أمام عينيها بأشكالٍ مختلفة.. تحرقها كيفما تجلّت.. تغادر سريرها، تتمشّى في غرفتها بسرعةٍ، كأنها تهرب من جلادٍ يلاحقها.. وسؤالٌ واحدٌ يضجّ في ذهنها:
. لماذا أنا.. لماذا أنا يا غريب..؟! لابدّ من وجود سبب لما حدث.. وعليّ إيجاده..
تهدأ قليلاً، تجلس، وتغرق في التفكير، تستغرق في ذاتها.. تفتح نافذةً على الماضي، وتهمس لنفسها بيقين مُذنب، يرى ماءهُ صديداً، وهواءه لهيباً:
. لابد أنني أستحقّ بعض ما رأيت على أقلّ تقدير، فهذا العالم محكومٌ بما يُشبه العدالة..!
أو هكذا أتوهّم، فماذا تراني فعلت، وأيّ ذنوبي السابقات، تتحمّل وزر ما أنا فيه..؟
تعود بذاكرتها إلى صفحةٍ قديمةٍ، مركونة هناك في زاويةٍ بعيدة..! صفحةٍ مرميّةٍ كأنها طفلٌ يتيم، رمتهُ زوجة أبيه في ركنٍ مُعتم..! تُسلّط أضواءها الكاشفة على سطور ورقتها، فتشعر بالخزي، إذ ترى نفسها وهي تُذيب حبّة المنوّم في كوب الشاي، وتُقدّمهُ لزوجها، الذي سرعان ما يأخذه النوم، فتفتح الباب لزميلها في العمل، وترقص معه أمام جثّة زوجها الغافي..! يحضنها الرجل، يحاول تقبيلها، تُخلّص نفسها منه، وتقول مُستنكرةً:
. لم نتّفقْ على هذا، اتّفقنا فقط على الرقص أمام عينيه، تحدّيتني، قلتَ لي:
. لا تقدرين..
. وها أنذا قد فعلت، فما رأيك..؟
يجذبها بقوة، يرميها، يتعاركان على أرض الغرفة.. لم يستطع أن ينال منها بغيتهُ، لكنه أصاب ما لم تحسب له حساباً، تخرج به إلى غرفةٍ أخرى، وتُعنّفهُ على تماديه، وخرقِهِ شروط الاتفاق، يُجيبها ساخراً:
. أتظنين أني أغامر مغامرةً كهذه، تنفيذاً لشرطٍ مجنونٍ وحسب..؟! لا.. فأنت الآن تحت رحمتي..! وغداً سترين..
ويخرج مزهوّاً بما لا تعلم.. لم تدرِ كيف التقط لها تلك الصور، التي باتت تُنغّص عيشها.. والتي اضطرت لدفع ثمنها غالياً.. صحيح أنها لم تُقايض بها جسدها، لكنها اشترتها بجزءٍ كبيرٍ من

مصاغها..
وسدّدت فواتير تلك الحادثة، التي لم تكن بنظرها سوى لعبةٍ مجنونة، تُثبت من خلالها قدرتها على فعل ما تريد.. وقّعتْ بقبولها ذلك التحدّي صكّ عبوديتها، في غمرة بحثها عن حريةٍ أدركت بعد ذلك أنها مجرّد وهم.. ولم تكن ثقتها بالناس، هي الورقة الوحيدة، التي سقطت في هوّة الضياع، فحياتها مع زوجها، تحوّلت سلسلةً من الانكسارات.. تنظر في عينيه، فيُخيّل لها أنها ترى فيهما صورتها المشينة تلك..! فتهرب منه فزعةً، يقترب منها، يحاول معرفة ما يؤلمها، فتظن أنه يعرف كل شيء، ويُبيّتُ لها ما لا تتوقّعه، في الوقت الذي يراه مناسباً.. تحوّلت حياتها انتظاراً مريراً لانفجارٍ تتوقعه في كل لحظة..! حتى جاءها الخلاص على يدي القدر.. مات زوجها، قُتل في حادث سيرٍ، وهو عائد من مشفى التوليد الذي تركها فيه، لأن الوقت مازال مبكراً لتضع طفلها. قال له الطبيب:
. الولادة طبيعية، لا تخف، لكن أمامها عدّة ساعات.. تستطيع أن تذهب، لتنام في بيتك، وتأتيها غداً، وإن شاء الله تجد طفلك على صدرها..
وجاء الصباح.. فلا هو عاد، ولا طفله تنفّس الحياة..! دُفنا معاً في يومٍ واحد..
غزتْها الأحزان، انكسر قلبها على طفلٍ لم ترَ عيناه النور، وزوجٍ ظنّت أنه مات بسببها.. لم تُخفّفْ من مصيبتها عبارات العزاء، التي حاول من خلالها الأهل والأقارب والأصدقاء، أن يُبعدوا عنها شبح الإحساس بالإثم.. كلهم لامَها على تحميل نفسها وزر موته، لا بل موتهما.. غير أن رأسها يتأرجح حسرةً، وروحها تنزّ أسىً.. فهي تعلم ما لا يعلمون..! كانت تراه قتيلاً قبل أن يُقتل.. قتيلاً يُعدّ العدّة، ويتحيّن الفرصة لتمزيق كفنه.. ولفّهِ على عنقها مشنقةً لا ترحم..! أحياناً تنتابها لحظات فرحٍ.. وتهزّها نشوة الانتصار، فترفع رأسها زهواً وتُتمتم:
. لقد مات.. ومات معه سرّه.. لن أرى نفسي في عينيه عاريةً بعد الآن.. هذا أفضل.. وموته راحة لكلينا..
لكنها سرعان ما تغصّ بالألم، وتنكمش على نفسها خجلةً من مشاعرها السلبيّة تلك.. وتُعاود أمواج الحسرة ضرب شطآنها، وتفتيت ما شاءت من صخورها..!
تتصبّبُ عرقاً إذ تُعاودها تلك الذكريات، وتحسّ بالتّصاغر، حتى لم تعدْ تتبيّن نفسها.. فتهمس وجلةً:
. لابد أنني أستحق كل ما حصل معي.. فالحياة محكومةٌ بما يشبه العدالة..!
ورقةٌ أخرى تحرق دماغها، تُعرّيها بقسوة ريحٍ مباغتة، تكشف عورة امرأةٍ أمام عينيّ والدها..! تقرأ بين سطورها وجهاً يتلوّن على إيقاع الكلمات، يشعّ تارةً، ويخبو أخرى، تبعاً لارتفاع منسوب العشق، أو انخفاضه في مفاصل الحروف..! كانت صديقتها سمر تسرّ لها بقضية عمرها.. ترتجف شفتاها، ويغدو قلبها مراهقاً، لمجرّد ذكر اسمه:

. أحبه يا ظلال.. أعشقه كما لم أشعر من قبل..

وتنهمر دموعها دون سابق رعدٍ أو برق..!

. ما بك سمر، ما الذي يُبكيكِ صديقتي..؟!

تمسح سمر دموعها، تبتلع ما تبقّى منها، وتقول كمنْ يرمي ورقته الأخيرة، مُعلّقاً عليها توقه للحياة:

. ظلال.. أريدك أن تساعديني، أرجوكِ اكتبي له بأسلوبك الجميل..

. ماذا أكتب.. رسالة..؟!

وتضحك منها ساخرةً:

. إنك تُذكرينني بنساء عصر الأميّة، كيف تُعلّمين تلاميذك، وأنت تطلبين من صديقتك أن تكتب عنكِ رسالةً لحبيبك..؟! هاتي.. هاتي بيضتين.. وسأكتب لك الرسالة، وأمري إلى الله، سأقدّر وضعك يا خالة.. ماذا تريدين أن تقولي له: عد إلينا يا عبد الله، فقد اشتقنا لك (يمّه).. أبوك يحمل مسؤولية الحقل وحده، وأختك تحتاج مساعدتك، فقد خطبها بالأمس علّاك مسعود، أقصد علام مسعود، وتحتاج رأيك.. حتى بقرتنا الشقراء تحتاجك هي الأخرى، فقد آن الأوان لتضع مولودها الأول، ألم تشتقْ إليها..؟! (أيهون عليك تركنا بهذه الحالة يا بنيّ..؟)

وتقتطع الورقة من دفترها، تطويها، وتُناولها لصديقتها، وتضحكان معاً..

. ظلال.. كفاك مزاحاً، أنا أتكلم بجديّة، أريدك أن تكتبي له، كأنك تكتبين لحبيبك.. كلمات تُذيب الحجر.. أنت أديبة.. أنسيتِ ذلك..؟ اكتبي له عن لساني نثراً وشعراً يُنسيه حليب أمه..! ويجعله لا يتذكّر إلا سمر..

. عاشق ومازال طعم الحليب على شفتيه..؟ يا حبيبي.. عشّاق آخر زمن..!

. اسمعي يا بنتي: الرجل لا ينسى حليب أمه، حتى يتذوّق حليب غيرها..! فهو (يا عين أمه) يولد طفلاً، ويموت طفلاً.. ولا يجوز أن يُفطم الطفل عنوةً.. حرام (تتعقّد نفسيته)..! ويُمضي عمره بحثاً عن امرأةٍ ذات قلبٍ رقيقٍ تحلّ عقدهُ.. وتُهدهد طفولته المهدورة..!

تقف سمر غاضبةً، تهمّ بمغادرة صديقتها:

. يبدو أنك تتسلّين بهمومي يا ظلال.. وداعاً.. وأعتذر عن حاجتي لك..

ترتبك ظلال، تُمسك بها، تُجلسها على الكرسي، وتحلف عليها ألا تنزعج منها:

. أنا أمزحُ يا سمر، أداعبك لأخفّف عنك يا مجنونة.. سأحضّر القهوة، وبعد ذلك نتكلّم بجديّة..

ترتشف ظلال قهوتها بتلذذ، وترمق صديقتها بحب:

. والآن احكي لي قصتك بالتفصيل المُملّ، لأستطيع مساعدتك..

حكت سمر عن شابٍ التقتْ به مصادفةً في بيت إحدى زميلاتها، بهرها حواره، أخذتها لباقته..! وهتفت روحها:

. إنه هو.. ولن أفرّط به..!

حاولت أن تظهر بأحسن حالاتها أمامه، علّها تحظى باهتمامه، ويبدو أنها أصابت بعض ما تريد.. فقد بدأ يتوجّه بالحديث إليها، ويرمقها بتودّدٍ بين الجملة وأختها.. وما إن ودّع مضيفيه، وانطلق إلى مدينته، حتى خلعت سمر وقارها بردةً عتيقةً ملّت صحبتها.. ودخلت المطبخ مع صديقتها، مُتظاهرةً برغبتها في مساعدتها، وأخذت أثناء ذلك ما تريد من معلوماتٍ عن الشاب..(فهو جامعيّ يعمل في وزارة الاقتصاد، وقياديّ في أحد الأحزاب اليسارية..)

قاطعتها ظلال فرحةً:

. مهتمّ بالسياسة أيضاً..؟ يساريّ..؟ بربك أليس شيوعياً..؟

. ولماذا شيوعي تحديداً..؟ ألا تُغيّرون هذه العادة..؟! فما أن يسمع أحدكم بمثقفٍ في أيّ مكانٍ من العالم، حتى يسارع لضمّه إلى خانة الشيوعية..! إن كان كذلك أو لم يكن..! وقد يكون هذا المحسوب رغم أنفه، على نقيضٍ معها..! أو ربما لم يسمع بها من قبل، لكنك هذه المرة انتصرتِ عليّ فالعريس منكم.. لهذا فأنا مُتأكدة أنك تستطيعين التأثير عليه.. بالشعر والفكر المشترك بينكما..! وهذا هو الأهم على ما أرى..!

تبتسم ظلال بخبثٍ، وتهمس لنفسها:

. شابٌ بهذه المواصفات، ورفيق أيضاً..! (والله بعيدة عن أسنانك يا سمر..) اعذريني.. وتكتب له ما يُنسيه طعم الحليب ولونه.. تأتيها سمر بعد أيام، محمولةً على أمواج فرحٍ وزهوٍ وامتنان..! عانقتها بلهفةِ حبيبين افترقا منذ أجيال:

. شكراً ظلال.. يا أرقى الصديقات، وأعظم الشاعرات أنت.. أشكرك من كلّ قلبي..

تُجيبها مُتضاحكةً:

. ما بك يا بنت..؟ هيا .. هيا اعترفي، هل جئّتكِ الحبيب..؟! كنتِ معه.. آ.. فرائحة الحب تفوح منك..! ما الذي حدث قولي بسرعة..؟

. آهِ يا ظلال.. كم هو رائع ، وكم أحبّه..!

. وهو.. أيحبك..؟

. أجل.. وقد ازداد حبّه أضعافاً بعد الرسالتين، والقصائد التي كتبتها له.. فهذا اللقاء كان الأجمل..! رأيتُ فيه إنساناً جديداً، ينظر إليّ بطريقةٍ جديدة أيضاً..! أشكركِ صديقتي الرائعة.. وأنا مدينةٌ لك بما تطلبين..

. بما أطلب.. بما أطلب..؟! وهل تقدرين على ما أريد..؟

بثقةٍ أجابتها سمر:

. اطلبي أية مساعدة، وسترين أني لن أبخل عليك بشيء، فقد قدّمتِ لي الحياة.. آه يا ظلال لو ترين نظرته إليّ، ومدى احترامه لي في الفترة الأخيرة..!

وتُردف بحماس منْ ملكَ الدنيا بعد طول إملاق:
. ماذا تريدين.. قولي، بماذا أستطيع أن أخدمك..؟
. أريد فراس.. فهل تقدرين على ذلك..؟!
ضحكت سمر كطفلٍ، يشاهد مع أقرانه مغامرات توم وجيري..! وقالت:
. دمك خفيفٌ بطبعك، وليس الأمر بيدك..! يا لنبلك صديقتي..! أعرف أن سعادتي هي
ما تريدين.. وأتمنّى عليك الآن أن تُكملي معروفك معي، وتكتبي له، أتصدقين أنه هو من طلب ذلك..! قال لي:
. ما تكتبينه يا سمر يُقرّبني منك أكثر، فلا تحرميني منه..!
. لن أحرمك، ولن أحرمه.. لكني الآن لا أستطيع، فشيطاني غائبٌ، وأنا دونه لا أنفع للعير ولا للنفير..! اتركي لي عنوانه، وسأكتب له ما يُذيب عظامه.. لتكون لكِ شراباً سائغاً..! وأنا سأتكفّل بإرسال الرسالة، عندما أنتهي منها..! (ارتاحي أنت واتركينا نشوف شغلنا..) وتضحكان معاً..
تُمضي ظلال ليلتها تلك بين الأوراق، تُحاول ابتكار لغةٍ، تأتي به إليها، دون أن تضطرّ لإظهار وجهها، أو كشف جانبٍ من هويتها.. وقد أتعبها أنه لم يستطع فكّ الشيفرة في الرسالة السابقة.. ولم يصله الرّمز الذي خشيت أن يكون شبه مكشوف..! ماذا تقول له لتُعرّفهُ على نفسها..؟! فهي واثقةٌ أنه يحبّها هي..! يحبّ روحها المُزهرة على مفاصل حروفها، وبين سطورها..! هو مُعجبٌ بما تقوله، وما تفكر به، وتصبّه على الورق، وهي أيضاً أسيرةُ إلهٍ غائب..! إلهٍ لم تره..! ويُغريها غموضه بالبحث عنه.. لكنها تزعم أنها صنعته بيديها مارداً من شعر..! عاشقاً أسطورياً يجوب الآفاق بحثاً عنها..! ولا مفرّ من التلاقي..! بل لابدّ منه.. فهي لا تقف على الحياد مما تكتب، إنها تكتب له هو.. تُخاطبه دون غيره، تلفحها أنفاسه وهو يقرؤها.. فليس من المعقول ألا يحبها، ويبحث عنها..! ستكتب له إذاً مُشيرةً في رسالتها إلى مكان لقائهما المأمول.. غير أنها تترفّع عن المباشرة في كل شيء، فتلجأ إلى الترميز، وهي واثقةٌ هذه المرّة أنه سيفهمها.. وبناءً على ثقتها تلك، ذهبت قبلهُ إلى المكان الذي حدّدته، حاملةً على هيئتها علاماتٍ فارقة، زرعت ما يُشير إليها بين الكلمات..! وجلست تنتظره..
بعد نصف ساعةٍ من التّرقّب، والبحث عن وجهه بين الوجوه، اقترب منها شابٌ وسيم، يظهر عليه القلق..
. أيكون هو..؟
وتُزغرد دماؤها احتفاءً.. تُغيّر جلستها، كأنما توسّع له، تدعوه عيناها ليقول شيئاً.. يمتثل لأمر عينيها، فيسألها متضاحكاً:
. عفواً.. هل أجد معكِ مرآة؟.
فاجأها السّؤال، أربكها.. فراحت تُقلّب محتويات محفظتها، مُبعثرةً حيرتها بين أحشائها

المكتظّة..! أعادتْها قهقهات الشاب إلى ذاتها، وسمعته يقول، وهو يُغادرها:

. إذا وجدتِ المرآة، فانظري إلى وجهك فيها، قبل أن تدعوني عيناك لمغازلتك..!

تتكفئ على نفسها، (كبالونٍ) فضّهُ دبوسٌ لئيم..! تبتلع اختناقها.. وتُتمتم بمرارة:

. والله معك حقّ يا.. ابن الحرام..!

تُسوّي هيئتها بحركاتٍ نسائية.. ثم ترفع بصرها..

. يا إلهي.. إنه هو..! لابد أنه هو.. يقف على مرمى القلب والنظر.. باسقاً كشجرة الحور التي أعشقها في حقلنا..! عيناه تقولان: إنه يبحث عني، لا بل إنه يعرفني، فهو يُسدّد نظراته إليّ أنا..! فلأبادر إذاً فلم تعد بي طاقةٌ على الصبر..!

تفتح كتاباً كيفما اتّفق، تتظاهر بقراءة بعض أسطره، تُتمتم بضع كلماتٍ، ثم ترفع صوتها فجأةً لتقول:

. كلمة السّر: (سمر).

تُغلق الكتاب، ورأسها يتمايلُ، كأنما أطربها ما قرأتْهُ..!

يقترب منها، تعانقها عيناه.. ويهدل:

. أنتِ إذاً.. يا لك من عاشقة..!

ويضحكان بجذل..!

ثم.. زالت كلمة السّر من حياتهما، تفكّكت، وتبخّرت أحرفها..! ولم تعدْ سمر سوى ذكرى مرحلةٍ انتقالية، يعبرانها كما يعبرُ السكّان سلّم البناية للوصول إلى البيت..! يحرقها هذا التاريخ، كما حرقتْها عينا سمر يوم جاءت تُهنّئهما بزواجهما.. رأت في وجهها كل ما في العالم من كآبة.. وهي ترمق مَنْ كان حبيبها في يومٍ ما، وتُبارك له حياته الجديدة..!

. سامحيني سمر.. لم أستطع يوم ذاك أن أستشعر وضاعة ما فعلت.. أما الآن.. آهٍ.. آه.. أتُراني قادرةً على النسيان..؟! وأنت غريب.. أتستطيع نسيان ما فعلته بقلبي..؟ أتكون قريباً مني الآن..؟ كأني أشمّ عبقك.. أحسّه يقترب مني..!

. ماما.. ماما.. تُناديها رؤيا بصوتٍ مُتقطّع يتقاطر لهفةً..

. ماما لقد جاء غريب..!

يعلو صخب القلوب..! ثلاثة طيورٍ تنقرُ أقفاصها، تُعلن على سجونها العصيان.. وتتناوب الألوان على الوجوه..! تُمطره رؤيا بزخّاتِ أسئلةٍ، لم يجد لها جواباً، رغم وضوح مقاصدها وسهولتها:

. أين كنت غريب، لم نرك منذ مدّة، أمي كانت مريضة، ألم تسمع بها..؟! ولماذا هذه النظّارة السوداء على عينيك..؟ أين نظارتك القديمة..؟ صحيح أنها لم تكن جميلة، لكنها على أيّ حال أفضل من هذه، فهي تسمح لي برؤية عينيك على أقلّ تقدير.. انزعها أرجوك..

مسح ما ندّى وجهه بأصابع حائرة، وهرب بنظراته إلى ظلال، طالباً نجدتها وفيئها..!

نظرت الأم في عينيّ ابنتها الحائرتين، خاطبتها بحزمٍ لا مجال لخرقه:

. دعينا وحدنا يا بنتي، ادخلي غرفتك، ولا تخرجي حتى أناديك..

. لكن.. ماما.. أريد..

تصرخ بها ظلال بقسوة:

. رؤيا ادخلي غرفتك حالاً.

تمتثل الفتاة، وهي تُبربر غاضبةً.. تدخل غرفتها، تغلق بابها بقوةٍ لم تعتدْ عليها، لم تستطع الجلوس، فدماؤها تغلي غيظاً وشوقاً.. وعقلها يسافر إلى أقصى اليمين، ويعود مُنكّساً أعلامه إلى أقصى اليسار، دون أن يعثر على ضالته..! لاشيء يُريحهُ، ويُهدّئ فورة جنونه..! شلال أسئلةٍ حيرى تُدمدم في رأسها:

. لماذا لا تريدني أن أجلس معهما، وهو.. كيف لم يعترض..؟ لم يُبدِ أدنى معارضة لموقفها ولو بعينيه اللتين أعشقهما.. كان يُشعلني بهما.. بحديثهما الذي تعجز عنه ألسنة كلّ البشر.. فما بالهما اليوم.. لا صوتٌ ولا صورة..! ولماذا استقبلتهُ أمي بطريقة مختلفة، وكيف تغيّب أثناء مرضها..؟ تُرى هل لمرضها علاقة به..؟ أيكون.. لا.. لا.. غير معقول.. لكن..

يا إلهي أكاد أجنّ.. ربّاه.. أرحني أرجوك..

وتفتح الباب مسرعة، ثم تُعاود إغلاقه دون أن تدري لماذا تفعل ذلك، تناديها أمها:

. تعالي رؤيا، ادخلي.

تدخل وابتسامةٌ لا لون لها تتأرجح على وجهها في محاولةٍ لإخفاء ما يعتمل داخلها.. تتبادل العيون نظراتٍ تشي بما لا يتمناه أحدٌ منهم..

. ما الأمر أماه..؟

. قل لها يا غريب، أخبرها بما لا تعلم، ولا تتوهّم.. هل تستطيع..؟

. ظلال.. أرجوك.. أنهِ الموضوع كما اتّفقنا، ولا تُخرّبي كلّ شيء..!

ترميه بنظرةٍ ساخنة، وتتّجه بالكلام إلى ابنتها بلهجةٍ حازمة:

. اسمعي رؤيا: هذا الرجل الجالس أمامك، والذي تظنين أنه يحبك.. وي..

وأمسكتْ.. توقّفت عن الكلام، لتُراقب نتائج تمهيدها..! تبتلع رؤيا ما تبقّى من ريقها.. تحبس أنفاسها، كأنما لا تريد لأدنى تشويشٍ أن يأخذها مما تسمع..! هي تُدرك الآن أنها تنتظر خبراً عظيماً.. لا يليق به أن يُستقبل بغير الصمت.. صمت كل شيء..!

وغريب جفّ حلقه، وانسحبت الدماء من عروقه..! تاركةً خلفها راياتٍ شاحبة، تنتظر أن تكون خِرَقاً لأصابع زمنٍ شحيح..!

تطمئنّ ظلال إثر استطلاع الأوضاع، أنّ أرض معركتها باتت مُهيّئةً كما تشتهي..! فلتُطلقْ

نيرانها إذاً، وليتمخّض بعد ذلك رحم الكون، عن شياطين تمتطي أعناق الجميع..! تتخيّل المشهد للحظات.. تستمتع برؤيةِ كائناتٍ غريبةٍ تُقهقهُ بجنونٍ وهي تعتلي الرّقاب.. وتقود مسيرة هؤلاء الذين تقول عنهم دائماً: إنهم أنصاف بشر..! تبتسم للمشهد بتشفٍّ.. تتسع ابتسامتها شيئاً فشيئاً، حتى تنفجر ضاحكةً..! لكن لهيب النار على شفتيها سرعان ما يخبو.. فوحدها صورة رؤيا وذاك الشيطان يمتطي رقبتها، ويُعرّش على رأسها الحبيب تجلدها.. تُفزعها.. تفرك عينيها، لتطرد تلك الخيالات اللعينة..! ترمق ابنتها بلوعة، وتُتابع جملتها السابقة:

. إنه.. إنه يحبك كثيراً.. غير أنه..

ابتلعت ما يكاد يخنقها وأردفت:

. غير أنه لا يستطيع الزواج منك..! وهذا هو سبب حزنه وغيابه معاً..! فهو مريض.. مريض يا بنتي.. ولا يستطيع الزواج أبداً..!

تُصعق رؤيا..! يُحوّلها ما تسمع بيدراً محروقاً..!

أما غريب فيسحب نفسه دون كلمة اعتذار، ويغادر، هرباً من ردّ فعلٍ لا يضمن نتائجه..! أذهلته ظلال..! فاجأته بحلّ لم يكن ليخطر على باله، فقد وقع قلبه هلعاً..! عندما بدأت الكلام، لكنه نهض بعد ذلك عزيزاً.. يُرتّل فضائل مرضٍ مزعوم..! فهو لم يعهد للمرض فضلاً من قبل..! لكنه الآن وقد حمل له الخلاص من ورطته القاتلة.. بات رفيقاً

لا غنى عن خدماته في الأزمات.

_ ٤٧ _

دفع مالك المرأة الأخيرة عن صدره، بعنفٍ وتقزّز..!

. ابتعدي عنّي.. دعيني أذهب.. دعيني..

كان مخموراً تماماً، نهض مترنّحاً، مشى بضع خطواتٍ متأرجحةً، ثم فأفأ قائلاً:

. آ هذا بيتي.. إذاً أنت اذهبي، هيّا.. أنت لستِ ظبية.. اذهبي إذاً..

قالت المرأة، وهي ترتدي ملابسها:

. الظبية ماتت أيها السكير.. ماتت.. ألا تفهم..؟!

. لا.. لا.. ظبية لم تمت.. واليوم.. اليوم سأذهب إليها.. سترين..!

تهاوى على طرف السرير ثانيةً، وهو يُكرّر:

. ظبية لم تمت.. لم تمت.. وأنا ذاهب إليها..

. اذهب إلى جهنم الحمراء.. قالت المرأة، وصفقت الباب وراءها.

نهض.. مدّ ذراعه، أشار بإصبعه كمن يتوعّد.. ثم.. هزّ رأسه كأنه يطرد ذهوله ..! وبحث عن زجاجة الخمر، فألفاها فارغة.. ارتدى ملابسه، كيفما اتفق، نسي أن يُغلق الباب، ومضى يتأرجح في عتمٍ يبتلع عواء ثعالب، ونباح كلاب.. طارده أحدها، وحين رأى الكلب عدم اكتراث الرجل به، تبعه مُوصوصاً، ثم سبقه، ومشى أمامه، وكأنه يدلّهُ على الطريق..! كان الرجل يُتمتم:

ـ نعم.. أنا قادم يا ظبيتي.. آتٍ إليكِ.. والتفت إلى الكلب، وقال:

ـ أتعرف أيها الكلب طريق (الناظمية)..؟ تعرف شهلا..؟ لا.. لا.. أقصد ظبية حبيبتي.. هيّا امشِ أمامي..! لا تعرف إذاً..؟ اذهب.. هيّا.. (وشتْ)..

هرّ الكلب، ومضى مُبتعداً عن طريق مالك، الذي ابتلعت العتمة خطواته المترنّحة..

الطريق إلى الناظميّة، دربٌ يتعرّج في الظلام، والشوك، والحجارة، حيث راح مالك يتعثّر، يسقط، ويسقط، ينهض.. ويزحف.. رافقه حيوانٌ بريّ، راح مالك يحادثه حيناً، ويقذفه بالحجارة حيناً آخر.. وهو يقول:

ـ أنا ذاهبٌ إلى الناظمية، حيث الظبية، فإلى أين تذهب أنت..؟ ألديكَ ظبيةٌ هناك..؟

يترنّح، يسقط، يزحف، تنزف جراحه، يتوه عن الدرب، ثم يعود إليه.. نعم.. هذا هو الطريق، أنا أعرف الطريق إلى ظبية بقلبي..! ما حاجتي للضوء..؟ أنا أعرف..

ويمضي.. تتراقص في خياله السكران صورة ظبية، وشهلا.. تمتزجان، وتفترقان.. ويسقط.. يسقط.. ويرتطم رأسه بالحجارة، يفقد الوعي.. ثم يفيق على الوحش الذي يتشمّم دمه النّازف من جراحه.. فيهشّ عليه بضعف، ويزحف.. يزحف إلى الظبية كما يظنّ..!

وصل إلى مشارف الفجر والناظمية معاً.. مثخناً، نازفاً، منهكاً.. ونبحت كلابها رائحة دمه.. ففرّ الثعلب عنه، وتركه لشأنه، تهاوى على الحجارة والشوك والنزيف.. وهو يقول بحشرجةٍ متقطّعة:

ـ أنا جئتُ.. جئتُ إليكِ يا ظبية.. فافتحي الباب يا.. شهلا.. ألا تسمعين..؟!

وغاب عن الوعي والألم..!

في الصباح الباكر، جاء الرعاة بجثته.. عرفه أهل الناظمية، وشهلا أيضاً عرفته.. راحت تمسح جراحه، وتُمسّد شعره المشعث، المعفّر بالدم والتراب..! تبكي تارةً، وتضحك أخرى.. وهي تقول:

ـ جئتَ أخيراً..؟! عدتَ يا حبيبي..؟ وصلتَ يا مالك..؟ انتظرتُك طويلاً.. فتحت لك الباب.. كلّ ليلةٍ كنتُ أفتحه لك.. أشمّ رائحتك خلفه، وأسمع صوتك تناديني، ولا تأتي.. لماذا تأخرتَ حبيبي..؟ وأين ابننا غريب.. ألم تُحضره معك.. ألم تقل له: إن أمك اشتاقت إليك..؟!

الصباح يتمطّى في أعطاف غريب..! ينشر بين أضلعه زوّادة البقاء..

فما قالته ظلال لإقناع ابنتها، وتخليصه من ورطته، أعاد له ثقتة بنفسه، ورغبته بالحياة..! صحيح أنها لم تسامحه تماماً.. إلا أن قصيدته التي كتبها لها، وقرأها بين يديها، في آخر ليلةٍ قضتها في المشفى، قد فعلت فعلها على ما يبدو..! وبدأت تنسج من جديد، خيوط عباءةٍ تحتويهما.. وتُعيد إلى قلبيهما دفء الوئام..! أو ربما ضربَتُها التي أعطبتْ عينه، كان لها تأثيرٌ مزدوج عليهما.. ووجدا فيها ترميماً لروحيهما..! فعندما فكّ الطبيب ضماد عينه، واكتشف أنه خسر ضوءها، وأنه لن يستطيع بعد اليوم مفارقة النظّارة السوداء، أفزعه الأمر.. وتمنّى في تلك اللحظة، أن يستبيح كلّ نساء الأرض، ثم يفقأ أعينهنّ جميعاً..! قبل أن يتمكّنَّ من إزالة آثاره عن أجسادهنّ..! تخيّل أعداداً لا تُحصى من الأجساد النسائيّة، بكلّ الأشكال والألوان، وجميعها تتوسّل إليه أن يطأها..! مُستعرضةً جمال عريها وجاذبيته..! وهو يتقافز بين الأحضان، حتى سالت شهوته مُلطّخةً سرواله، ارتجف لحظاتٍ على سرير متعته، وعندما استعاد ذاته، أحسّ بالخزي، فبصق مُشمئزّاً:

. تفوه، تفوه على ذقنك.. أنت تستحق ما حدث لك، لا بل تستحقّ أكثر من ذلك بكثير..! وهذا التّشوه قليلٌ عليك..! إلى أين ستقودني أيها اللّعين.. إلى أيّ جحيم..؟ أيّ جحيم..؟! ويضرب الجدار بقبضة يده، ويغرق في بكاءٍ محموم..! لم ينتشله منه إلا صوت ظلال:

. غريب.. كفاك تعذيباً لنفسك، فكلّنا خطّاؤون..

فتح عينيه، لم يُصدّق أنها عنده الآن، وأنها تفوّهت بما يعني أنها سامحته، أو تقبّلت سقطته.. نسي ما كان عليه حاله منذ لحظات، نسي عينه المعطوبة، وارتمى على صدرها ينشج كطفلٍ، أعادوه إلى أمه بعد طول فراق..! بينما غادر الطبيب الذي أخبرها بما آل إليه حاله، ورجاها أن تأتي إليه، فوحدها من تستطيع مساعدته على التماسك.. لم يعرف أيّ منهما متى خرج..

ولا أحسّا بحضوره.. طال بهما المكوث.. قرأ لها قصيدته، التي ولدت على يديّ المأساة:

(على دربك فقط

تخلع الروح نعالها

وتسير حافيةً

بخشوع..

ومن عينيكِ

حبيبتي

تطلع السماء

حارّةً وعميقة..

كأوّل قبلة..!

لاسمك هذا التّلوّن الشّهيّ

فأنت نجمة القطب

يا حبيبةُ

أنّى تكونينَ

فهذا شمال البلاد..

لم تسمع باقي قصيدته، فقد طار ذهنها إلى اليوم المجنون . كما أسمتهُ بعد ذلك .

تذكّرتْ أنها أخذتْ منه كلّ شيء.. أخذتْ ضوء عينه.. فانهمرت عليه، شدّته إلى صدرها، وذرفت على كتفه احتراقها..!

وكما يفعل معظم الناس، عندما تُصيبهم نوبة تفاؤلٍ مفاجئة، انطلق غريب لرؤية أصدقائه القدامى، أو من تبقّى منهم على ذمّة الصداقة، وأفلتتْ رقبتهُ من ربقة غدرٍ قديم . لا لأن غريب لم يشأ أن يختم على عنقه، بخاتم الخيانة التي عُرف بها بين أصدقائه، بل ربما لأن هؤلاء الذين مازالوا معه، لم تكن عندهم عشيقات، يأخذهنّ غريب رغم أنف الحبّ .

دخل مكتب الحزب الذي عمل تحت لوائه ردحاً من الزمن، قبل أن يُطلّق السياسة ثلاثاً.. ويستبدل إيمانه القديم بها، بعقيدةٍ جديدة، يراها الأجدى، والأجدر باتّباعها.. إنها عقيدة اللاجدوى..! فما يُطرح كبيرٌ يُبهر العقول والعيون..! لكنّ الحصاد دائماً هزيل..

وما يُقطف ليس سوى حصّة العصفور بين الصقور..! لذلك طلّق السياسة غير نادم، فاراً من لسانها الطويل المُراوغ..! ورحمها الذي ما عرف قطّ إلا الحمل الكاذب.. على حدّ تعبيره. وهو اليوم يزور أصدقاءه زيارةً ودّية، لا علاقة لها بما كان، لكنّ حرارة استقبالهم، تُؤكد أنه مازال بنظرهم رفيقاً، احتضنوه بدفء مشاعرهم، كأهلٍ يباركون عودة ابنهم الضّال..! لينضوي تحت أجنحتهم من جديد..

تُربكه عبارات التّرحيب، التي تزخّ على رأسه من أفواه الجميع، فيخاطبهم خجلاً:

. والله يا جماعة أنتم بالقلب رغم البعد..

يجيبه أحدهم غامزاً:

. نحن الذين بالقلب، أم السّت ظلال يا غريب..؟!

. ظلال..؟ وكيف عرفتم..؟

. أنت تعرف أنه لا يخفى علينا شيء..!

. لماذا تقولها بهذه الطريقة، ومتى كنا نتدخّل بحياة الناس الشخصية..؟!

. عفواً غريب.. ردّ أحدهم باتّزان: ما يقصده الرفاق أنك أخطأتَ الاختيار، ولولا ثقتنا الكبيرة بك، لشككنا في أمرك..! أنت ثقة يا رجل.. مهما بعدت.. فلم ننسَ بعدُ قصتك مع قريبك..

. أيّة قصة، وأيّ قريب..؟!
. قريبك الواصل.. أيعقل أنك نسيته..؟ ذاك الذي طلب منك باسم الدم المشترك، أسماء الأدباء الذين تعرفهم، من جميع الأحزاب وعناوينهم، لا ننسى أبداً رفضك الموضوع جملةً وتفصيلاً.. رغم أنّه طمأنكَ أن الأمر طبيعيّ، ولا خطورة فيه على أيّ منهم. قلتَ له يوم ذاك:
. هذه ليست شغلتي، أنا فنان ولست مُخبراً، طلبك ليس عندي.. وأنا مستعدّ لتحمّل تبعات قراري..!
هذه الحادثة وما تلاها من ذيول، هي النار التي كشفت معدنك، فكيف نشكّ بك..؟ لابد أنك لا تعرف ما يدور حولك.. مع أن جهلك لا يشفع لك، أليس كذلك..؟
. نفد صبري.. أرجوك قل بصراحة، ماذا تقصد..؟ وما الذي يدور حولي، وأنا لا أراه..!؟
. صديقتك ظلال.
. ما بها ظلال..؟
. إنها.. (إنها من أصحاب الخطوط الجميلة..!)
يُقهقه غريب بصوتٍ عالٍ، كأنه سمع نكتة العصر:
. ظلال ماركسيّة يا رفاق ما بكم..؟ أيعقل..؟!
يتبادلون نظراتٍ تحمل إشفاقاً واستنكاراً، يتقدّم منه أحدهم، يضع يده على كتفه بتعاطفٍ:
. اهدأ يا صديقي.. اجلس لأشرح لك الموضوع.
. أنا هادئ جداً، ألا ترى ذلك..؟ فالموضوع ليس أكثر من نكتةٍ سمجة..!
. لا يا غريب، الموضوع ليس نكتة ولا دعابة.. الأمر جدّي.. فصديقتك تُرافق شاكر حلّوم في مهماته، تُسهّل له عمله، تذلّل العقبات، وتكسر الحواجز التي تعترضه..!
قال غريب وهو يتشظّى غضباً:
. كيف ومتى..؟ أريد دليلاً..
. أتريد دليلاً أكثر من مرافقتها له، إلى بيوتِ النساء الناشطات في مجالات حقوق المرأة، والمجتمع المدني..؟ لم يكن ليستطيع زيارة تلك البيوت، وإنجاز مهمته لولا وجودها معه..
. ألا يمكن أن تكون تلك النساء صديقاتها، وهي تزورهنّ زيارة عادية..؟
يضحك الرجل مستغرباً سذاجةً لم يألفها في شخصية صديقه.. ويُتمتم:
. (ملعون أبو الحب كم يُغيّر نظّاراته..!) ثم يرفع صوته معاتباً: إذا آمنّا أنها زيارات عادية، فلماذا يكون معها شاكر حلوم..؟ لا يا صديقي.. شاكر هو من وجّهها لتصادق أولئك النسوة، لتحقيق مآربه، وهي تُنفّذ ما يريد، ثم تُخطّط لتلك السهرات، ويحضران معاً كصديقين.. وجودها معه يا غريب يُوسّع مجال عمله، يمنحه مساحة من حرية الحركة... لذلك نحن عاتبون عليك، ألم تجد غيرها يا رجل..؟ ابحث عمّن تليق بك، ثم أيُعقل أنك لا تعرف علاقتها القوية بشاكر..؟

. أعرف.. أعرف.. قال محاولاً الظهور بمظهر المُتفهّم.. قالت لي ظلال كل شيء.. علاقتها به قديمة، قبل معرفتي بها، وقد انتهت صداقتهما، تحجّمت إلى أدنى الحدود..

لكن ظلال لا تعرف شيئاً عن عمل شاكر، ولا عن مهماته السرّية، وهدف جولاته بين الأدباء.

. أتظن ذلك..؟ أهي غبية ليخفى عليها موضوعٌ كهذا..؟! ألم تسأل نفسها: لماذا يطلب إليها مصادقة فلانة دون غيرها، ولماذا يُصرّ على مرافقتها، عندما تزورها..؟ ألم تتنبه لنوعيّة الأحاديث التي يتعمّد الخوض فيها..؟! لابد أنها شريكته..

بإشفاقٍ وحزنٍ يقطر صوته:

. أرجوك يا أخي لا تقل عنها ذلك، إنها بالتأكيد لا تعرف ما تعرفون، ليس غباءً.. بل لأنها كانت تحبّه، وكلنا يعرف عين المحبّ..!

. حسناً غريب.. قد تكون على حق.. لكننا نرجوك أن تتأكّد بطريقتك، وأن تُنبّهها إذا كانت بريئة، وإن كانت كما نظنّ.. فلا يليق بك أن..

. لا تُكمل أرجوك.. إلى اللقاء..

ويغادر، وفي داخله تتصارع المشاعر.. آلمه وجود ظلال في موقع ليس لها، هو يُدرك أنها ليست كما يظن رفاقه، لكنه يدرك أيضاً، أنها ساعدت شاكر كثيراً، ولو عن غير قصد، يعتصر الأسى قلبه، ويُفكر:

. يعزّ عليّ أن تكوني طُعماً، أو غطاءً لجيفةٍ، يُعطيها حقّ التّنقل بين الأحياء..! ظلال.. هل أحببت ذاك الكائن فعلاً..؟ أنا واثقٌ من ذلك..! تصوّري.. أنني رغم غيرتي عليك، أتمنى بالفعل أن يكون قلبك، قد استضافه حيناً.. كيلا تكوني بنظري ساذجةً حمقاء..!

فوحده الحبّ يُخفي المثالب والعيوب، يشعّ في كيان العاشق شمساً لا تغيب.. فلا يرى في حبيبه نقصاً..! أما كنت ترينني إلهاً..؟ رغم أني لا أجرؤ أن أكون مجرّد قناعٍ لإلهٍ مُنقرض..! عبدهُ قومه حيناً، ثم نسوه، بفعل قانون التطوّر..! مع ذلك ما كنتِ عرفتِ لوني وحقيقتي لولا رؤيا.. ورغم كل شيء سامحتني، أو كدتِ، وسنعود كما كنا، وربما أكثر.. فكيف لكِ أن تري ذلك الثعلب على حقيقته..؟!

تُرى أمازلت تحبينه يا ظلال..؟ أما زلتِ ترينه.. لقد لمّح لي الرّفاق بما يشبه ذلك.. لا.. لا.. ربما كان لقاؤكما مصادفةً..!

يضع يده على قلبه، يضغط عليه بشدّة، يُحسّ باللظى يحرق شغافه:

. الويل لك مني يا ظلال.. لن أغفر لك رؤيتهُ، ولو غفرتِ لي معاشرة الشيطان..!

طال بهما المسير دون كلام.. كانت تمشي إلى جواره، وكأنها تطأ فراخ عصافير..!
عبرا الكثير من الدروب المُسيّجة بالخضرة بحياديةٍ عالية..! فلم تُعانق الأعين أزرار الورود كعادتها.. ولا داعبت الأصابع أوراقها.. فكلاهما مُستغرقٌ في ذاته، مُتّحدٌ بهواجسه.. يمضغ آلامه وحيداً، وينتظر من الآخر أن يبدأ العتاب، أو يشنّ الحرب.. وأخيراً نفد الصبر في دمها، فسألته بنزقٍ ساخر:
. إلى أين العزم أستاذ غريب..؟
. أخيراً نطقتِ، أحمدك يا ربّ.. كل الرجال يشكرون الله، عندما تصمت نساؤهم، ليتسنّى لهم التقاط أنفاسهم.. إلا أنا فأشكره على نعمة الكلام..!
. أتسخر مني يا أستاذ..؟! يحقّ لك ذلك.. بالفعل يحقّ لك..! أتراك تعتقد أني قد صفحتُ عنك، ونسيت عظيم فعالك، لأني لبّيتُ دعوتك..؟ لا يا حبيبي.. لا.. فالعاشق كالإله يغفر الذنوب جميعاً، إلا أن يُشرك به..!
يرتفع صوته فجأةً:
. أنتِ قلتِها بلسانك..!
تُفاجئها لهجته الجديدة المدعومة بسبابةٍ غاضبة..! فتنزف روحها:
(لم أرتكب ما يخدش علاقتنا، فبماذا يتّهمني..؟! ولماذا يُكلّمني بهذه الطريقة..؟!) تُطرق قليلاً، ثم ترفع رأسها، تُسدّد نظراتها إلى عينيه، وتسحبه من يده، ليجلسا معاً تحت شجرةٍ، طالما شهدت منهما ما يُقلقها، فهذه الحديقة التي اتّفقا على تسميتها: (مأوى الطيور المهاجرة) هي العين الوارفة التي يلوذان بأجفانها من هجير الحياة..! أشارتْ له أن يدنو منها،
ليسكب ما عنده في أذنها مباشرةً.. هزّ رأسه، وتمتم هازئاً:
. تُريدني أن أوشوشها، لأنسى ما أحمله في داخلي من غضب..! وكأني لا أعرف سحر الهمس وتأثيره..! لكن لا.. لن أستجيب لها.. سأحرمُها هذه المرّة عبق أنفاسي التي تحبّ..!
ملأها شروده، وتجاهله غيظاً وترقّباً..! غير أنها أمسكتْ نفسها، كمّتْ فم بركانها.. لأنها تُدرك تماماً أن رجولته لم تختمر بعد..! وأنّ الأنثى التي تسكنه هي الأقوى..! هي التي تُمسك ملفّات القضايا الداخلية، والجزء الأهم من الخارجية..! تلك الأنثى الخبيثة المُمسكة بمقاليد أموره بيد من دهاء.. تتمنّع الآن..! ظنّاً منها أن ظلال ستحترق، إن لم تلامس شفتاها وجهه. تتملّى ملامحه.. وتفكر:
.(أمقتُ هذا المجتمع النسويّ، المحكوم بقوانين ذكوريّة..! مجتمع أعرج.. نسي الرجال فيه رجولتهم.. ونسيت النساء الأنوثة.. أجّلْنَها ليلتقطن راية الحياة، قبل أن تُمرّغ..! فلا هنّ عشن

نساءً كما تفرض الطبيعة، ولا رجالاً كما تُملي عليهنّ الأعباء، والواجبات المُستجدّة..!
بي توقٌ لا يُقاوم للقاء رجلٍ حقيقيّ قبل السفر الأخير.. أشتاق رائحة الرجولة تهزّ أعماقي..! رجولة صرفة بريئة مما يُكدّرها، ويشوب تعاليها..)
تُغيّر جلستها هرباً من خواطرها.. تقترب منه أكثر، حتى تلامس شفتاها أذنه، تهمس له:
. أعجبني أسلوبك الجديد في الدفاع عن نفسك..!
انتفض مُستنكراً ما يسمع، وهدر في وجهها:
. لستُ اليوم في معرض الدفاع عن نفسي.. أنا مذنبٌ.. نعم.. مجرمٌ إذا أردتِ.. لكنك لستِ أفضل مني..!
. ماذا.. كيف تجرؤ على مُجرّد المقارنة..؟! إن كنتَ تقصد عينك، وما أصابها، فأنت لم تنسَ بعدُ جريمتك.. وتعرف أنك تستحق عقوبةً أكبر..!
وينفطر قلبها ألماً، يستدرّ دموعاً لم تشأ أن تسفحها في حضرته، فقد عاهدت نفسها أخيراً ألا تضعف أمام رجل، لكن سدودها انهارت بأسرع مما توقّعت، وفاض ما احتبس وراءها..!
. أتبكين..؟ قالها بتهكّم.. امرأة.. تبقين امرأة.. ولو ملكتِ مفاتيح كنوز الشعر..!
. أجل امرأة.. وأعتزّ بذلك..أهي تهمةٌ أيها الفنان..؟!
. دعينا من كل هذا، فما لديّ اليوم لا يحتمل التّأجيل.
. ماذا لديك..؟ قل بسرعة ودون مداورة.
. سؤالٌ واحدٌ، أريد عليه جواباً صريحاً: متى رأيتِ شاكر حلوم آخر مرة..؟
أربكها السؤال.. ليس لأنه صعب، أو مستحيل الحلّ، بل لأنها تعرف تماماً أن غريب يكره اسم شاكر، ويهون عليه أن تلتقي بكل رجال الأرض إلاه.. بلعت ريقها بصعوبة، تنهّدت بعمقٍ في محاولةٍ لكسر حدّة الموقف..
فهي واثقةٌ الآن أن الأمر قد وصله، لكنها لن تكشف أوراقها، حتى تفهم كل شيء، وتُمهّد للموضوع كما ينبغي، قالت بلهجةٍ تحاول أن تكون غاضبة:
. أتشكّ بي..؟ أيحقّ لك أنت.. أن تشكّ بي..؟
بحزمٍ أجابها:
. يحقّ لي، أو لا يحقّ، هذا ليس موضوعنا، متى رأيته آخر مرة..؟ أجيبي دون تفكير.
. لا علاقة لك بذلك.. أنا حرّة في علاقاتي..
. حرّة.. حرّة.. لكن ليس مع شاكر، أفهمتِ..؟ لن أسمح لكِ أن تُدنّسي ظلال..!
سرتْ كلماتهُ في عروقها، كالوسن اللذيذ في خلايا مُتعبة..! أغمضت عينيها بحبور.. وتخيّلت وجهه الحبيب، في لحظة حبٍّ قبل العاصفة..! فأنشدتْ روحها:
(إنه يخاف عليّ إذاً.. يحبني.. لهذا لم أستطع الابتعاد عنه، رغم كلّ ما حدث..!)

وأشرق وجهها، شعّ في عينيها بريقٌ، فهم منه أنها باتت قريبةً كما يتمنى.. فلانت لهجته:

. ظلال.. أرجوك حبيبتي.. صارحيني.. هل من جديد..؟

. بصراحة.. اتصل بي شاكر، وطلب مقابلتي، قال: إن الأمر مهمّ للغاية، ونحن في النهاية أصدقاء، لبّيتُ دعوته، والتقينا في مكانٍ عام.

قال، والغصّة تُطبق على عنقه:

. وما هو هذا الأمر الهام..؟

بهدوءٍ واتّزانٍ أجابته:

. الأمر جدّ بسيط، فالقضية باختصار: أنه يتودّد إليّ، ويحاول إعادة ما كان بيننا، لكنه دخل من بابٍ جديد، فهو يريد أن يساعدني..

. كيف.. وهل تحتاج الظلال إلى لهاث الكلاب المتعبة..؟! أرجوكِ اختصري فقد نفد صبري..

. قدّم لي عدّة كتبٍ، وطلب إليّ أن أكتب عنها، ووعدني أن تُنشر الدراسات في الصحف، سألته:

. وإن لم يُعجبني الكتاب، هل أكتب عنه..؟ قال:

. ستعجبك الكتب جميعها، نحن واثقون من ذلك.. وإن ورد فيها ما يُثير حفيظتك، فتغاضي، وغضّي الطرف عنه.. فقد اخترناك لمهمةٍ، يتهافت عليها الكثيرون..!

سألتُه باستغرابٍ، وقد بدأ الشكّ يأكلني:

. مَن الذين اختاروني..؟ ما الأمر شاكر..؟ قل بصراحة.

أجابني بجملٍ مُفكّكةٍ، تقطع ضحكاتهُ ما اتّصل منها:

أنه هو من اختارني لهذه المهمة، وهو من اختار الكتب، ولا شيء في الموضوع إلا (تنفيعة) كما قال..!

. وما هي هذه الكتب.. ما عناوينها.. هل قرأتها..؟

. انتظر.. معي في محفظتي اثنان منها.

تفتح محفظتها، تُخرج الكتابين، يتناولهما غريب بسرعة، يقرأ عنوان الكتاب الأول، واسم المؤلف، ينظر إليها، ورأسه يتأرجح حسرةً واستنكاراً:

. ألم يُلفت انتباهك هذا الاسم.؟ ألا تعرفين كيف يكتب..؟! ألم تقرئي له..؟ وهذا العنوان.. ألم يدفعك لرمي الكتاب في وجهه، أو في القمامة..؟

. رويدك حبيبي.. فما أثارك، وآلمك، أثارني، وآلمني ربما أكثر منك.. أحسستُ أني صغيرة في عينيه ليعطيني هذه الكتب بالذات..! لكني سأدرسها كما أراها أنا، لا كما يريد شاكر ومن معه..

. بفرحةٍ تقطر ألماً هتف:

. إذاً.. تعرفين..؟

. عرفتُ مؤخراً.. صدّقني، فأنا دائماً أصل مُتأخرة..! ربما لأنني مازلت أظن بالناس خيراً..

وأتعامل معهم على هذا الأساس، لكني مجروحة الآن، مجروحةٌ حتى النخاع.. لم أكن أتصوّر يوماً أن شاكر يستهين بي، ينظر إليّ بعينٍ صغيرة.. كان يراني المكافأة التي وعدته بها دمشق، بعد طول انتظار ونضال.. لأجلي تزوجتْ دمشق إله الآلهة، لا طلباً للمتعة والمجد.. فهما طوع أمرها.. زُفّتْ إليه لتُنجبني، وتُرضعني كبرياء ثدييها.. وتُهديني له..! هكذا كان يراني.. فمتى هنتُ في عينيه، ومتى تحوّلتْ قلاعي الشامخات بيوتاً وهميّةً، على شاطئ مجنون..؟!

يقترب غريب منها، يمسح دموعها بأصابع ظمأى.. ويهمس:

. لا عليك يا حبيبة.. المهم أنك فهمتِ كلّ شيء، وإن شئتِ أعطني هذا الكتاب، وأنا سأكتب عنه دراسةً ترقص لها فرائص شاكر إلى يوم الرّقص..! واكتبي أنت عن كتاب آخر.. كوني أنت.. ولا تغضّي الطرف ولا القلب.. وليكن ما يكون..

تعانقت الأيدي، وافترّت الشفاه عن فجرٍ جديد.

_ ٥٠ _

لا أحد يعلم لماذا أثارت مقالة غريب هذه الزوبعة في مقاهي الثقافة..! ردودٌ تُسفّهُ المقال وصاحبه على صفحات الصّحف.. وآلاف النسخ تُباع من ذاك الكتاب خلال عدّة أيام..! لم يتوقّع غريب أن تفعل دراسته لهذا الكتاب ما فعلت، فصل هاتفه، فقد أتعبتهُ الاتصالات الكثيرة، التي تؤيد آراءه، أو التي تنقضها، وتُهاجمها، استلقى على سريره، عقد يديه وراء رأسه، وفكّر:

(إذاً مازالت الثقافة في بلدنا بخير.. والناس يقرؤون، يحاورون، يُحاكمون ما يُقال.. صحيح أنهم ينطلقون من أرضياتٍ وثقافاتٍ مُتباينة، ويُعبّرون عن مصالح قد تكون دونيّة، لكنهم في النهاية يقرؤون، ويحاكمون، وهذا وحده يُبشّر بالخير..)

يسرح قليلاً، ثم ينتفض غاضباً، ويعلو صوته، وكأنه يُحاكم أحدهم وجهاً لوجه:

. لكن أكثر ما يُكتب في الصحف، لا يقرؤه إلا القليل من المهتمين.. فلماذا تثير دراسةٌ لكتابٍ بهذا المستوى، وهذا الفكر زوبعة في البلد..؟! الأمر ليس طبيعياً، لابد أن:

(وراء الأكمة ما وراءها..!)

_ ٥١ _

اتصالٌ مربكٌ يأتيه هذا الصباح:

. أنت بطلٌ يا أستاذ..! ونحن نريدك، نريد أن نُكرمك..

يتثاءب بتكاسلٍ، ويُغلق هاتفه، دون أن يُكلّف نفسه عناء الإجابة، ظنّاً منه أن المتّصل عابثٌ..
يُعاود المتّصل طلبه:
. أستاذ غريب.. لا تُغلق الخطّ، فنحن نريدك كما قلتُ لك منذ لحظات.
. من أنتم، وماذا تريدون..؟
. نحن..؟ عفواً لا أستطيع التحدّث بحرية على الهاتف.. سأعطيك العنوان، وعندما نلتقي نتكلّم براحتنا، ولن تكون إلا راضياً..!
تعب غريب، حتى اهتدى إلى مكان اللقاء، لكنه سرعان ما تناسى تعبه وارتباكه، فالمطعم كما وصفه فور وصوله:
. تحفةٌ اجتهدت أصابع وقرائح المهندسين لإبداعها..!
ضحك الرجل مستبشراً، وهو يقول:
. قيمتك أكبر بكثير أستاذ غريب..! لكننا نحبّ دائماً رؤية أصدقائنا في أماكن هادئة.. تريحهم وتريحنا..!
. أصدقاء..؟ وهل أصبحتُ من أصدقائكم بضربةٍ واحدة..؟!
. أجل يا أستاذ.. فنحن نُتابع أخبارك منذ مدّة، ونقرأ ما تنشره في الصحف من أشعار ومقالات، كما أننا تابعنا المعرض الفنّي الذي اشتركتَ فيه، وأدهشنا أسلوبك في الرّسم..! وبعدما قرأنا مقالتك الأخيرة، تأكدنا أنك في صفّنا..! فقد أذهلتنا جرأتك..! ويسرّنا أن نعمل معاً..
باستغرابٍ يشوبه القلق.. سأله:
. من أنتم..؟ قل لي حتى أفهم أين أنا، وبماذا عليّ أن أجيب..؟!
. لستُ مُخوّلاً بالإفصاح، غير أني أستطيع أن أقول لك: إننا متواجدون في كل مكانٍ.. ونعمل لأهدافٍ بعيدة.. وقد وضعناك في امتحانٍ دون أن تدري، ونجحتَ فيه..! فنحن لا نقبل إلا الكبار..!
. أيّ امتحانٍ تقصد..؟ قل ما تريد دون مواربة، وإلا فأنا مضطرٌ للمغادرة حالاً.
. الكتب التي وصلتك عن طريق صديقتك..! فقد قصدنا ما حدث تماماً..!
ولا أخفيك أننا راهنّا عليك، وأطربَنا ما كتبت..! لأنه يصبّ في مجرى أهدافنا.. فالمهمّ في الأمر هو الشهرة، والانتشار للكتب التي نريدها..!
شرد لحظاتٍ يحاول أن يستعيد خلالها تفاصيل لقائه بظلال في ذلك اليوم.. ثم انتفض كمن لدغه عقربٌ:
. أتعرف ظلال هذا الأمر، أهي منكم..؟!
. في الواقع ليس بعد، لكن البركة فيك، أنت ستضمّها إلينا، فهي أيضاً مفيدةً لنا..!
. أتقصد إذاً أن شاكر حلوم معكم..؟

يضحك الرجل بزهوٍ، وهو يقول:
. شاكر وغيره كثيرٌ ممن لا تتوقّع..!
يضحك غريب ساخراً.. ويقول:
ألم تقل منذ لحظات أنكم لا تقبلون إلا الكبار..؟!
فيجيبه الرجل باتزان:
ألا تحتاج الأسفار إلى منْ ينقلها..؟!
. لكن شاكر توجّهُهُ معروفٌ، وارتباطه لا يخفى على أحد، رغم أنه يظن غير ذلك..
يسترسل الرجل بضحكته الواثقة، وهو يربت على كتف غريب، ويهمهم:
. كلّهُ محسوب، وكلّه بأمرنا..! أم تظن أننا نلعب..؟ هل اطمأنّت نفسك الآن..؟
يهمس غريب لنفسه:
. يظنّ المُغفّل أن وجود هذا التّافه معهم يُطمئنني..! الآن فهمتُ سرّ كُرهي الشديد لشاكر..! اللعين يلعب على كلّ الحبال..! يُشارك الفريسة في التهام الطّعم ليُشعرها بالأمان.. ثم يشارك الصّياد في التهامها بعد ذلك..!
. أين ذهبت أستاذ غريب..؟ الموضوع لا يحتاج كلّ هذا التّفكير..
. نعم.. نعم.. أنا معك.. لكني أريد أن أفهم: من أنتم بالضبط، وما برنامجكم.. وإلى أين تسيرون..؟
. ستعرف كلّ شيءٍ في حينه، لكني الآن سأضع بين يديك، بعض ما قد تجنيهِ، إذا صرتَ لنا.
استمرّت الجلسة المُغلقة بينهما ساعتين بعد ذلك، وعدهُ الرجل خلالها، بأن يتسلّم رئاسة تحرير إحدى الصحف الهامة في دولةٍ مجاورة..
حلّق غريب على أجنحة الخيال، ورأى نفسه يمتطي سيارةً فارهةً، تنزلق الشوارع تحتها.. ليصل إلى قصرٍ يعجّ بالجواري من كلّ جنسٍ ولون..!
طار بخياله إلى بلدانٍ وعوالم لم يكن يتوهّم زيارتها، حضر اجتماعاتٍ، وشارك في حواراتٍ، وعاد مُحمّلاً بتوصياتٍ أكبر مما اعتاده، وعرفه في رحلة حياته.. لكنها توصيات إنسانيّة في النهاية..! بالإضافة لمُكافئاتٍ ماديّة ومعنويّة مُجزية..! غير أنّ بساط خياله وأحلامه، هبط اضطرارياً، إذ وقع على أسنّةٍ مزّقت ثيابه وجلده..! جرّدتهُ من كلّ ما يستره، من رأسه حتّى أظافر قدميه..!
أخبره مُحدّثه أن تلك الأسنّة لا مفرّ من المرور فوقها، لتُجرّدهُ من كلّ ما يُعيق حركته..! وتُنظّفه من رواسب الماضي التي تُكبّله..! فالنّظافة هنا مطلوبة حتّى من جلدهِ..! ليلبس جلداً جديداً، فُصِّل في مشغلهم..! عند ذلك يكون له ما يُريد من أُكلهم.. ويقع على ما تشتهيه نفسه، مما رآه في صندوق دنياهم، وهو يسبح على بساط ريحهم..!!
تنهّد الرجل بارتياح، وهو يصافح غريب مُودّعاً:

. إلى اللقاء أستاذ غريب.. لقد أتعبتني.. لكن تعبي لم يذهب جُزافاً، على كلّ حال أنت تستحقّ ذلك.. فنحن خبرناك جيداً، وأدركنا أنك لنا، لأنك تُشبهنا..! لكن انتبهْ لنفسك، فدخول عالمنا أزليّ.. لا عودة بعده..! إلى اللقاء..

. إلى اللقاء سيدي.

_ ٥٢ _

هدأت العاصفة بين العاشقين، لكنها خلّفت في لحظات جنونها خراباً، وأشلاء حياة.. وقفت ظلال على أطلال دنياها، وعزّها السّالف.. تتحسّر على ساريةٍ مكسورة الظهر هنا.. ورايةٍ ثكلى هناك..! جمحت في قلبها أحصنةٌ، ثم كبت بانكسار..!

دمعت عيناها جمراً، إذ تيقّنت أن العاصفة، لم تستطع ابتلاع ما صنعتهُ من خراب..! كانت تظنّ أن مشكلتها مع شاكر، وما تبعها من أحداثٍ قد التهمت كلّ ما سبقها.. لكن هيهات.. فالجرح ينقّ داخلها، كلما خلت بذاتها، أو جلدَتْها عينا رؤيا الحزينتان..!

ما العمل إذاً وهي تُكابد نارين: نار حبّه الذي لم تستطع منه خلاصاً، ونار غدره الذي لم تجد إلى نسيانه سبيلاً..؟!

فكّرت وهي تترنّح بين الحطام:(حبّي لك يستطيع أن يمتصّ كلّ ما في العالم من كدر، وقد يهضمه، ويُحوله شراباً سائغاً.. لكن.. أتتوقّف نفسك عن ضخّ الكدر، قبل أن يُعلن حبّي لك حالة الإشباع..؟! ليتني أستطيع أن أثق بك من جديد، أن أصفح عنك، وأمحو عن جدران قلبي ندوب جحودك ولو بالكيّ..! ليتني لم أنتقم منك تلك الليلة، فلو أني تركتك تكابد عذاب الضمير، لكان ذلك أجدى، وأنفع في تطهير روحك..! وربما استطعتُ أنا أن أكون أقوى، في مقاومة جرثومة حبّك..! فلولا انتقامي بذلك الأسلوب البدائي المجنون، لكانت روحي قد طوّرت جهاز مناعةٍ ضدّ الحبّ.. جهازاً لا تستطيع كلّ دموع العاشقين، ولا ابتهالاتهم، وقصائدهم أن تنال منه..! لكن هيهات..! فكلما نظرتُ في عينيك، قتلتني تلك العين المعطوبة، أدمتْ مسامات روحي..! ودفعتني لاحتضانك، وإغراقك بأنهار حبي.. تلك العين ربطتني معك بسلاسل الأزل..! فأين المفرّ..؟ ليتك تنتقم مني يا غريب، ليت حقدكَ عليّ يطفو على السطح، فهدوؤك يُخيفني..! ترى ماذا تُبيّت لي..؟ وأيّة مصيبة تطبخها على نارٍ هادئة..؟

لا أستطيع أن أصدّق أنك سامحتني، وأنك لا تتحيّن الفرص لتردّ لي الضربة ضربتين.. مع أنك طمأنتني مئات المرات، بتصرفاتك، وكلماتك التي تؤكد أنك نسيت الموضوع، واعتبرتَه تكفيراً عن جريمتك.. أخاف انتقامك المؤجلّ، أخافه..!

لكن الخوف الأكبر في حياتي، هو خوفي من مواجهة عينيّ رؤيا..!

يا ويلي.. الناس يقعون بين نارين، إذا طاش حجرهم، وجارت عليهم الظروف، أما أنا فواقعةٌ بين عينيّ ابنتي القادرتين على توليد نيرانٍ، تصلح روافدَ لنار الجحيم..! تشويني عيناها كلما نظرتُ فيهما، أرتجف أمامها، تتساقط عني طبقات جلدي.. حتى باتت روحي قاب نظرتين أو أدنى من السّعير..! أمّا عينا غريب.. فويلي عليهما، وويلي منهما..! عينٌ تبكي خرابها، وأخرى تبكي حبها، عينٌ تخترقني سهام حقدها، وعينٌ تُناغيني بغمغمات حبها..! ويلي من حصار الأعين ويلي..! ويلي من يميني ومن شمالي، من خلفي ومن أمامي..!

الخراب يلفّ عالمي، والتّخبّط بات بوصلة طريقي..! فلا أنا قادرةٌ على أن أكون أماً، ولا حبيبة..! أخشى أن ابنتي تشكّ بي، أرى ذلك في عينيها، وشكّها حطّم طوق النجاة، الذي كنتُه.. فنحن الآن غريبتان في بيتٍ واحد..! وغريب.. كيف لي أن أطمئنّ إليه، وعلاقتي به محكومةٌ بمشاعر مُتضاربة، مُتناحرة، تصله جميعها.. فلا أنا ممثلةٌ لأتقن التّلوّن، وإخفاء أحاسيسي، ولا هو عاجزٌ عن استقبال ذبذبات نفسي الممزّقة..

قطع

طريقُ (المسكينة العنقاء) شفقٌ أو نار..! عشقُ ظبية الطاهر.. وشغف شهلا التي أرضعتني حليب ماعزٍ من ثديٍ أعجف..! وأنا الغريب.. أرسم، أكتب، أو أحلم..

يا (العنقاء المسكينة)..!

يهمّ بالريشة.. الفرشاة.. القلم.. تتلعثم حركاته.. تعشى.. فلا يتمكّن من أيٍّ منها..! يهجم على اللوحة، تُذهله مساحتها البيضاء التي تزداد اتّساعاً كلما تفاقم عجزه..! يصرخ:

. أنا لا أجرؤ.. لا أستطيع ملامسة كل هذا البياض..

تتردّد ضحكات جدّه بسخريتها المالحة في فضاء المكان.. يتلفّت ليعرف الزاوية التي يقف عليها عساف، فيجد نفسه مُحاصراً بظبية وشهلا.. ظلال ورؤيا.. وتصمّ أذنيه صرخاتٌ متناقضة: ارسم.. اكتب.. تعال إلى صدري.. اغرب عن وجهي.. وتتعانق كل تلك الأصوات بضحكات عساف.. يجنّ القهر والحيرة في كيانه.. يدور في أنحاء غرفته كمجذوب.! ثم يحزم أمره، يجمع رسوماته، يُقطّعها، ويرميها في سلّة مهملاته..

تصعقه النار التي شبّتْ في أشلائها..! يتشظّى صدره أصواتاً ترعش الجدران، وتطرد أشباح زوّاره:

. ربّاه من أين ولد كل هذا الأوار..؟! ولماذا تخرج لي النار.. أهي قدرٌ..؟! أم أن روحي شيطانٌ يتعشّق الحرائق..؟!

تخرج قهقهات عساف حزمةً ناريّةً من كلّ الجهات. ينقضّ عليه غريب، يدعكه، يعجنه بغضبٍ

محموم، ويرميه في النار.. غير أن قهقهاته تعالت..! ازداد لهيب جنونها.. وخرجت صورته من الأتون.. لتملأ أرجاء المكان.. وتبتلع كلّ شيء.

ـ ٥٣ ـ

بعد وفاة مالك بقي قصر عساف مهجوراً.. تنفخ الريح في ممرّاته، وتهزّ ستائره التي تُلوّح للفراغ بلا مشاعر.. عبر نوافذ مُشرعةٍ أو نصف مُخلّعة..

لم يُفكر أحد من الفلاحين بدخوله أو السكن فيه رغم حاجة بعضهم لمأوى.. بل إنهم كانوا يُحاذرون المرور قربه.. فإن اضطروا كانوا يرسمون إشارة الصليب على صدورهم، أو يبسملون ويقرؤون سور التّعاويذ التي تقيهم من الشرور.. مُشيحين عنه، مُصمّين آذانهم عن أصوات الأشباح التي يلدها صفير الريح في ردهاته ومداخله..

ويزعم بعضهم أنه يسمع من ذلك البيت صوت برهوم الوهب صاحب الجرّة الذي حيّرهم اختفاؤه.. وأصوات ثكالى تندب أكبادها الضّائعة.. ونواح أناسٍ سافروا إلى بلادٍ بعيدة كما أُشيع يوم ذاك..!

ـ ٥٤ ـ

ضبابٌ يلفّ عالمه، يتكاثف على روحه، تضيق عليه دنياه..! فظلال تُغرقه بفيء حنانها حيناً، وينكمش عنه ظلّها أحياناً، فيحرقهُ هجير الحرمان..! لم تستطع أن تنسى أنه استلّ ضلعاً من أضلاعها، وطعنها به في القلب..! تهمدُ نيرانها في لقاء، وتهبّ في آخر..! يعلو أوارها، حتى تلتهمه، وتسبي إحساسه بالأمان..! رنين هاتفه موجعٌ.. إذ يأتي في غير أوانه، يرفع السمّاعة بتأفّف:

. ألو.. أهلاً.. من يكلمني..؟ لا.. لم أعرفك.. آ آ آ.. أنت من كلّمني المرة الماضية، ودعاني إلى المطعم الفاخر..! أهلاً، أهلاً.. لا. لا.. أنا لا ألمّح لتكرار الدعوى، لكني تذكّرتها، لأن ذاك المكان لا يُنسى..! ماذا..؟ تريد لقائي في ذات المكان..؟ عفواً.. لكني مشغولٌ اليوم.. أرجو تأجيل الموضوع.. لا.. لا.. لن أنسى أنكم حريصون على وجودي معكم..! شكراً، إلى اللقاء..

يُغلق سمّاعة الهاتف، يبدّل ثيابه، ويغادر، يسير على غير هدى، وطبقات الضباب تتزايد قتامةً، وتتهالك على كتفيه.. ينوء بها، يحني ظهره، ويحثّ الخطا كعجوزٍ استطاع بعد طويل عناءٍ أن يفوز بقبر..! يخاف عليه أن يُخطف منه، فيحمله على كاهله، ويجري به هارباً إلى قدره..! لم يدرِ كم من الأوراق الهاربة من سجونها صفعت وجهه، وكم من الرؤوس الملونة عبرته.. كم من

الشوارع نادمت وحشة قدميه، حتى وصل إلى كراج الانطلاق، تفرّس في الحافلات، مُستغرباً وصوله إلى هذا المكان، دون قصدٍ واعٍ منه..! إلى أين..؟ يسأل نفسه.. والجواب لا يحتاج عناء، لحظات وتنطلق به الحافلة، يسترخي في مقعده، يُغمض عينيه، يُغلق مسامات روحه كاملةً، يسدّ الطريق على أية نفحةٍ تقتحم عالمه..! هالةٌ مبهمة تُغريه بالرحيل إليها، وولوج عالمها، وهو لا يُريد لأيّ طارئ أن يُفسد عليه متعة انتظارها، ودخول مجالها..! يترجّل على مشارف القرية التي عاش فيها طفولته الأولى، يمتطي تلّةً تُحاذي الطريق، يُطلّ منها على البيوت المتناثرة بفوضويةٍ مُحبّبة..! قلبه يطير إليها، ترتجف أوصاله، يحسّ حركةً جديدة داخل جسده..! أنهارٌ مجنونةٌ تجري، يكاد يسمع هديرها..! شلالات تصبّ.. وقنابل مضيئة تنفجر أرحامها عن مئات الأجنّة الطّافحة بكل الألوان، والصور البديعة..! صور ومشاهد تتقافز أمام عينيه، مُستعرضةً كنوزها الثرّة.. باسطةً أجنحتها الغضّة، تحمله عليها إلى سنواتٍ خلت، مضت.. والآن يبدو له أنها لم تمضِ..! هذه الأمكنة لن تتحوّل في خافيته أطلالاً دارسة، يقف عليها لحظاتٍ يسفح بعض الدمع، ويمضي إلى مستقرّ آخر..! همست روحه:

. آهٍ ما أحلى لقاء الذكريات..!

راح يعدو بين الحقول.. طفلاً جذلاً رمى عن كاهله عبء عمره التّعب، وعاد يرفل في مدارج الطفولة العذبة، حتى أقعده التعب تحت تلك الشجرة.. أسند ظهره إلى جذعها، وعبّ نفساً عميقاً، أدهشته الرائحة التي تسرّبت إلى روحه..! تنشّق عبق المكان مُحاولاً اكتشاف ماهية تلك الرائحة..! بحث عن أصلها، عن مصدرها دون جدوى، راحت يداه تعبثان بالتراب.. تعبيراً عن حيرةٍ استبدّت به، فهذا العطر عطره.. لماذا لم يشعر به إلا هنا..؟! وكيف يضجّ به هذا المكان..! صرخ فزعاً:

(أيكون مسقط رأسي، ومصرع أمي هنا.. ؟)

وقف حائراً..! دار حول الشجرة بحثاً عن مَعلمٍ يهتدي به إلى ما يريد..

(والدي وصف لي مكان ولادتي..)

سرح خياله لحظاتٍ في ملكوت الماضي، طابقَ بين صورٍ قديمة، وصورةٍ يراها الآن حيّةً.. تنبض بنجيعٍ مازال طازجاً..! أجل.. تهدّجت روحه:

(هي رائحة الدم..! هنا ولدتُ إذاً.. وهنا قُتلتْ أمي.. مازال رحم هذه الشجرة أميناً على بقايا روحها..!)

جثا يتفحّص ذرات التراب بقلبه، بعينيه، وأصابعه المرتعشة..! ارتعدت أوصاله إذ رآها واقفةً أمامه..! لا يعرف كيف..! بهيّةً كانت.. كأفروديت وهي تغادر بطن الأمواج.. بعد أن طعن أبوها أرمانوس رحم المحيط بحربته المُثلّثة..

(ترى أية أمواجٍ تمخّضت عنكِ أمّاه..؟! لتنبثقي أمامي الآن مهرجان ألوانٍ يغتسل بالضياء..؟!

وهذا الوليد على صدرك يمصّ منه الحياة.. أصابعه الغضّة تُعابث قبّتين من عاج، ويسيل الحليب.. أنهاراً يسيل..! يُضمّخ التراب.. وأصابع الوليد تتابع العزف على قيثارة الحياة..)

بدأت أصابعه تتغرس في التراب الجريح، المُندّى بالدم والحليب..! وتعجنه امرأةً.. أماً..! تمثالَ امرأةٍ تفيضُ أنوثتها مهابةً، وتفيض دموعه توقاً لعناقها، والاتحاد بها.. يرمقها بحبّ، ويداه على كتفها:

(اسمعيني أماه.. أنا الغريب الذي غادر رحمك باكراً، غادره ولمّا يشبع من دفئه.. طُرد منه.. وفي كيانه توقٌ للبقاء داخله دهوراً..! أماه.. بردانٌ أنا.. دثّريني.. عظامي ترتجف عرياً وشوقاً وخوفاً..! جائعٌ أنا إليكِ.. فكيف رميتني هنا، ورحلتِ..؟!

أما كان بك شوقٌ لوجهي، لعينيّ تبسمان لكِ.. لثغري يُطبق على حلمة ثديك..؟! كيف لم يستمهلك الشوق لأراكِ، وتريني..؟! لماذا لم يمنعك شوقك إليّ من الموت..؟ أصحيح أن الأم تحب ابنها أكثر مما يحبها..؟ لا أظن ذلك.. سامحيني أماه..! فلو كان ما يُقال حقيقةً، لبحثتِ عنّي كما أبحث عنكِ.. فأنا يا ظبية أفتّش عنك في وجوه النساء، في قلوبهنّ وفي مسامات الأرواح..! كلما رأيتُ عاشقةً طرتُ إليها، وروحي تزقو طرباً: إنها عاشقة.. فلابد أن أجد فيها ظبية، أو بعضاً منها.. خرّبتُ عشرات الأعشاش الدّافئة في غمرة بحثي عنكِ.. وعدتُ صفر القلب، إلا من جرحٍ لا يلتئم..! خسرتُ ثقتي بكل النساء، فكلهنّ فارغاتٌ منكِ..! لم يعد يعنيني أن أضاجع ليلى أو صباح أو هند، فكلهنّ سواء..! عروشهنّ جميعاً خاويةٌ.. خاليةٌ منكِ..! ولأن ظبية لا تسكن أيّاً منهن، فهنّ جميعاً لا يعرفن معنى العشق..! فلماذا أُخلص لأيّ منهنّ..؟ الإخلاص للخائن خيانة..! إلا ظلال.. وحدها ظلال تحملك في روحها.. لكنني قتلتها.. ذبحتها.. أنا قاتلٌ يا ظبية..! قتلتكِ داخلها.. فما عادت قادرةً على الصّفح عنّي.. كيف تصفح عني، وقد سفحتُ دماءكِ، وخنقتُ عينيكِ في كيانها..؟! سامحيني أمي.. ففي غمرة بحثي عنكِ، وفشلي في لقياكِ اعتدتُ الخيانة.. استسغتها فما عادت تؤلمني..! فكلما غادرتُ امرأةً طيّبتُ خاطري، وسكّنتُ وجع ضميري بكلمتين:

(ظبية ليست هنا فلماذا أبقى..؟)

ماذا أفعل الآن، وظلال تفشل في نسيان ما فعلتُهُ بها..؟ رغم بشاعة انتقامها..! انظري أمي.. ألا ترين هذه العين التي كانت ثمناً لجنوني..؟ لكنه على ما يبدو لم يكن كافياً..! أتكون عيني ثمناً بخساً لحماقةٍ ارتكبتُها في غمرة بحثي عنك..؟! أم أن الجسد بكلّ أعضائه، لا يرقى إلى مستوى الروح، ولا يُقايَض بها..؟! ظلال تحاول أن تنسى ما حدث، لكنها تفشل.. فكم شبّت عواصف النيران في روحها، ونحن في ذروة الوئام.. فحرقت جدران معبدنا.. عرّتنا.. لسعت جلودنا، وسخّمت وجوهنا..! ماذا أفعل.. أمّاه.. لتكوني لي..؟! فأنت وحدك الظلال..! وحدك يا أماه..!)

يداه تعتصران التمثال بانفعالٍ شديد، تطحنان أجزاءه، تُحوّلانه كومة تراب، يُدخل رأسه فيها، ثم يرفعه لتتناثر ذرّاته على جسده، يفرك جسده بذاك التراب، كأنما يغتسل به من خطايا عهودٍ مضت..!

لمسةٌ حانيةٌ على رأسه تُعيده لذاته، ينتبهُ من ذهوله، ينفض التراب عن رأسه ووجهه، يفرك عينيه، ويُخاطبها بحياد:

. من أنتِ..؟!

تقترب منه، تضمّه بشراسة إلى صدرها، ودموعها تُخضّب وجهه بالحناء:

. (أنا.. أنا أمك يا غريب.. أمك شهلا.. أنسيتني يا ولدي..؟)

يتفرّس مليّاً في قسمات وجهها، في عينيها الحانيتين، وشفتيها الواجفتين:

. أجل.. إنك أمي شهلا، يدفن رأسه المُثقل بالتراب في عنقها، يتشمّم منه عبق ماضيه.. لماذا أنت هنا أماه..؟

. كنتُ في طريقي إلى النسيان، صوتُك ناداني، أغراني، حاولتُ تركك، ومتابعة طريقي، لكن قلبي لم يستطع المغادرة..! وقفتُ أمامك، أبحث فيك عن شخصٍ، أحسّ أني أعرفه جيداً.. نظرتَ إليّ، أطالت عيناك الوقوف على وجهي، أخافني منظر أجفانك الساكنة.. التي لا ترفّ..! وعندما سمعتك تُخاطبني:

. بردانٌ أنا أماه.. جائعٌ إليك..!

تيقّنتُ أنك ابني الغائب غريب.. هذا الصوت المتعطّش أبداً للحياة، أعرفه جيداً.. ومازالت أصداؤه تتردّد في عالمي.. سلبتَ قلبي يا بنيّ..! وفرحتُ بعودتك، فرحتُ لأنك مازلتَ تذكرني، وتناديني أماه.. لكنك عندما قلتَ:

. لماذا رميتني هنا ورحلتِ..؟ أدركتُ أنك تنظر إليّ ولا تراني.. عيناك تسافران بعيداً.. تعبران جسدي محطةً للوصول إلى أمّ لمْ ترها، ولم تعرفها.. كنتَ تُخاطب ظبية..

وأنا ما كنتُ إلا محطة عبورٍ كما كنتُ دائماً، في حياة كل الذين أحببتهم..!

يمسح دموعها.. يقبّل يديها، فتأخذه بصدرها الدافئ، وتعود به إلى البيت.

_ ٥٥ _

ثلاثة أيامٍ مضت، وغريب يرفل في مهد الذكريات، يتجوّل بين الحقول التي غادرها منذ زمنٍ بعيد، بقلب ناسكٍ عاشقٍ، يتعبّد تفاصيل المكان..! ويعود إثر كل تجوالٍ ليحكي لشهلا عن كل شيء، يُحدّثها عما رأته عيناه، ورآه قلبه، وكأنه يحدّثها عن غابةٍ بكر، لم تلجها قدم إنسان، وهي تستمع له بلهفة، وكأنها تكتشف الأماكن التي يُعرّفها عليها.. وعندما ينتهي من سرد بعض ما يريد، أو يتوقف لحظاتٍ للاستراحة، كانت تغتنم الفرصة لتحكي له عن أبيه، عن حبها له، الذي

ما فارقها رغم البعد..! تبكي، وتضحك وهي تسترجع الذكريات.. بينما ذهنه يُجري عمليّات مونتاجٍ سريعة للمشاهد والأحداث.. ليكتشف أنه ابن أبيه، وأن القدر مُسرفٌ معهما في الكرم، إذ وضع في طريق كلّ منهما امرأةً أكبر من تصوراته..! امرأةً تغدق عليه حبها وحنانها، تُحيطه برعايتها، وتتحمّل سقطاته.. وهو يُقابلها بالجحود..! احتضنته عيناها بحبّ.. وهي تخاطبه:

. لماذا لم تأتِ مع أبيك لزيارتي يا بنيّ..؟ سألته عنك، لكنه لم يُجبني..! تركني ورحل.. لا.. لا.. بل اختبأ هناك.. في التّلة.. قرب ظبية.. تعال معي، لنذهب إليه..!

وقف أمام قبره مذهولاً.. شاخصاً.. لم يستطع أن يبكيه.. فهو لم يُصدّق أن والده قد مات.. وأنه لن يراه أبداً..! غمغم لنفسه:

. هذه المرأة فقدت عقلها.. لابدّ أنّ بُعد مالك قد ذهب به.. فحفرت لحبيبها الغائب قبراً، ودفنته به مع أحلامها.. أجل.. هذا هو الموضوع، فمالك لم يمت.. لم يمت..

ترك شهلا تتمسّح بقبر حبيبها وغادر.

_ ٥٦ _

عاد غريب من مسقط رأسه، حاملاً حفنة ترابٍ، امتزج فيها دم الموت بماء الحياة..! رمى رأسه على مسند المقعد، في تلك الحافلة الصّاخبة، وكعادته طار بعيداً عن عالم المسافرين، جابت عيناه الأجواء، ثم عادتا إلى أعماقه، إلى غريب.. لعقد جلسة المُحاكمة الذاتيّة، التي باتت في الآونة الأخيرة هاجس حياته..! فما أن يخلو بنفسه في أيّ مكان، حتى يتنادى أعضاء المحكمة الداخلية لعقد جلسةٍ طارئة..! يُحلّلون فيها الأحداث، والمستجدات، والشخصيّات، ويُصدرون الأحكام والتوصيات بحياديّةٍ ونزاهة..

ومما جاء في جلسة اليوم: (أيها الغريب الذي يسكنني، هذه هويتك.. قد خبرتُها، واختبرتُها.. اختبرْني الآن أنت.. لنرى إن كانت طاقتي جاهزة، قبل أن أرتقي إلى الخطوة التالية، إلى الحبّ الذي خلقني.. إذ رفعني فوق عالمٍ لم أكن ثائراً عليه، ولا مُخلصاً له..! كائناً فاتراً رخواً كنتُ.. تتلوّى جثّتي في الدروب المعتمة، في الشقوق والثنيّات، باحثةً لها عن قبرٍ تظنّهُ صورة الحياة..! لم أكن حيّاً..! كنتُ جثّةً تسعى لقبرها.. لا يُعتّم قلبها خزيٌ، ولا يُنيرهُ ثناء..! لفظتني أمي من رحمها، واتحدتْ بالموت، كيلا تخسر بهاءها..! اعتزلت الحياة شابةً.. ليحتفظ الكون لها بأبهى صورة..! وطردتني ظلال من رحمتها، لأني ما استطعتُ أن أكون خيّراً، ولا آثماً..! كنتُ أعزل من إرادة الخير والشّر معاً..! أتخبّط على الدروب، فأتعثّر بهذا تارةً، وبذاك أخرى.. فأيّ فضلٍ لي بما يحدث، وأنا لستُ سوى حجر شطرنج جامد، تُحرّكه الظروف والقوى المتصارعة دون أن تأخذ إذنه..! حجر يأخذ لون اليد التي تُمسك به..! فمرّةً يكون أبيض ومرّةً أسود..! ويا ليته تعلّم كيف يحافظ على أحد اللونين..!)

رُفعت الجلسة، حين وصل إلى غرفته، دخلها بتوجّسٍ.. وكأنه يلجها للمرّة الأولى، تملّى ملامحها، أخذته أشلاء اللوحات، ومشاريع القصائد المُبعثرة هنا وهناك:
. لا شيء في غرفتي يُبشّر بالحياة.. خدّجٌ مُجهضون يبست دماؤهم على فم قلمٍ، أو ريشةٍ خنثى..! غبار طلعهم مات على مشارف القصائد..! أوراقٌ تشكو العنوسة، وأقلامٌ تلوي أعناقها خجلاً من عجزها، وانحسار فحولتها..!
لملم أشياءه المبعثرة، رماها في علبةٍ كبيرةٍ من الورق المقوّى، كتب عليها بخطّ عريض: (المدفن)
جلس إلى طاولته يكتب، فالجلسة على ما يبدو عادت لاستئناف عملها:
(لن أكتب اليوم شعراً، فما مضى من عمري لم يكن حياةً، ولا موتاً ليستحقّ أن يكون شعراً..!
ماذا أقول في كائنٍ غريب، وجد نفسه في طفولته وصباه حمامةً تقف على الفُتات في ساحة المسجد، يرفّ جناحاها طرباً، بتعاليم وابتهالاتٍ، تبتلعها، وتعجز عن هضم أكثرها، وتمثّلهِ.. لكن حمامة المسجد سرعان ما غادرتهُ، غير نادمةٍ على شيء، واكتسب جناحاها الغريران قساوة أجنحة الصقور، ووجهها السّمح احتجب خلف ملامح قاسية قاتمة.. طار الصّقر الفتيّ إذاً إلى عالمٍ آخر، جذبته رياح الأحزاب اليسارية، فخفق جناحاه في سمائها حيناً، غير أنه لم يجد فيها ما يستبقيه طويلاً، بهرته تلك الأفكار والمبادئ، في بداية تعرّفه بها، وشدّته إليها رغبةٌ دفينةٌ في الانعتاق، فانطلق محفوفاً بفورة الحماس، مُعلناً ولاءه للشيوعية.. مُتنقلاً بين فصائلها، دون أن يُوقّع اسمه في سجلات أيّ منها بشكلٍ رسميّ، هو صديق الجميع، لكنه عدو الثبات.. مع الكلّ وليس مع أحد.. وأخيراً فارقها جميعاً، لينضوي تحت مظلّة حزبٍ يساريّ آخر، تاركاً عند كل منها بعضاً من ذاته.. حاملاً على جلده بعض وصاياها..! لكنّ جديدَهُ لم يكن أوفر حظّاً من قديمه.. فما إن أشرقت شمس انتمائه الجديد في كيانه، حتى جنّ في عروقه حماس العمل، لكن شمسه ستتصل عما قريب إلى ضحاها.. وستبرد عزيمته كعادته..!
يبدو أنني أعشق الرشفة الأولى من أيّ كأس..! وكأن هذا ما جذبني إلى رؤيا.. سحبَةُ الدخان الأولى مازال طعمها بين شفتيّ منذ عشرين عاماً..! ليت الأشياء تحتفظ بقيمتها عندي، كما تكون ساعة ولادتها، ولقائي بها.. لكن هيهات.. كل البشر يبدأ نهارهم بالشروق، وينتهي بالغروب إلا أنا..! فنهاري يبدأ بالشروق لكنه ينتهي عند الضحى..! لم تستطع كلّ الأفكار أن تُطيل نهاري، أن تأخذني تماماً، لوّحتني شمسها، لفحني بردها، لكنها لم تمتلكني..! ويبدو أنها ما لامست سوى قشرة الروح..! هجرتُها جميعاً، وشددتُ الرّحال بحثاً عني.. لم تكن رحلتي بعيدة، فما حملني مركبٌ، ولا طار بي بساطٌ مسحور، سافرتُ في مجاهل نفسي، مُحمّلاً بريشتي، وأصباغي، وقلمي.. فماذا تُراني فعلتُ.. وأيّ غريبٍ وجدت..؟
والآن يأتي من يُريد استمالتي من جديد، ويفرش أمامي مُغرياتٍ لا أحلم بمثلها..! لماذا..
لا أدري.. لماذا أنا بالذات..؟! أيظنّ هؤلاء أني ثروةٌ قد وقعوا عليها، من حيث لا يحتسبون..! آهٍ

لو يعلمون أيّ غريبٍ أنا..؟! وأيّ تصحّرٍ يُهدّد روحي..!
أيكون هذا ما جذبهم إليّ..؟ ربما.. فتباشير اليباس، ومرأى الأنقاض تُغري البومة بالوقوف على أكتافها، وبثّ رسائلها إلى عالمٍ أعرج..! لكن لا.. لن أكون لهم، لا أستطيع الانضواء تحت جناحين، لا أعرف إلى أين سيطيران بي..! وأين سيحطّان..! إغراءاتهم تُخيفني، أكثر من تهديداتهم..! أخاف المطر إن لم أرَ الغيوم والبروق، وأسمع الرّعد..!).
ترتعش الأوراق بين يديه.. كاد يعجنها، ويرميها في المدفن، لكنه عدل عن ذلك، مُؤجلاً موتها إلى وقتٍ يحلو فيه الموت..! فللموت عنده حضرةٌ ومهابة..! يحتاج كثيرَ تأنّقٍ لدخول محرابه.. والوقوف بين يديه..! يقف أمام مرآةٍ مُعلّقة على الجدار، يُمرّر أصابعه على السواقي التي حفرها الزمن في مُحيّاه، وينزف:
. ها وقع أقدام السنين على وجهك يا (الغريب).. فأين وقع أقدامك أنت..؟ هل تركتَ من أثرٍ على أيّ مكان، وهل للأمكنة عندك بقاء..؟! كل مكانٍ تُعايشه، ويُعايشك حيناً، تركلهُ غير نادم..! دون أن تترك على وجهه أي أثرٍ، يدلّ على مرورك فيه..! فما أن تصادفك مشكلة حتى تُلقي باللوم على موقعك، وتقول، وأنت تُلملم أشياءك المبعثرة: إنها اللعنة حلّت عليّ بسبب وجودي هنا، وترحل إلى هناك..! حياتك ليست سوى رحلاتٍ قصيرةٍ بين الـ هنا والـ هناك.. أي دمٍ يجري في عروقك يا رجل..؟ قل لي أي دم، أهي دماء الطيور المهاجرة، أم دماء البدو الرّحّل..؟!
حتى هؤلاء قد يألفون الاستقرار، ويغرسون أوتاد خيامهم أركاناً لا تهزّها الأنواء، فما بالك أنت..؟ لابد أنك من سلالة النّوَر..!
النّوَر..؟ ياه.. كيف لم أنتبه لذلك من قبل..؟ كيف نسيتُ تلك الخيام التي كانت تولد كل عامٍ على أطراف قريتنا..؟
يغادر مرآته، يتمدّد على سريره، ويسافر إليهم بخياله محمولاً على أجنحة التّوق لسبر أغوار الماضي:
يرى نفسه طفلاً أشعث الشعر، يضيعُ جسده النحيل في جلبابٍ رماديّ، يُلملم أطرافه، ويعدو صوب تلك الخيمة، يقف على بعد مترين منها، ويستمع لفورة الحياة، تضجّ من أغنيات أبي مسعود، يأخذه صوت ربابته، فيتسلل إلى داخل الخيمة، ويجلس قرب المُغنّي الكهل.. تمضي الساعات، وهو ما يزال لصيقاً به، عيناه السوداوان الحالمتان، تتنقّلان بين يديه اللتين تستخرجان الأصوات العذبة من آلةٍ بسيطةٍ، وبين فمه الصّادح بكلماتٍ يُحسّها، ولا يفهم منها إلا القليل..!
ولا تتوقف الأغاني إلا على صوت مالك، وهو يسحب ابنه من ذراعه بشراسة:
. ألا تتذكّر البيت يا بن الكلب، ألا تذكر والدك، ألا تجوع..؟ . رحمة الله عليك يا ظبية، كنت تُمضين عند هذا اللعين الكثير من وقتك، فكلما أردتُ رؤيتك أيام حبّنا، اضطررتُ للاستماع إلى

وصلةٍ غنائية، من فم هذا النوَريّ العفن.. . إنك ابن أمك حقاً، أينتقل حبّ النوَر، وفنّهم التّافه بالوراثة..؟!

ويتابع مالك بربرته الغاضبة، وهو يجرّ ابنه إلى البيت:

. كم أحقد عليك يا أبا مسعود، أكره خيمتك، فقد سرقت مني اهتمام من أحبّ.. ولطّخت روحي بالعار..!! .

لم يفهم غريب يوم ذاك معنى العبارة الأخيرة، لكن الصورة انجلت، اتّضحت معالمها بشكلٍ وقحٍ ومؤلمٍ أمام عينيه، عندما كبر، واستطاع ذهنه تنسيق العبارات، التي كانت تُرمى في وجهه من هنا وهناك.. عبارات تقذفها أفواهٌ شامتة، تخزُهُ دون أن يفهم مغزاها..! يُحسّ عند سماعها أن عقرباً ظامئاً لدغه، لكنه لا يُدرك سبب هذا الشعور الغامض..! غير أنه أدرك بعد ذلك علّة كل شيء.. كانت تلك السهام تستعرض قسوتها في مُخيلته، تتراقص على خلايا دماغه، فيخرج الشرر من عينيه..! لم يستطع أن يواجه والده بها، فلا ذنب له.. ولم يستطع أبداً أن ينساها، مازالت تزوره كل ليلة، تتعرّى أمامه مُتحدّيةً قوة احتماله، وهو يُغمض عينيه على جمرها، ويغرز أسنانه في لحم مخدته، تحسّباً لأية صرخةٍ فاضحة.. لكنه لم يعد يُطيق صبراً، فقد استهلكته تلك الحرب، امتصّت شبابه، ولابد من حلّ..!

بدأ يستعيد تلك العبارات، التي تقذفها النسوة الشّامتات في وجهه، وهو داخلٌ إلى خيمة أبي مسعود، أو خارجٌ منها، يستعرضها علّه يجد فيها ثغرةً، يحشوها بما يضمن خرابها:

. رحمة الله عليكِ يا أمّ مالك، من خلّف ما مات..!

. المرأة كانت ذوّاقة، تحبّ الفنّ..!

. حبّ الغناء والرقص وراثة..

. إي والله العِرْق دسّاس..

. أمّ مالك لم تكن تُفارق خيمة أبي مسعود، تحبّ صوته، وصوت ربابته..

. من أراد إنجاب الصبيان، فعليه أن يكون جاراً لأبي مسعود..!

. صوت الموسيقا يُحسّن النّسل..(كيف لَكَنْ..) ؟!

أعاد ذاك الشريط المؤلم مرّاتٍ عدة، استمع للعبارات من أفواه قائليها.. استحضر تلك الأفواه معزولةً عن وجوه أصحابها، تخيّلها كراتٍ من العفن.. تقذف أجنّتها شياطين في وجهه..! عساه يعتاد عليها، فيهون عليه الأمر، لم يجد في جملةٍ واحدةٍ ثغرةً يهدمها بها، أو يردّ كيدها إلى نحر قائليها، ما الحلّ إذاً وهي تجلده، وهل يكفي تكرارها، ليعتاد عليها..؟ هل يُدمن الإنسان السّم فلا يقتله..؟

ينتفض غريب اليوم، يجلس في سريره مُستنفراً، يكنس من مُخيلته صور الماضي، ويتهدّج صوته:

. أأكون حفيد أبي مسعود إذاً..؟ ألهذا كنت أحبه..؟! أتكون دماؤه التي تجري في عروقي، هي من تقف حائلاً بيني وبين الإخلاص لأي مكان..؟!

ويُقهقه، يقهقه بجنون.. وهو يجمع أشياءه:

. لابد من إطاعة الدم إذاً، لابد من الترحال، فهذا المكان لعنةٌ، عليّ أن أهرب منها..!

يقترب مرةً أخرى من المرآة، لا بحثاً عن نفسه، بل لينتزع عنها صورة والده، التي كان قد لصقها على طرفها العلوي، يتأمّل الصورة ملياً، تأخذه عيناه الحزينتان إلى حضنه.. يدفن رأسه في صدره الرحب، يعاتبه، ويبكي:

. أبي.. لماذا لا تحبّ جدّي أبا مسعود..؟ لماذا كنت تضربني كلما وجدتني عنده، أليس والدك، أم أنك لم تكن تدري..؟ وليكن.. فالأبوة تُحَسّ حتى دون سابق معرفة..! ألا تُنادي الدماء بعضها..؟

أبي.. لا تحزن يا أبي.. فلا ذنب لك في ذلك.. وما من أحدٍ يختار والده، القدر وحده مَن يتحكم بكل شيء، فإن اختار لنا هذا الأب أو سواه، فما علينا إلا أن نؤدي له فروض الطاعة، أو حتى القبول.. ألمْ أقبلك أنا كما أنت..؟ أم أنك تظنّ أنك تُعجبني في كل شيء..؟

فجأةً.. تعبر مخيلته ومضةٌ تُجفله.. إذ يسمع والده في إحدى ليالي الشتاء، يقول وهو يُغطّيه ويلثم جبينه:

. لو لم أكن أتذكّر طفولتي في مدينتنا، وأعي تماماً يوم قدومنا إلى هذه القرية، لقلتُ: إن أبا مسعود هو جدّك يا غريب..! لكنّ أمي قذفت بي إلى هذا العالم القذر، قبل رؤية هذا النّوريّ بسنوات..

يتنهّد، ويخرج تاركاً طفله لأحلامه، التي ظنّهُ مُستغرقاً فيها..

. جميل.. جميلٌ جداً..

يصرخ غريب وهو يقبّلُ صورة والده..

. أنا لستُ نورياً إذاً..! أنا هو أنا..! يا سلام..!

ويضحك جذلاً..! يقفز عن سريره، يطلب ظلال:

. تعالي إليّ ظلال، فأنا هو أنا..! تعالي نُكمل مشروعنا معاً.

يُخيفها غموض كلماته، فترمي عنها هواجسها، وتردّدها وتأتيه على عجل، يستقبلها وهو يرقص، يُمسك يديها، ويتابع رقصه، تُجاريه دون أن تسأله عن أي شيء..! يرقصان معاً حتى الثّمالة..! يرميها على السرير، ويكتبان لقصّة عشقهما تفاصيل جديدة..! قالت وهي ترتدي ثيابها:

. منذ سنواتٍ لم أشعر بما شعرتُ به اليوم..! شيءٌ أكبر من اللذة.. شيءٌ كالحلم..! أتصدّق حبيبي: أحسّ أننا لم نكن هنا منذ لحظات..! كنا في مكانٍ أسطوري، نوقّع عقد قران روحينا..! لا بل نتسلّم ذواتنا التي كانت مهاجرةً مذ خُلقنا..!

قال وقد بدا كأنه وُلد فعلاً من جديد:
. أجل حبيبتي.. هذا لأني ولدتُ اليوم..! كنتُ أبحث عن علّةٍ فيّ، فوجدتُ نفسي.. عرفتها.. ولهذا كنتُ معكِ، كما كنتِ معي، ووقّعنا معاً عقد الوصال الأبدي.

ـ ٥٧ ـ

رؤيا تصارع اليقظة بسيوف الوسن، تحاول أن تدحر جيوشها اللئيمة، عساها تنام قريرة القلب والروح، ولو لليلةٍ واحدة، لكنّ سيوف الكرى الكليلة، أعلنت هزيمتها أمام قلبٍ ما عرف السّكينة، مذ هجرهُ الحبيب.. (ويلي من هذا الليل ما أطوله..!)
تغادر سريرها، تفتح ستارة النافذة، (الظلام مازال يجثم على صدر الكون وصدري..) تنظر إلى ساعتها، إنها الرابعة صباحاً، ومازالت الهواجس تُدوّم في رأسها، فأنّى لها أن تنام..! تترك غرفتها، تتجه إلى غرفة أمها، تفتح الباب بهدوء، تُفكّر أن ترفع الغطاء، وتندسّ في حضنها كأيام زمان.. غير أنها تتراجع مغمغمةً:
. أحسّ أن المكان لم يعد يتّسع لي..!
تبتلع رغبتها، وتعود.
صباحاً جلست وأمّها تشربان الشّاي، لم تلاحظ ظلال علامات الأرق حول عينيها، ولم تُلفت انتباهها تباشير الخريف المُبكّر على وجهها وسحنتها، فمنذ زمنٍ لم تلتقِ الأعين.. تحاول ظلال أن ترفع وجهها، لتتملّى ملامح ابنتها وتفكر:
(اشتقت إليك كثيراً يا بنتي، لكن عينيّ لا تجرؤان على لقاء عينيك، أخاف أن تري فيهما غريب، وأخاف أن أراه في عينيكِ..! أعرف أنك ما استطعت نسيانه، ليتني أستطيع أن أتركه لكِ..! آهٍ يا بنتي.. صدقيني لو كان ما بيني وبينه مجرد مشاعر، لأجبرته على الارتباط بك، لكن الأمر تعدّى ذلك، وحدث ما لا تستطيعان بعده الارتباط.. ويلي عليك يا صغيرتي.. فرغم عظيم ألمي لأجلك، لا أستطيع أن أعود معك كما كنت، لا أستطيع أن أراك قطتي المُدللة.. شيء ما كُسر بيننا، لا أعلم بعده إن كان قلبي سيعود سوياً..!)
تحمل محفظتها وتخرج إلى عملها، تاركةً ابنتها لحيرتها وهواجسها..
لم تستطع رؤيا أن تفهم سبب هروب والدتها منها، كانت صديقتها الأقرب، تبوح لها بما لا تجرؤ الكثير من الفتيات على التلميح به في حضرة الأمهات.. كل منهما كانت مرآةً للأخرى.. تفكّر أمامها بصوتٍ عالٍ مهما كان الموضوع حساساً، أما الآن فلم تعد أعينهما تتلاقى إلا لماماً أو مصادفةً.. بحثتْ رؤيا بجدّيةٍ عن أسباب هذا التّحول المرعب، حاكمت

تصرفاتها في الفترة الأخيرة بقسوة..! غير أنها فشلت في اكتشاف السرّ الكامن وراء تصدّع العلاقة بينهما..!

(أكاد أجنّ.. ما الذي حدث، ماذا فعلت لها لتبتعد عني..؟ مذ خرجت من المشفى تغيّر كل شيء.. لا.. لا.. منذ أخبرتها عن علاقتي بغريب، ما السرّ.. أيستحق الأمر كل هذا التعقيد..؟ أيكون حزنها عليه وعليّ قد غيّرها، وهل يؤدي الحزن إلى كل هذه السلبية.. وما ذنبي أنا لتبتعد عني، وأنا مجروحة القلب..؟! لابد أن أمراً آخر يكمن وراء سلوكها..! وعليّ أن أكتشفه.. لن أوفر جهداً حتى أصل إلى ما أريد..).

عندما عادت ظلال من عملها، وجدتها ما تزال في سريرها، فقد أخذها النوم بعد ليالي الأرق الطويلة، ويبدو أنها رسمت في ذهنها خطةً لمعرفة الحقيقة، فاستراح قلبها، ونامت، حتى أنها لم تشعر بشفتيّ والدتها المرتجفتين وهما تلثمان جبينها.

ـ ٥٨ ـ

اعتاد غريبٌ نظارته السوداء، وباتت رفيقة عينيه داخل البيت وخارجه..! غير أنه لا يستطيع المثول أمام لوحةٍ بكرٍ أو ثيّب إلا وجهاً لوجه..! دون أن يفصل بينهما أيّ حاجز.. نزع النّظارة عن عينيه، ودنا من اللوحة البيضاء، تفرّس فيها، كأنه يُفتّش في خلايا جسدها عن قطرة دمٍ، سالت من عذريتها، فيذبحها بها..! غمس فرشاته في الأصباغ، قرّبها من اللوحة، ارتعشت أصابعه، تراجعت مُنكفئةً، كعريسٍ تسعينيّ أمام عروسٍ فتيّة..! عاود الاقتراب، فعاودت الهروب.. صرخ فزعاً:

ـ لن أستطيع الرسم بعد الآن.. لن أستطيع.. فعينٌ واحدةٌ لا تكفي.. لا تكفي.. لكنْ.. لا..لا.. أنا لا أُهزم.. لن أُهزم..! سأحرق العالم بعينٍ واحدة..! سترون.. انظروا إليّ، راقبوني..

وبدأت خطوط لوحته تتّضح، تكشف عن نساءٍ بلا ملامح.. نساءٍ لطّخ وجوههنّ باللون الرّماديّ..! ثم تفرّس في أحد الوجوه، وخاطبه:

أرأيتِ يا ظلال كيف رسمتكِ بلا عينين..؟! انتظري إذاً لأكمل لوحتي..

وضرب بالفرشاة على وجهها، راسماً خطاً كالندبة.. أشار إليه بإصبعه، وقهقه شامتاً..!

اختلطت ضحكاته بضحكاتٍ أخرى، التفت إلى مصدرها، فرأى شبح جده، يرمقه ساخراً..!

سارع إلى رشقه بالأصباغ، وصرخ به:

. اغرب عني.. أما مللتَ من ملاحقتي..؟!
طار الشبح إلى زاويةٍ أخرى، متفادياً الرذاذ، وهو يقول:
. تفوّقت عليّ أيها اللعين..! لكنْ مع النساء فقط.. غير أن تفوقك في هذا المجال،
لا يكفي..لصنع رجل.. فلا تفرح كثيراً..
ارتعدت أوصاله غضباً، وصاح به:
. اغرب عن وجهي يا عساف.. اغرب..
وقذف الفرشاة في وجهه.. فانسحب الشبح، وهو يقول مقهقهاً:
. تريد أن تقلع عيني، لأصبح مثلك أيها الـ ..
. ارتعدت أوصاله، وزمجر:
. لن تهرب مني بعد الآن يا عساف.. لن أسمح لك أن تسخر مني، ثم تختفي كعادتك.. سأرسمك هنا، أمامي، وسترى أيّ مصيرٍ سأصنع لك..!
وراحت الخطوط تكبر وتكبر رغماً عنه.. حتى ملأ عساف المكان والزمان..! ملأ الجدران، الأرض، السقف، اللوحات، وضحكات غريب، هذيانه، وصراخه..! وقف غريب أمام طوفان جده، الذي سدّ عليه جميع المنافذ.. شرد قليلاً.. فكر في مأساته المُتدفقة من شقوق عمره.. ثم طعن صورة جده بمدية الرسم.. وهو يقول:
. خذ.. خذ.. خذها مني يا عساف..
ويزداد الطعن ضراوةً، على وقع قهقهات عساف..
التي تسيل من ندوب الصورة نهراً أسود.. يغمر المكان، ويكاد يُغطي غريب بصديده، فيرمي اللوحة أرضاً، ويرتمي فوقها، لإغلاق ينابيع القهقهات المُتشفّية..

ـ ٥٩ ـ

فوجئت ظلال بالحيوية ترفل على ملامح ابنتها بعد طول غياب..!
. أمي اشتقت إليك..
تعانقها بحرارة..
. تصوري أشتاقك وأنت معي..!
. وأنا أيضاً حبيبتي.. تعالي نشرب الشاي معاً.
. أما زلتُ طفلتك يا ظلال، أم أنك نسيت ذلك..؟
. كيف أنسى يا بنت..؟ وهل تنسى الأم روحها..؟!
تجلسان معاً، ترشفان الشاي، وكل منهما تفكّر بالتطورات الجديدة في سلوك الأخرى.. خافت

رؤيا من عودة الوجوم بينهما، فبادرت بكسر حدّة الصمت:

. أمي ما رأيك برحلة إلى البحر..؟

. رحلة..؟ تقول ظلال مستغربةً.. وإلى البحر شخصياً.. متى وكيف..؟

. رحلة الجامعة غداً، أتذهبين معي..؟

. لماذا لم تخبريني من قبل..؟ لا أستطيع الذهاب بهذه السرعة، فالموضوع يحتاج إلى تحضيراتٍ وإجازة.

. ولماذا الإجازة يا أم رؤيا، أنسيتِ أن اليوم هو الخميس، وغداً عطلتك الأسبوعيّة.؟

تقول ظلال متضاحكةً:

. تصوّري.. نسيت بالفعل، ولم أعد أعرف يوم العطلة من سواه..! لكني لا أستطيع الذهاب دون تحضيرات، اذهبي أنتِ مع زملائك، وقلبي معك..

تبتلع رؤيا سائلاً مُرّاً ملأ حلقها.. وتفكر:

. أظن أني أعرف سبب ارتباكك ورفضك..!

. بماذا تفكّرين صغيرتي..؟ لا وقت للتفكير، تعالي نُحضّر لوازم الرحلة، لتنامي باكراً، فغداً أمامك يوم طويل، ويجب أن تكوني مرتاحةً لتستطيعي الاستمتاع بتفاصيله..

صباحاً حملت رؤيا حقيبة سفرها، قبّلتْ والدتها، وانطلقت..

لم يطل انتظارها في المتجر المقابل لبيتها، رأته يحثّ الخطا، عيناه معلقتان على بابها.. كاد قلبها يطير إليه، يستوقفه، يضخّ في وجهه خضاباً مقهوراً..! يقترب وجهها من زجاج المتجر، وهي تراقبه، تتسمّر عيناها على يده التي تُخرج شيئاً ما من جيبه، آ.. إنه المفتاح.. يدخله في قفل الباب، يفتحه ويدخل.. تصرخ جوارحها:

. ويلي.. ويلي مما أرى..! يفتح الباب، ويدخل.. وكأنه صاحب البيت..!

غادرت المتجر مُتثاقلة.. تجرّ ساقيها بعناءٍ، إلى أن وصلت، أخرجت المفتاح بأصابع مُرتعشة، فتحت الباب بهدوء، وتسللت إلى الداخل، دخلت غرفتها على رؤوس أصابعها.. أغلقت بابها بحذر، وتنهّدت بارتياحِ القتيل، إذ يجد له في أرض الله الواسعة موطئ جثة..! لم يلاحظ أحدٌ عودتها، فأمها وغريب في المطبخ، سمعت صوتها تغنّي له:

. " يا حبيبي كلّ شيءٍ بقضاء.. ما بأيدينا خُلقنا تُعساء"

هذه الأغنية التي يشترك الثلاثة في حبها، باتت تكرهها الآن..! فهي تحمل بين أحرفها وعلى أجنحة لحنها حباً محرّماً.. ووجعاً وذكرياتٍ مالحة..! جلست وراء النافذة المُطلّة على الصالة، سحبت الستارة قليلاً بحيث ترى ولا تُرى، رأت أمها تحمل أطباق الطعام، وغريب يتبعها حاملاً إبريق الشاي، جلسا متجاورين، تبادلا نظراتٍ عابقةٍ بحنين عتيق.. أمسك يديها، قربهما من وجهه.. يتشمّم عبقهما.. يلثمهما، تتلامح الفرحة على وجه ظلال، بينما رؤيا تتقطّع أنفاسها..

يقترب منها، تلامس شفتيه وجهها، تفرك رؤيا عينيها، تصرخ روحها:

. غير معقول.. لا يمكن..

تتناول ظلال لقمةً تضعها في فمه، وهي تقول:

. نأكل أولاً حبيبي فأمامنا اليوم بأكمله، نحن اليوم عروسان كما قلت لك..!

يمضغ لقمتها مُبهّرةً بأناملها العاشقة.. يتناولان لقيماتٍ سريعة، فالجوارح تشتعل لما بعد الطعام.. تُلملم ظلال الأطباق، تُعيدها إلى المطبخ، وهو ينتظرها مُتلهفاً.. لتعود إليه بعد لحظاتٍ في حلّةٍ جديدة، إنها فعلاً عروس كما قالت..! يصفر غريب مُعبّراً عن دهشته..! يقفز إليها، يحضنها، يرقصان فرحاً..! وقلب رؤيا يرقص فرقاً..! تفكر أن تخرج إليهما لتوقف هذه المهزلة، لكنها تُؤجل نزع الفتيل، حتى تستكمل اللعبة شروطها.. هاهما ينتشيان توقاً.. يشتعلان عناقاً.. وهي تترمّد موتاً.. تتقافز الثياب في فضاء المكان، تفوح رائحة الحبّ..!

صرخت رؤيا صرخةً شقّت الفضاء..! تضافرت جميع خلاياها على إطلاقها ذبيحةً.. قاتلةً وقتيلة..! وسقطت أرضاً غائبةً عن الوعي..! مُحوّلةً عرس أمها إلى فجيعة..!

اصطكّت عظام ظلال هلعاً، فهي تعتقد أن البيت فارغٌ إلا منها ومنه، فما هذا الصوتُ إذاً..؟! حبست أنفاسها واجفة.. دفعت بغريبٍ عنها، لكنه ليس هنا.. إنه غارقٌ في بحار الحب، يتشبّث بطوق نجاته، يلتحم به بكلّ فحولته.. ويعلو لهاثه.. فلم تستطع منه فكاكاً حتى انتهى الأمر.. لملمت نفسها على عجل، ومشتْ إلى مكان الصوت على رؤوس أصابعها، أطلّت عيناها بحذرٍ من زاوية النافذة، لم تُصدّق ما رأت..!

. غريب..

تمزّقت صرخاتها، وهي تُشير إلى غرفة رؤيا، أسرع إليها، حملها بين ذراعيه، مدّدها على سريرها، وانطلق بسرعةٍ ليُحضر الطبيب، رشقتْ وجهها بالماء البارد، حاولت إيقاظها بدموعها، وشهقاتِ خوفها..! سألها الطبيب:

. ما الذي حدث سيدتي، لتنهار الفتاة بهذا الشكل..؟! ألا تستطيعون مراعاة أبنائكم قليلاً..؟! أتظنون أنهم ملكٌ لكم، تُديرون حياتهم كما تشاؤون..! غير معقول.. لا يمرّ يومٌ إلا ونستقبل فيه حالات انهيارٍ عصبيّ، يعاني منها الشباب..!

لم تستطع إجابته، ولم تستنكر تدخّله، مسحت دموعها، وسألته:

. ماذا عليّ أن أفعل الآن..؟

ناولها وصفةً، وقال:

. أحضري لها هذا الدواء، وحاولي أن تُحيطيها برعايةٍ خاصّة، فهي مسكينة..! مسكينٌ هذا الجيل، والله مسكين..!

أوصلته إلى الباب، أرادت أن تشكره على تعاطفه، لكنها لم تفتح فمها بكلمةٍ واحدة..! هي تُدرك

أن براكينها مستورةٌ بقشّة.. لو أُزيحتْ فلا رادّ لحممها..! لم تشأ أن تحترق أمام أحد، لقد غادر الآن، فلتنزع صمام الأمان، ولتتدفّق نيرانها لتحرق كلّ شيء..! ماضيها، حاضرها، وهذا المستقبل الذي تراه الآن مُشوّهاً بعدما حدث..! جثت عند أقدام السرير، تبكي كما لم تبكِ من قبل..! تتخيّل نفسها بين يديّ غريب، وعينا رؤيا تحترقان بما تريان..! تلطم وجهها، تضرب رأسها بأرض الغرفة:

. ويلي.. ويلي. كيف أنظر في عينيك بعد الآن يا بنتي..؟! كيف لي أن أواجهكِ..؟ وهل مازلتُ أملك هذا الحقّ، أو أجرؤ على التفكير به..؟ لقد خسرتُ كلّ شيء، كلّ شيء.. ربّاه.. أعنّي.. كن معي.. آهٍ يا ربي..! كم أنا خجلةٌ من نفسي.. فأنا لا أستحقّ أن أقف ببابك.. آهٍ.. كم أنا تعيسة، مجروحة..! لا بل مُجرمة.. فما ذنب ابنتي، طفلتي لترى ما رأت..؟

تمسح وجهها المُندّى، تُقبّلها، تبكي باحتراقٍ على صدرها.. لكن الفتاة لا تحسّ بما يدور حولها.

مرّتْ ليالٍ مريرة، وظلال تُلازم غرفة ابنتها، دون أن تجرؤ على النظر في عينيها مباشرةً.. فلقاء الأعين كان بالنسبة لها الرعب الذي تفرّ منه، وتتحاشاه، لأنها واثقةٌ أن حبل السّرة الذي حرصت على إبقائه حيّاً، بُتر في اللحظة التي بدتْ فيها عاريةً أمام ابنتها..! تحوّل مشنقةً تخنقهما..!

وتمنّت رؤيا لو أن فقدها للوعي، يطول حتى يطويها الموت.. فما عادت ظلال الأيكة التي تفيء إليها من هجير الحياة.. فما أن تلمحها مُقبلةً نحوها، حتى تُشيح عنها، وتدفن رأسها في وسادتها، التي ثملتْ من دموعها..

تشتّتت ظلال، تمزّقت روحها بين حبيبين، كلاهما تعشقه، وتحتاجه.. غير أنّها تدرك أنّ ميلها نحو أيّ منهما سيكون على حساب الآخر، من وجهة نظر قلبها على أقلّ تقدير..!!

تجتاحها رغبةٌ لاذعة بالابتعاد عن غريب، كلّما صفعتها عينا رؤيا، وتعلم تماماً أنّها لن تعود إلى صدرها، ولن يعود نسيجُ الثقة إلى لحمتهِ الأولى بينهما، حتّى لو تركته دون عودة.. فتعود عن قرارها، لتركن إلى قرار روحها المتواشجة مع روحه..! لكنّ الحبّ رغم سكّرِهِ الزائد.. لم يستطع أن يمحو مذاق المرارة من حياتها، فأنّى لها أن تهنأ بشراب الحياة، وصغيرتها تغصّ بشراب الموت..!!

وأنّى لقلبها أن يحتفي بعودة الحبيب إلى رحابه، وقلب ابنتها ينعى موت الحبّ والحبيب.. وموت الأم معاً..؟؟!!

ـ ٦٠ ـ

وكان على النّاظميّة قمرٌ، وبعض ضباب..! رجلٌ تسربل بكفنٍ ودماء..! يمشي كأنما على زبد الوهم إلى بيت شهلا.. يطرق الباب، فيأتيه صوتها:

. ادخل حبيبي.. تركتُ لك الباب مفتوحاً..

. لا.. لا.. بل تعالي أنتِ معي، تركتُ ظبية وحيدةً.. وهي تنتظرنا..!

. أنا قادمةٌ.. حبيبي، فقط أمهلني لحظةً، أتزيّن للرحلة كما ينبغي..

نظرت في مرآتها، أصلحت شأن بعض الخصلات المُتناثرة، ومشت حافية القدمين، بجلبابٍ أبيض طويل، مفتوح الصدر، يبرز نهداها منه كقرصي عسل.. وحين صارت خارج البيت، تأبطت ذراع الشبح، وهي تقول:

. هيا حبيبي.. هيا يا مالك.

ثم رفعت عينيها صوب القمر، وأكملت مناجاتها لحبيبها:

. اكتمل البدر يا مالك.. فالتقينا..! اكتملنا مثله.. هذا يومنا يا حبيبي.. أليس كذلك..؟

لم يُجبها مالك.. وحده القمر أطربته نجواها.. فاستمرّ يرسل أشعته شلالات فضّةٍ، تتراقص في أطباق ظلال..

وصلت شهلا إلى المقبرة، جثت عند أقدام قبر مالك، فانسدلت خصلات شعرها الغزير، وغطّت جسدها.. مرّرت أصابعها بتعبّدٍ على ترابه، وهي تخاطبه:

. انظر حبيبي.. انظر إليّ.. لا.. لا.. انظر إلى القمر، ألا يُشبهني..؟! أم أنك مازلتَ ترى ظبية أجمل..؟!

مرّغت وجهها بترابه، والتفتت إلى قبر ظبية الذي يُجاوره، وهي تنشج:

. أتيت إليك يا ظبية، لأرى ما الذي عندكِ وليس عندي، حتى امتلكتِ حبيبي طيلة هذه السنين..!

زحفت بين القبرين، اتكأت على كلّ منهما بإحدى يديها، فعبرتها شرارةٌ أضاءت عظامها.. ! وكأنما أعادت عروقُها وصلَ تيّارٍ كان الموت قد قطعه بينهما..!

. أسندت رأسها المثقل بالأسى على قبر ظبية، وهمست:

. لستُ ضرّتك يا ظبية، ولستِ ضرّتي..! فأنا أمّ ولدك، وأنتِ مُنجبة ابني.. ابني غريب..! ألا يكفيك هذا لتمنحيني بعض ما عندكِ، ليكون مالكٌ لي..!

تكاثف الضباب فوقها رذاذاً ثقيلاً، ارتعد جسدها بنوباتٍ، راحت تشتدّ، وتتصاعد موجةً إثر أخرى.. حتى مزّقت ثوبها، وهي تصرخ:

. مالك.. ظبية.. خذاني إليكما.. خذاني..

تنتفض، ترقص كما طيرٍ ذبيحٍ.. وتغيب..!

وكان مطرٌ على مقبرة النّاظمية.. بلّل القبور.. غسل قبرين تمدّدت بينهما جثّة شهلا تمثالاً من حنينٍ يوحّد بينهما..

انتبهت ظلال من غفلتها، على رفرفات آلاف الأجنحة، التي اقتحمت غرفتها، وكادت تطير بها خارج حدودها.. تلمّست جسدها بقلقٍ، وكأنها تطمئنّ لوجوده.. جال بصرها في أرجاء المكان، بحثاً عمّن أعادها من رحلة هروبها.. فوجئت به مُكلّلاً بالبياض، تخفق أجنحته الشفيفة كمَراوح مُستعجلة..! سألته شفتاها الواجفتان:

. من أنت يا سيدي، وكيف دخلت غرفتي دون أن تفتح باباً، أو تكسر جداراً..؟!

. أنا ملك الموت.. ولا داعي لشرح أسباب حضوري.. فأنا لا أزور أحداً، لأشرب قهوته أو شايه..

ارتعدت أوصالها هلعاً، وقالت:

. هل آن الأوان يا سيدي..؟!

. أجل يا امرأة.. فتجهّزي..

. قل لي يا سيدي أرجوك: هل جئت تستوفي ما نُذر لك، أم أن منيتي قد حانت بالفعل..؟

. تعرفين أنه لا فرق بين الحالتين، فنصفك منذورٌ لي منذ زمنٍ بعيد.. لكني أجّلت استرداد حقّي حتى تحين منيتكِ.

رشحت مساماتها خوفاً، ألماً، وزفرت محترقةً:

. رحمة الله عليك يا أبي..!

وغامت عيناها.. رحلتا إلى الماضي.. إلى ذلك اليوم الذي عادت فيه إلى البيت مقهورة.. مكسورة القلب.. حضنها والدها يوم ذاك، غمرها بصدره الرّحب وقال لها:

. ما بكِ صغيرتي..؟ قولي لا تخافي.. فأنا سأسحب من قهرك من أذنه (مثل التوتو) ليركع عند قدميك..

ضخّتْ كلماته الواثقة في روحها كلّ ما في الدنيا من قوة.. فهي تعرف والدها، يستطيع أن يفعل أي شيء.. فلن تنسى ما فعله يوم قالت له:

. إن القمر يُلاحقني في طريقي إلى المدرسة يا أبي.. يمشي معي، يتوقّف حيث أتوقّف.. وكأنه يُراقبني..!

صرخ والدها يوم ذاك في وجه القمر.. زجره.. فلم يعد يُراقبها.. وباتت حرّةً تبوح لرفيقها بما تحسّ..! تنهّدت بارتياحٍ عند مرور هذه الصورة في مخيّلتها.. وأخبرت والدها أن الذي كان حبيب طفولتها، ورفيق صباها هجرها، وأحبّ غيرها.. انتفض والدها، أزاحها عن صدره، نظر في عينيها، وقال:

. إن لم يعد هذا الكلب، ويتمسّح عند قدميك، لأنذرنّ نصفك لعزرائيل..!

ارتجفت أوصالها لسماع هذا الاسم.. لكن والدها هدّأ من روعها.. حقن روحها بالأمان..

وهو يقول:
. ما قصدته يا بنتي أنه سيعود إليكِ، فلا تخافي..
لكنه لم يعد.. مات والدها، ولم يعد حبيبها.. وباتت رهينة نذرٍ تُحسّ خطورته، ولا تعرف معناه..! ولا طريقة الوفاء به..
تنهّد عزرائيل بارتياح وقال:
. ها أنا جئتُ أستوفي ما نُذر لي..
بخوفٍ وإشفاقٍ طلبت أن يُمهلها قليلاً، لتُودّع حبيبها قبل أن تُسافر هذا السفر الذي لا رجعة بعده..
في هذه الأثناء، أتاها صوت ابنتها من الغرفة المجاورة، وهي تكلّم أحدهم على الهاتف.. سمعَتْها تقول:
. لا.. لا.. لن أتزوج أبداً، لا منكَ ولا من غيرك..! لا تحاول إقناعي، فجميعكم سواء.. كلكم أموات، جثث..! والله أتزوج من عزرائيل، ولا أتزوج أيّاً منكم..!
ارتجفت أوصال عزرائيل غيظاً..! ونزّ الغضب من أردان أجنحته.. وهمهم:
. ألهذه الدرجة أنا مكروه..؟! مكروه أكثر من جثّةٍ في عينيّ صبيّة..!
آلمها حزنه وانكساره الذي يُحاكي انكسارها..! اقتربت منه، حاولت أن تمسح بأصابعها على عباءته.. وقالت له:
. تزوجها يا سيدي.. فربما يكون وفاء النّذر بهذه الطريقة.. فهي نصفي أليس كذلك..؟
وانتظرت أن تسمع ردّه على عرضها السّخيّ.. انتظرت، وهي مُغمضة العينين، مأخوذةٌ بفكرة مصاهرة عزرائيل..! وعندما لم تسمع جواباً، فتحت عينيها، فلم تجده.. هزّتها رعدةٌ دفعتها لمغادرة غرفتها، والتّوجه إلى غرفة ابنتها، تعثّرت بعلبة دواءٍ فارغة..
. ويلي.. صرخت جوارحها..
. إنها الحبوب المُهدّئة التي وصفها لها الطبيب، شربتها عن آخرها..!
انكبّت عليها، هزّتها، صفعتها، دلقت على وجهها برميل ماءٍ دون جدوى.. نقلتها إلى المشفى، وهناك غسلوا معدتها، وأعطوها ما يلزم من الحقن (والسيرومات)، حتى استعادت وعيها.. جلست أمها على سريرها، والرعب يقطر من كيانها.. تأمّلت عينيها المُغمضتين على حزنٍ يُقطّع القلوب.. وسرحت فيما تخيّلته في غرفتها.. فتهدّجت روحها الكسيرة:
. يا لي من مجرمة.. آثمة..! كيف أطلب من عزرائيل أن يتزوج ابنتي، ويأخذها بدلاً مني..؟! أتراني أتمنّى موتها، لأرتاح من نظراتها التي تجلدني..! أأهرب من جريمتي بحقها، بمحاولة قتلها..؟! الويل لي من مجرمةٍ حقيرة..!
(تزوجها يا سيدي..)..؟! كيف قلت له ذلك..؟! وماذا لو امتثل لرغبتي..؟! أتراه سيأخذ أحداً

بعدها..؟ أم أنه سيعتزل قبض الأرواح..؟ وستفرح العجائز.. وينسجن الحكايا حول المدافئ في ليالي الشتاء.. التي لن تكون مرعبة، ولا مُنذرةً بالموت بعد زواج عزرائيل..! وربما انقرض الموت من العالم، وحقّقت البشرية الخلود الذي تتمنّاه..! لكني لا أريد ذلك.. فلتذهب الدنيا برمّتها إلى الجحيم، ولا تُصاب صغيرتي بأذى..

انحنت عليها، قبّلتها، غسلت وجهها بدموع ندمها، التي سيطول انهمارها..

ـ ٦٢ ـ

الأيام تمضي، ورؤيا تذوي كغصنٍ خسر نسغهُ، وتكتسبُ ملامحها قسوةَ لم تعتد عليها..! قلّ ذهابها إلى كلّيتها هرباً من الناس، فالجميع باتوا بنظرها خونة.. زملاؤها، أساتذتها، حتّى قاعات الدروس باتت بنظرها مختبراتٍ تُنتجُ جرذاناً..!! أمّا كتبها ومحاضراتها فلم تعد ترى فيها إلا الكذب والرّياء..! الدنيا برمّتها لبست ثوب العري الفاجر.. منذ تلك اللحظة التي انهارت فيها أمها، وسقطت من علياء الطهارة، إلى حمأة الدنس..! حاول بعض زملائها وزميلاتها إعادتها إلى سابق عهدها، زاروها في بيتها عدّة مرّات، لم يروا على وجهها مسحة البراءة، التي كانت تُميّزها، ولا في تصرّفاتها تلك اللّباقة التي أحبوها..!

جامدةً كانت وباردة، لا تعطي حقّاً ولا باطلاً.. سألوا أمها عن سرّ تحولها المخيف، قالت:

. إنّها مريضة وستعود قريباً إلى طبيعتها..

لكنّ جميع المحاولات باءت بالفشل.. حتّى إجازة ظلال شارفت على الانتهاء، ولم تستطع أن تفعل لها شيئاً..

. لم يبق من إجازتي سوى يومٍ.. ولم أتقدّم خطوةً واحدة، كيف أشرح لها الأمر، وأنا لا أجرؤ على مواجهتها..؟؟ خجلي من عينيها يستهلك شجاعتي..

ما الحلّ إذاً..؟؟ غداً سأعود إلى عملي، كيف سأتركها، وهي على هذه الحال..!! يا إلهي ساعدني..!! ابنتي تموت أمامي، وأنا أقف عاجزةً.. لابدّ لي من فعل شيء.. لابدّ.

تدخل إليها، تجلس على سريرها، تمسح شعرها، تقبّلها بحبّ، وتهمس لها:

. رؤيا حبيبتي.. أرجوك اسمعيني.. فأنا..

تُشيح الفتاة عنها بحركةٍ عنيفة، فتحتضن الأم كتفيها، تُديرها نحوها.. تتلاقى الأعين لحظاتٍ فيشبّ الحريق..! تدفن الصبيّة رأسها في فراشها، وتنتحب.. تشهق كما يليق بعاشقةٍ مفجوعةٍ رأت بعينيها أفظع مهرجانات الانهيار..!

لكن ظلال مصرّةٌ على الكلام، فهي تريد أن تفعل أيّ شيء، يُخفّف من فجيعة ابنتها، ويُعيد

لصورةِ الأم ألقها في عينيها:

. اسمعيني رؤيا، يجب أن تسمعيني، ارحمي قلبي يا بنتي.. فما تفكّرين به ليس صحيحاً.. فأنا ما سطوت على حبّك.. غريبٌ وأنا حبيبان قبل معرفتك به، والحبّ قدرٌ لا خيار لنا فيه.. ولا مهرب لأرواحنا منه.. وأنا بحاجةٍ له، أنا بحاجةٍ للحبّ مثلك، وربّما أكثر..!

فأنت ما زلت صغيرةً، والحياة أمامك، الخيارات متاحةٌ لك.. أمّا أنا فعمري شارف على الختام.. رؤيا.. أنت تعرفين أنّي أعشق الحياة، أعشق وجهها المشرق، فهل يشرق وجهٌ بغير الحب..؟؟ أوراق شجرتي شحبت، فكيف أخاتلها لتبقى مُعلّقةً على أغصاني دون حبّ..؟؟ وبأيّة طاقةٍ أؤجّل الموت إذا أنا أغلقت أبوابي دونه..؟؟!!

كلمة الموت ملأتها خوفاً على أمها.. أشفقت على نفسها، من يومٍ تبحث فيه عنها، فلا تجدها.. يومٍ تشمّ رائحته بين كلماتها، وتخاف أن يكون قريباً.. فترفع رأسها قليلاً، وترقّ لهجتها:

. أجل أمّي أنا معك.. أفهمُكِ، وأحسّ بك.. لكن ألمْ تجدي إلا غريب حبيبي ..؟؟

وانهمرت دموعها مُبشّرةً بانفراجٍ قريب..!

. قلت لك منذ البداية : أن علاقتنا أقدم.. صدّقيني ابنتي.

. لماذا إذاً خدعني..؟؟ أوهمني بحبّه لي.. علّقني به وطار..؟؟!!

. إنّه مريضٌ يا بنتي.. اعذريه كما عذرته أنا.

. لا تقولي ذلك.. لا تخدعيني مرّةً أخرى، أنسيتِ أنّي رأيت ما رأيت..؟؟

وتغمر رأسها في فراشها من جديد، تدفنه بوسادتها هرباً من صورةٍ تحرقها..!! ووجه أمها تكلّلهُ أزهار الخزي.. لكنّها لن تفقد الأمل، لن تتركها حتّى تقول لها كلّ شيء، فالهروب من الحقيقة لن يجمّلها، وتأجيل الانفجار لا يلغي إمكانيّة حدوثه في أيّة لحظة، تستجمع فلول قوّتها، تشحنها بنسغِ حبٍّ لا تقوى على هزيمته كلّ جيوش الأرض.. ترفع الوسادة عن رأسها، تحضنه، تخاطبها بما يشبه النّجوى:

. رؤيا حبيبتي.. لو استطعت أن أنتزع قلبي من صدري، وأزرعه بين جوانحك، ليزداد حبّك للحياة لما قصّرت، ولو استطعت أن أضيف إلى عينيك الجميلتين عينيّ الكليلتين، لتري الدنيا بكلّ وجوهها واحتمالاتها لما تردّدت.. فلا حبّ أقوى من حبّي لك.. صدّقيني يا طفلتي.. صدّقيني لو لم يحدث بيني وبينه ما يجعل زواجكما مستحيلاً، لما تردّدت لحظة واحدة بمباركة هذا الزّواج.. لكنّ الأمر كان منتهياً قبل بوحك لي.. وهذا ما قتلني..

. لماذا لم تبتعدي عنه إذاً بعد اكتشاف خيانته، لماذا لم تعاقبيه على جريمته..؟؟ كيف تستمرّين معه، وقد رأيت فيه أبشع صور الخيانة..؟؟ هل هانت عليك نفسك..؟! اخلعي عنك هذا الثوب الذي يمسخك..!!

ألا ترين كم تغيّرتِ، كم ابتعدتِ عن ظلال، وعنّي..!! أرجوك ارحمي نفسك، وارحميني.. اطردي

هذا الغريب من حياتك، لتعودي أنقى.. لتعودي أمي..!!

تتنهّد ظلال باحتراقٍ، لا يخفّف لهيبه سوى دموعٍ بلّلت شعر ابنتها.. وتهمس:

. آهٍ يا صغيرتي..! لو تعرفين كم أحبه.. لكن حبي له لم يمنعني من معاقبته.. وعقوبتي له ربطت مصيري بمصيره..! فما عدتُ قادرةً على هجرانه..

. كيف..؟ لم أفهم قصدكِ، لابدّ أنكِ تحاولين خداعي.. كما فعلتِ يوم أخبرتني أنه مريض، وعاجز عن الزواج..! ثم.. رأيتكما معاً.. اتركيني، ابتعدي عني، لا أريد رؤيتك.. أنت لستِ أمي، أنت خائنة.. خائنة.. ليت (خدّوج) جارتنا الأميّة كانت أمي..! إنها أفضل منكِ.. كلّ الأمهات أفضل منك..! وأنا لا أريد البقاء معكِ، لا أريد..

تُبعدها عنها بيديها المرتعشتين، تنزل من سريرها، تفتح خزانتها، وتُلقي بثيابها على الأرض.. ثم تدور في أرجاء البيت بحثاً عن حقيبة السفر، وأمها تدور وراءها، وهي تلطم خدّيها، وترسم بدموعها دوائر متشابكة مُتعانقة..!

استمر الدّوران المحموم . رغم أن رؤيا تعثّرت بالحقيبة عدّة مرّاتٍ، لكنها لم ترها .

مادت الأرض تحت قدميها، تسارعت حركتها، اختلّ توازنها، فارتمت فوق جسد أمها الذي سبقها إلى عناق الأرض..! دون أن تنتبه إلى ذلك..! استيقظت ظلال عندما سقطت ابنتها فوقها، جرّت نفسها إلى المطبخ، أحضرت الماء، بلّلت به وجه ابنتها ورأسها، فتحت رؤيا عينيها بتكاسل، آلمها أن ترى وجه أمها مُتورّماً.. ذبحهُ الخوف.. وأنضجهُ اللطم..! فاستجابت للمسات حنانها، ورمت رأسها في حضنها، تنهّدت ظلال، وذرفت عيناها ما تبقّى فيهما من دموع.. وهي تقول:

. سامحيني ابنتي، اغفري ضعفي..! وتأكّدي أني حاولتُ الابتعاد عنه.. جرّبت شتّى الأساليب دون فائدة..! ربّما أنا لا أريد الابتعاد..! ربما تكون ظلال (العاشقة المجنونة) التي تسكنني، هي المسؤولة عن فشلي..! فهي تمنعني من فعل ما يؤلمها.. تسدّ عليّ كلّ السبل المُؤدّية إلى خنقها، أو التّخفيف من حدّة جنونها..! تُقنعني دائماً أنها على حقّ، وأنها وجهي الحقيقي..! أقنعَتْني تلك التي تلبسني أنْ لا حياة لي دونه..

. ماما.. ماما.. تناديها رؤيا، وهي تهزّها، لتعود من رحلتها، وتسمعها.. فقد أدركت أن عينيّ أمّها بعيدتان الآن.. وروحها تهيم خارج حدود الزمان والمكان..!

. أمي.. إنها تخدعكِ.. اقتليها.. تخلّصي منها، عودي إليّ ظلال.. آن لك أن تستفيقي، افتحي عينيكِ لتريهِ على حقيقته..!

. أرجوك رؤيا لا تشتميه.. كان ضائعاً.. تائهاً.. غريباً.. والتّائهُ يتخبّط في الطرقات، يعشى على الدّروب، إلى أن يجد سبيله، فتهدأ روحه، وها قد وجد غريبٌ السبيل، وعاد إلى نفسه وإليّ..!

بخبثٍ طفوليّ أجابتها:

. لكنه أحبني بعدما وجدكِ.. فبمَ تُفسّرين ذلك..؟ وأيّ تبريرٍ ستخترعين له..؟ أحبّني أنا.. ابنتك.. أتعرفين معنى ذلك..؟!

. أجل أعرف.. لا.. لا.. ربما.. لكنْ.. ما أريد قوله: أننا عندما تلاقينا، ظنّ أني محطّة من تلك المحطات.. التي لابدّ من عبورها ليصل، ويلتقي ذاته.. فتابع السّفر، لكنّ الغشاوة تبدّدت عن قلبه، عندما شعر أنه سيخسرني.. رؤيا حبيبتي.. تعرفين أن من يمشي في دروبٍ مظلمةٍ طويلاً، ويخرج فجأةً إلى النور تصعب عليه الرؤية، يحتاج لفترةٍ حتى يتأقلم مع الوضع الجديد، ويضع الأمور في نصابها، وهذا ما حدث معه..! رؤيا.. غريب يحبني.. يحبني حقاً، وما شدّهُ إليكِ هو وجودي داخلك، وشبهكِ بي.. فاصفحي عنه، سامحيه أرجوكِ.. اعذري تخبّطه من أجلي.. ثقي بي يا بنتي.. فغريب ليس وحشاً.. إنه إنسان.. يمرّ بلحظات ضعفٍ، كما يمرّ بلحظات قوّة، والقويّ يا بنتي من يستطيع استيعاب ضعف من يحبّ..

تُعانقها رؤيا لحظاتٍ، لكنها لا تلبث أن تبتعد عنها، وتُسدّد إلى عينيها نظراتٍ لائمة:

. لكنك أمي، أمي.. وأنا لا أستطيع أن أراك إلا أمي.. لا أستطيع تقبّل وجودك في موقعٍ آخر..! مهما كان مهمّاً بالنسبة لك، ثم.. ألا يكفيك حبّي لك..؟ حبي أنا يا ظلال..

ألا يكفيك..؟!

تحضنها أمها، تضمّها بقوّةٍ إلى صدرها، وتتلاقى دموعهما..

. أجل يا بنتي يكفيني.. عودي إليّ، إلى صدري، إلى حياتك الطبيعيّة، وأنا أعدكِ أن أقتل غريب في داخلي.. أعدكِ أنني سأحاول..

تتنهّد رؤيا بارتياح، وتشرق البسمة على محيّاها.

_ ٦٣ _

بعد العرس توارى غريب، وكلّ مسامات كيانه تهذي:

(سنكون اليوم عروسين.. وكنّا.. آآآآه.. كنا عروسين..! دميتين غبيّتين بيد القدر..! رسم لهما المسار كما يشتهي، عصبَ أعينهما، ورماهما على الحلبة، أمام عملاقٍ دينُه وديدنُه الانتصار.. وسحق من يُسوّل له عشقه الخروج عن نواميسه..! فكانت الضربة القاصمة، التي لا قومة بعدها، نسينا أو ربما تناسينا: أنه لا عرس من أيّ نوع، وفي أي مجال دون أختام..! فهل ستقوم لقلبينا قائمة بعد اليوم..؟ لا أظن أني سأجرؤ ولو بعد حين على مجرّد السؤال..! عمّن سأسأل..؟ أعن تلك الصبية الصغيرة، التي هشّمتُ قلبها أولاً، ثم شوّهتُ صورة الأمومة في عينيها..؟! أم عن الأم التي استوعبت ضعفي، جبرت كسوري، وجمعت شملي إلى ذاتي..

فخسرتْ بسببي طهر الأمومة في عينيّ وحيدتها..؟
كيف ستكون حالة البنت بعد ذلك..؟
لا أظن أنها ستعيش طويلاً، وإن عاشت فعلى هامش الحياة ستبقى مُنكفئةً على عُقدها.. حانيةً على انكساراتها.. وأنا كذلك يجب أن أعاقب نفسي، أن أجلدها، وأحرمها.. فمثلي لا يليق به أن يمارس حياةً طبيعية، سأبقى في غرفتي حتى ينقضي الأمر.. لن أبرح هذا السجن ،حتى تُطلق ظلال سراحي..) .

ـ ٦٤ ـ

وقف غريب أمام لوحةٍ يُحاول أن يضع عليها لمساته الأخيرة.. خاطبها بما يشبه الهذيان:
. هذه أنت أيتها المسكينة.. نعم.. هذه أنت.. أنتِ..
وأطلّ من اللوحة وجه امرأةٍ فاتنةٍ، تُشبه تلك الرّسوم العتيقة للعذراء، أو لأمّه كما رسمها في طفولته.. لكنها الآن تُحاول بألمٍ مداراة صدرٍ عارٍ..! وأحد ثدييها مقطوعٌ بكسرةٍ من لوح زجاج.. والجرح يقطر حليباً.. دماً على وجه رضيعٍ كيسوع..!
. نعم.. هذه أنتِ..
يبلّ فرشاته بالألوان، وهو يهذي:
. هذه أنت.. أرضعتِنا دماً.. رغم أنك تختزنين كل هذا الخير العميم..!
يرتعد كأن تيّاراً كهربائياً يهزّه، وهو ينفث كلماته، ويبدأ بطعن اللوحة بالفرشاة، فلا تهدأ روحه.. يتناول مدية الكشط، ويطعن الوجه الملائكي في لوحته، حتى تسيل الدماء من الصورة، وتملأ أرض الغرفة، ممتزجةً بالحليب الطازج..
يمرّ عليه النهار كصفحةٍ طويلة من كتاب الضجر..! مُتعثّراً بأشلاء الأثداء.. باكياً.. صارخاً.. غاضباً.. مُزمجراً.. مُهدّداً السّقف والجدران بقبضتيه..!
وحين يقلب ورقة الأمس، يُشرق اليوم ناصعاً.. فينهض رضيّاً.. ينظر إلى اللوحة المشروخة، ويهتف:
. يا إلهي.. ماذا فعلت..؟!
يلمّ بقايا القماش عن الإطار، ويمدّ قماشةً أخرى، وهو يقول:
. كان عليّ أن أرسم الشيطان عساف، وأسجنه في اللوحة بدل المسكينة..!
ويبدأ الرسم..
. هيا أيها الحاج عساف، يا جدي.. اظهر لي كعادتك.. أم أنك لا تجرؤ.. حسناً.. أنا أعرفك

جيداً، أحفظك عن ظهر قلب..
ها هي عينك اليمنى الخبيثة، ثم اليسرى التي تبزّ أختها دهاءً.. ثم الأنف.. الأنف بفتحتيه الواسعتين كمغارتين شرهتين..! والفم الشهواني الذي لعنته جميع النساء اللواتي سال لعابه على أجسادهنّ.. واللّحية الكستنائيّة المُشذّبة، كأنما سوّتها مسطرة مهندس فنّان..!
هيّا يا حاج.. ابتسم الآن.. اضحك، قهقه..
استمرّ غريب يخاطب رسم جدّه عساف، دون أن ينتبه إلى شبحه الذي بدأ بالظهور من كومة الأوراق المدعوكة.. وهو يقول مقهقهاً:
. ما الذي تفعله يا ولد..؟ أترسمني..؟
ويمضي ليتخذ وضعيّة(الموديل).. أمام ذهول غريب الذي تسقط الريشة من يده.. فيبحث عنها، وعيناه مأخوذتان بشبح جده الذي كان كما وصفه تماماً..!
يضحك عساف، ويأمره:
. هيا ارسم يا ولد.. ارسم فهذا أفضل لك..
استفاق غريب من نصف دهشته..! فتعثّرت أصابعه بريشة الرّسم، وضعها مع الألوان على الطاولة، ومضى نحو الشبح:
. حسناً يا جدّي.. انظر إلى اليمين قليلاً..
وراح يسوّي وضعيّة الشبح (الموديل) كمُصوّر:
. سوِّ شاربك الأيسر، فهو مُتهدّلٌ قليلاً، أتعرف يا جدّي بماذا حلمتُ ليلة أمس..؟
ضحك الجد وهو يسأل حفيده:
. أحلمتَ بعد أن قطعتَ ثدي أمك (المسكينة)..؟! ونمتَ في بركةٍ من دمها وحليبها أيها العاقّ..؟!
. ابقَ هكذا لا تتحرّك يا حاج.. لا تتحرّك.. جيد..
ويُتابع حديثه معه محاولاً تبرئة نفسه من تهمة العقوق:
أنا لستُ عاقاً.. ولكنْ أنت.. أنت لم تترك فسحةً للبرّ بكَ..! فأنا عشتُ يتيماً لطيماً..! لم أعرف أمي بسبب طغيانك، أما ابن عمّي فلم تعرفه أمه.. فقد أجهضته كي تُخلّصه من سلالتك..! . قلتُ لك سوِّ شاربك، ألم يعد لديك شمعٌ له..؟ ارفع شاربك الملعون..
ارفعه كعادتك...
. اخرس يا ولد.. يصرخ عساف، وهو يُسوّي شاربه.. أتلعن شاربي أيها النّذل..؟
يضحك غريب ويقول:
. ألا تدري كم من اللّعنات نزلت على شاربيك..؟! فلتحتمل هذه أيضاً..!
ابقَ مكانكَ حتى أنتهي من رسمك.. كنتُ أقول لك: إن امرأة عمي (صلاح) أجهضت عندما

جاءها نبأ استشهاد زوجها في فلسطين..

. لا تذكر أمامي اسم ذلك اللص..

صرخ عساف غاضباً.. بينما انهمك غريب بالرسم، وهو يقول:

. نعم.. نعم.. اظهر على حقيقتك يا عساف.. اغضب، اشتم، العنْ.. ولكنْ.. أتلعن عمّي الشهيد..؟!

أجابه جدّه، وهو يصفع الفراغ:

. إنه أسوء من أبيك.. سرق مالي، وأعطاه للذين تُسمّونهم مُجاهدين.. كما سرق بندقيتي أيضاً، وحين جاؤوني بخبر مقتله، وجلبوا بندقيتي ملفوفةً بثيابه الملطّخة بدمه الجاحد.. أحرقتُ الجميع.. وعندها جنّ جنون امرأته، فأسقطت جنينها من أثر الصدمة.. والتحقت بأهلها.

. ليست وحدها من فعلت ذلك يا عساف، فنساؤك تركن بيتك بعد موتك بأيام.. ذهبت كلّ منهن إلى أهلها، غير آسفةٍ على شيء.. وربما أهداهنّ موتك راحةً مُشتهاة..!

. اخرس يا ولد.. أتعتقد أنك تُهينني بهذا الكلام..؟ لا يا حبيبي.. لا..! فلم تكن أيٌّ منهن أكثر من جاريةٍ في بيتي.. جاريةٍ تحلم بأن يمتلئ بطنها بطفلٍ منّي.. لكني حرصتُ على إبقاء تلك البطون فارغة، جائعة إليّ.. لتبقى ذليلةً أمامي..! وحدها جدّتك أم مالك من فازت بالحمل منّي.. وليتني حرمتها ذلك.. وارتحتُ من هذا النّسل التّافه.. تفووه..

. يا لطيف..! يا لطيف..! زفر غريب باحتراقٍ.. وأردف: لم أتخيّل أبداً وجود إنسانٍ بهذه الدّناءة..! لكنْ لا.. لا.. الأمر طبيعيّ.. لا بل أكثر من طبيعي..! فمن يصف ابنه الشهيد باللّص، والجاحد.. ويُسمّيه قتيلاً.. يمكنه أن يفعل أيّ شيء.. أيّ شيء..

. اخرس أيها التّافه..

صرخ عساف وهو يخرج من الرّسم، ويلطم حفيده الذي يقع أرضاً.. وتعود اللّوحة فارغةً.. بلهاء.. وكأن أحداً لم يضع عليها خطاً أو لوناً..!

_ ٦٥ _

عادت ظلال إلى عملها فرحةً بنجاحها في أصعب مهمةٍ واجهتها، فقد بدأت الحياة تسري خجولةً في عروق ابنتها من جديد.. ونجح حبها في ترميم ما خربته عبثيّتها..!

وعدتها أنها ستعود قبل نهاية الدوام، لتصحبها إلى مطعمٍ، سمعت أنه يردّ الروح..! كادت تبرّ بوعدها، لولا أنها مرّت في طريق عودتها عليه، أرادت أن تُبشّره بالتطورات الجديدة، فقد طال غيابها عنه.. خاتلتْ قلبها طويلاً ليسمح لها بذاك الغياب، كانت تُراهن على خنق مشاعرها، إذا فشلت في إعادة الحياة إلى ابنتها.. فروحها كانت تُردّد طيلة الأيام الماضية:

. إما أن نحيا معاً، أو نموت معاً..

لم تشأ أن تتصل به قبل حضورها، فهي لا تريد للمفاجأة أن تُبذّر سحر ألوانها في فضاءٍ لا يملكانه وحدهما..! قرعت الجرس كأنها تعزف على آلةٍ موسيقية، تُتقن اللعب عليها.. لم يأتِ الجواب.. أعادت الكرّة عدة مرات، تمتمت متوجسةً:

. أين سيكون في هذا الوقت..؟ حسناً سأدخل، وأنتظره قليلاً، فربما يكون في مكانٍ قريب، يُحضر بعض حاجاته.

تُخرج المفتاح من محفظة يدها، وتفتح..

تجده مُسجّىً على الأرض، أمام لوحةٍ لم ينتهِ من رسمها بعد.. فما زالت رائحة الألوان تحوم حولها، أنفاسه مُتقطعة، وشفتاه يابستان، انهمرت عليه، رفعت رأسه عن الأرض، وضعته في حضنها..

. ما بك حبيبي..؟ غريب.. افتح عينيك.. أنا ظلال.. عدتُ إليك..

لم يستجب.. تهزّه بقوة دون جدوى، ترتعد جوارحها ذعراً، تدور في أرجاء الغرفة بحثاً عن شيءٍ لا تعرفه.. أخيراً تهتدي إلى ما يجب عليها فعله، تتصل بالطبيب، ثم تحضر كوباً من الماء، ترشّ به وجهه، يفتح عينيه بتكاسل، تلمح على شفتيه ظلّ ابتسامةٍ سرعان ما تتلاشى..! يصل الطبيب، يفحصه بدقة، عيناها تلاحقان يديه وسماعته، وهي تتمشّى على بطنه وصدره، تستمطره كلمةً تُطمئنها عليه..

. لا تخافي سيدتي الأمر بسيط، إنه مجرّد إعياء، يبدو أنه لم يأكل منذ مدّة.

يُعلّق له (سيروماً) يحقنه بأدويةٍ مقوية، سرعان ما تأخذ مفعولها في دمه، يفتح عينيه، ويعود لونه تدريجياً، يُعطيها الطبيب الوصفةً، ويُعدّد لها أنواع الأطعمة التي يجب أن يتناولها، كي يعود إلى حالته الطبيعية، تهمّ بالخروج بعد انصراف الطبيب، يستوقفها بنظرةٍ مُنكسرة.. ترمقه بحب:

. سأعود سريعاً غريب، لا عليك حبيبي.

تغيب بعض الوقت، وتعود بالدواء والطعام، تسقيه قليلاً من العصير، يبتلعه بصعوبة، يتمسّك بيدها، يشدّ عليها، تتراخى يده بسرعة، يحاول أن يقول شيئاً، تلثم جبينه بحنان:

. لا تقل شيئاً حبيبي، اهدأ، استرح الآن، تُغطّيه، وتبدأ بإزالة الفوضى من أرجاء الغرفة، تستوقفها اللوحه: تتأملها، ترى فيها طيراً جريحاً يتهاوى، يتخبّط في حضن سماءٍ جاحدة..! وجهها يتلامح في أحد جناحيه، وفي الجناح الثاني يتلامح وجه غريب، قلبُ الطائر ينزّ دماً، يتجمّع بحيرةً يغرق فيها وجه رؤيا..! تتذكّر موعدها معها..! فتتصل بها:

. اعذريني ماما، سأتأخر اليوم، لم أستطع أن أفي بوعدي، سامحيني، أكلّمك لاحقاً.

وتعود إليه، تغمره ابتسامتها:

. أنت رائعٌ حبيبي..!

وتلثم أنامله بتعبّد.. وهي تهدل:

. هذه الأصابع المُبدعة، لن أسمح لك بإهمالها، أو إهانتها بعد اليوم..!

تسألها عيناه عن التّطورات..؟

فيُجيب قلبها:

. اطمئن.. لا تشغل بالك، كلّ شيء على ما يُرام.. حاول أن تنام قليلاً..

وأنا يجب أن أغادر الآن، لن أغيب عنك.

ـ ٦٦ ـ

كما تُعيد الحياة ترتيب نفسها وتنظيفها.. تُشيّع فصلاً، وتلد آخر.. لتتجدّد معه، وترمي عن كاهلها رواسبه، كذلك أرادت رؤيا أن تفعل، بعدما أدركت ضرورة الخلاص من عبوديّة انتظار الغريب.. بعثرت أشياءها، كتبها، أوراقها، حتى ثيابها.. أرادت أن تُمزّق كل ما يُذكرها به.. ودّت لو تخلع جلدها، أو تكوي مواقع قبلاته عليه.. شرخت كلّ ثوبٍ تمايلت به أمام ناظريه..! تعثّرت أصابعها برسمٍ كان قد أودعه بعض حبّه، قطّعت أوصاله.. رمته عند قدميها، أرادت أن تدوسه، وتُعفّره بغضبها، وحزنها.. وعندما همّت بتنفيذ مشيئتها، وجدت نفسها تلملم الأشلاء، تحضنها، تُقبّلها..!

أجفلها صوتٌ فحّ في داخلها:

(أمازلتِ هنا أيتها الحمقاء، والحبيب هناك..؟! اخلعيه عن عرش أحلامك، فهو بعيد.. بعيد..)

نزّت روحها:

بعيد..؟! نعم بعيد.. لا.. لا.. ليس بعيداً.. فنحن نسكن بيتاً واحداً، هو قلب أمّي.. وننام أيضاً على فراشٍ واحد.. نقتسم الأنفاس، الدماء، وحتى الأحلام..! فكيف يكون بعيداً، وهو حبيب ظلال.. حبيب أمي..! وأنا وإياه نسكن وطناً واحداً.. نعيش على نفسِ الماء والهواء..؟! غريبٌ وأنا مدينتان، أو ضيعتان من وطنٍ واحد.. بيننا من الروابط ما لا يمكن بتره، أو الاستغناء عنه..! فكيف يكون غريباً..؟! لكنه لا يعبأ بي.. يُريد أن يكون لها وحدها، أو ربما هي من تُريد ذلك..! آآآه يا ظلال.. هل أستطيع أن أنسى أنكِ حبيبة حبيبي..؟! ضرّتي..؟! ضرّتي وحبيبتي..؟!

آهٍ يا ظلال.. يا موتي وحياتي..! يا وطني وغربتي..! ربّاه.. كيف السّبيل إلى النسيان..؟ كيف.. كيف..؟! وأنتَ يا غريب.. كلما ظننتُ أني برئتُ منكَ، نبتَ في داخلي عرْقٌ يزهو بنسغكَ.! دمي يخونني معك يا غريب..! جسدي.. والروح..! فأين المفرّ..؟!

أين الخلاص..؟!!

_ ٦٧ _

استعاد غريب قوته، وعادت الدماء تهدر في كيانه دفّاقةً بعشق البقاء.. فقد هدمت ظلال جدران سجنه، وأصدرت قرارها بإنهاء إضرابه عن الحياة:

. اسمعني حبيبي: لابدّ أن نُفكّر بجدية بأسلوب حياتنا، فهذه العبثية لا تُنجب إلا الضياع..

. أرجوكِ ظلال لا تفتحي دفاتر الماضي، رائحتها تزكم روحي، تؤلمني، وأنا مازلتُ في طور النقاهة، مازال جرحي طرياً، لا يحتمل الصدمات..!

. ما بك غريب..؟ حاول أن تكون موضوعياً.. نحن نتحاور وحسب، نناقش واقعنا، لنقف على نقاط قوته وضعفه، تعامل مع الموضوع بشيء من العقلانيةِ يا رجل..

. تفضّلي يا ربّة العقل.. ضعي النقاط على الحروف، فكلّي آذانٌ مُصغية..

تجاهلت رائحة الهزل في كلماته.. وقالت بجديّة:

. قل لي: هل سألتَ نفسك يوماً: ماذا فعلت في كل هذه السنوات التي مرّت..؟ ماذا تُراك أنجزت.. وهل هذا هو غريب الذي يُمثّلك..؟!

يتنهّد بحسرة، وينزف:

. قلتُ لك لا تنكئي الجراح.. لا تُذكّريني بسلبيتي، بعجزي، فأنا خجلٌ منكِ ومن نفسي.. من غريب الذي ينتظرني هناك.. على مشارف المستقبل.. كما تقولين..

تبتسم بثقة، تشدّ على يده قائلةً:

. ها أنت تعرف واقعك، وتحاول الهروب منه.. لم يبقَ إلا أن تبحث عن الحلّ، عن الدواء وتقرّر الشفاء..

. ماذا تقصدين..؟ أنا لا أريد الشفاء..؟!

. أجل حبيبي.. فالإرادة هي أهمّ أسباب الشفاء.. وأنت تعرف كم ناقشنا الموضوع من قبل، واتّفقنا، ورسمنا الخطط، لكن خططنا تساقطت بسبب ضعف عزيمتك، وأظن أنه آن الأوان لنتّفق من جديد، لكن بشروطٍ جديدة..!

. شروط..؟! ما هي هذه الشروط..؟!

. شروطٌ علينا الالتزام بها معاً..!

. تفضلي سيدتي.. قولي ما عندك.

. أمامنا طريقان لا ثالث لهما..

يتضاحك غريب من لهجتها الغريبة، ويقول:

. ما بكِ تتحدّثين كمُنظّري السياسة..؟! الحياة . صديقتي . أبسط مما تتصورين، دعيها تمشي على رسلها.. لا حاجة لتعقيدها، وخنقها بأغلال الشروط والتعليمات..

ردّت مُستنكرةً مُحتدّة:

. أتريد أن تتهرّب كعادتك من المسؤولية..؟ لن أسمح بذلك.. إنها فرصةٌ أخيرةٌ أمنحها لك..

فإما أن تكون جديراً بالحياة، فأبقى معك وإمّا..

. إمّا ماذا..؟ أيمكن أن.. أتقسينَ عليّ ظلال..؟ أيستطيع قلبك أن يطردني من رحمته..؟

. قلبي لا.. لم يستطع، رغم أني وعدتُ ابنتي بذلك.. لكن عقلي يستطيع، وربما أعطي لعقلي السلطة هذه المرة.

ينحني أمامها بحركةٍ مسرحيّة، ويقول ضاحكاً:

. وها أنذا أقدّم لسلطانك فروض الطاعة..!

. أتظن أني أمزح غريب..؟ لا حبيبي.. لا.. سأضع حبك لي على المحكّ، فقد تساهلتُ معك كثيراً، وربما دلّلتُكَ أكثر مما ينبغي، فأفسدتك..!

أدرك غريب أن الأمر جدّيّ، وأنه مهما ماطل فلن يستطيع تغيير ما عزمت عليه، إنها تُؤسس لحياةٍ طويلة سيقتسمانها معاً، وقد ملّت بناء قصور الوهم على الرمال المتحركة..

قال بصوت القبول، ونغمة الرضا:

. ماذا عليّ أن أفعل، قولي حبيبتي..

. قلتُ لك من بداية حديثنا: أمامنا طريقان فإمّا أن تبحث عن عمل، تلتزم به، ويتابع كل منا مشروعه الثقافي منفرداً، وإمّا..

تصمت قليلاً، وتُردف:

. لا أعرف إن كنتُ أستطيع الوثوق بك من جديد..!

تتجهّم ملامحه ويقول صوته الواجف:

. أقسم إني أحمل لك ما هو أكبر من الحب.. فكيف لا تثقين بي..؟ لماذا تعذبينني بشكّك..؟

يا (ستّي).. كنتُ صغيراً وكبرتُ، آثماً وتبتُ.. أما آن لغفرانك أن يكتمل..؟ ألم أسامحك أنا على ما فعلته بي..؟

ونزع عن عينيه نظارته السوداء، وأردف بشيءٍ من الغضب:

. انظري إلى هذه العين المشوّهة، ألا يُبرّد مرآها غليلك..؟ أتدرين أني كلما نظرتُ في المرآة، حقدتُ عليك، وتمنّيت لو كنتِ قريبةً مني، لأخنقكِ بيديّ هاتين، لكني سرعان ما أغطّي تشوّهي بسواد نظارتي، وأردّد بصوتٍ عالٍ . ربما لأقنع نفسي وأُسكت نواحها . : هي فورة غضبٍ ليس إلا، فظلال لم تكن بوعيها، كانت جريحةً.. وجئتُ أنا بكلّ برودٍ، لأضع الملح على الجرح..! فأنا مَن أوصلها إلى تلك الحالة..! لماذا لا تلتمسين لي الأعذار كما ألتمسها لكِ..؟

. مهلاً حبيبي..

قالت، وهي تُداري ألمها بالابتسام: مهلاً.. فأنا ما قصدتُ هذا الجانب أبداً، كنت أتحدث عن لقمة العيش، أتُنكر أنك خذلتني كثيراً في هذا المجال..؟ لم تستطع أن تثبت في عملٍ أكثر من شهر.. فدائماً تجد المبرّر للهروب، ودائماً مُسوّغات انسحابك أقوى من موجبات بقائك..

صرخ في وجهها بصوتٍ جريح:

. ماذا..؟ ماذا تقولين..؟ أنا أهرب، وأبحث عن مسوّغات الانسحاب..؟! أم أن تلك الأعمال، التي ما حصلت على أيّ منها إلا بشقّ النفس.. تستهلك الروح والجسد.. بلقمةٍ هزيلة..؟!

ابتسمت بمرارة، وهي تربت على كتفه، لتُهدّئ من روعه، فتُكمل ما جاءت من أجله.. ولما رأته يعود إلى طبيعته، قالت له:

. اسمع غريب.. الموضوع الذي أتحدّث فيه اليوم مصيريّ.. فأرجو أن تسمعني بكل جوارحك..

أومأ برأسه موافقاً، فتابعت حديثها:

. ما رأيكَ أن نحرق تلك المرحلة، ونبدأ من جديد..؟

. أجل حبيبتي. فهذا ما أتمناه..

نعم.. سأحرقها يا غريب.. لكن رمادها لن يموت..! سأحتفظ به، كما يحتفظ الهندوس برفاة أمواتهم.. وكما تتمسّك أنت بحفنة ترابٍ وُلدتَ عليها..! وإن لم تأتِ ولادتك الجديدة، سأبعث النار في المواقد المهجورة، لتحرق ما حملتَهُ رمزاً لوجودك.. لن يبقى لك ذرّة تراب تحمل رائحة قدومك، ولن يبقى لك في داخلي مُتّكأ ولا مُستراح..!

. أنا معكِ.. اقترحي ما تشائين، وسترين أني لن أخذلكِ، لن أخذل غريب، لأنه يعيش في عينيكِ..

أشرقت ضحكتها.. رقصت غبطة الأطفال على ملامحها..! قبّل أناملها.. وهمس لها:

. أُجزم أنكِ لم ترثي مكر النساء، ولم تتعلّميه..! فما تُحسّينهُ يبدو على وجهكِ جليّاً..! هنيئاً لي بوجهك الصادق، وقلبك الملائكي الكبير..!

. وعقلي الصغير.. أليس كذلك..؟

. لا حبيبتي.. فالقلب الكبير لا يعيش إلا في كنف عقلٍ كبير..!

. اسمع حبيبي: ما رأيك بالرواية التي أكتبها..؟

. جميلة.. جميلة جداً..! ألا يكفي أنك صاحبتها لتكون كذلك..؟

. أعرف تماماً أنك لا تُجاملني، فقد تعوّدنا أن نقرأ بعضنا بموضوعية، ونعطي آراءنا عاريةً من المشاعر، فما رأيك أن تُحوّل هذه الرواية إلى عملٍ دراميّ..؟

. تقصدين تحويلها إلى مسلسل..؟ أحقاً تقصدين ذلك..؟

. أجل.. أجل.. أعطيك الفصول التي أنجزتُها، لتعمل عليها، بينما أُنهي أنا ما تبقّى منها.

يضحك بحبور، وتترقرق كلماته:

. يا لها من فكرة..! سنعيش أنتِ وأنا العمر عمرين..!

. لا بل ثلاثة أعمارٍ يا فهيم.. قالت بحبّ..

. كيف.. كيف ذلك..؟!

. العمر الأول: حياتنا معاً.. والثاني: صورة هذه الحياة على صفحات روايتي، أم أنك نسيتَ أني أكتب قصتنا معاً.. والثالث طبعاً: المسلسل الذي ستعاهدني على إنجازه..

أجابها بما يشبه الإنشاد:

. أعاهدك حبيبتي.. وافرضي عليّ العقوبة التي تشائين، إذا قصّرت..

. قطع .

يعارك غريب الأوراق المتراكمة أمامه، يعجنها بعصبيّةٍ، ويرميها على الأرض، وهو يصرخ:

لماذا أعيد ما كتبته ظلال، بأسلوبها وروحها وكلماتها..؟! أتراني لا أعرف (الدراما).. وأنا المطّلع على أساليبها، وتقنيّاتها..؟! فالقصّة إذاً ليست قصة عجز.. ربما يكون إعجابي بما كتبتْ هو السبب..؟ فما كتبَتْه أخذني من ذاتي، عطّل جميع أدواتي، حتى لم يبقَ منّي إلا ظلٌّ لها.. خيطٌ من نسيجها.. ويا ليته كان نافعاً..! أيكون نكوصي لأني لا أريد الكتابة، لا أريد لهذا العمل أن يولد..؟ فأنا لم أكتب كلمةً واحدة خاصّة (بالدراما) إلا كلمة (قطع)..! وقد جاءتْ رغماً عنّي، عندما نبق رأس جدّي من بين الأوراق ليؤنّبني، ويقطع انسيابيّة الرواية..! لكني تابعتُ العمل مُتحدّياً جبروته، مُتجاهلاً نصائحه.. ثم جاءت كلمة (القطع) بعد ذلك عدّة مرّات.. لا أدري لماذا..؟ وأيّ رأسٍ كان يبزغ من بين السطور، ليقطع عليّ عملي..؟!

يُقلّب الأوراق من جديد، يقف على المشاهد التي تحكي حياته، يقرؤها، يتمعّن فيها، وكأنه يقرؤها للمرّة الأولى..! فيصرخ فزعاً:

. يا إلهي..! أهذا أنا..؟! إنني عارٍ تماماً..! قبيحٌ هذا العريّ..! والله قبيح..! كيف لم أعترض عليها، عندما كانت تقرأ لي ما تكتبه يوماً بيوم..؟

لم أكن أراه مؤلماً، لم يكن يجرحني..! أتراه صوتها وهو يقرأ مفاصل عمري، يمارس لوناً من ألوان السحر.. فلا أسمع فيما تقوله عيباً، ولا أرى فيه انتقاصاً، أو غضّاً من شأني..؟! أم أني كنتُ أتقبّل ما تقوله، لأنها كانت تنقل أحداث حياتنا من الواقع إلى الورق، فيدفعني خجلي منها لقبول ما كتبته..؟!

أو ربما اعتبرتُ في لحظةٍ ما، ما يُكتَب عنّي تكفيراً عن أخطائي.. وللحقّ أقول: إنها تعرفني

أكثر مما أعرف نفسي.. فقد عرّتني لتُصلح من شأني.. تعاطفت معي، فسّرتْ حماقاتي، وجنوني تفاسير جمّلتْها.. وغفرتها لي.. فأنا أعرف، أو ربما عرفتُ منها أني بعيد عن ذاتي.. خصيم إنسانيتي..! وأعرف أكثر من ذلك بكثير..! آهٍ لو تعرف ظلال كلّ ما مرّ بي..! أحمد الله على أنّي عتّمتُ على شطرٍ من ماضيّ، رغم إلحاحها على معرفة كلّ ما أتذكّره من طفولتي.. اقتطعتُ من سِفر حياتي أوراقاً، ورميتُها في بئر الموت..! ماذا لو عرفت ظلال أنّ طفولتي اختُصرت.. وبرغم عمري تفتّح، لا كما تتفتّح البراعم هوناً..! كبرتُ باكراً على يديّ تلك الأنثى.. في الصفّ السابع كنتُ، أجلس في المقعد الأخير وحدي، فاتنةً كانت..! تقتربُ منّي، تُراقب ما ترسمهُ أصابعي.. تبسم لي، تهزّني ابتسامتها التي لا تُشبه غيرها.. يرتجف القلم بين أصابعي، وتتيهُ خطوطي.. تجلس قربي، تغمرني غمامة عطرها، تلفّني بوشاح فرحٍ غامض..! تُمسك يدي، ويمشي قلم الرّصاص القصير على خطوطي المُتلعثمة.. ليرسم ما تودّهُ أن يكون.. وعندما تلسعها حرارة يدي، تنظر في عينيّ، وتهمس:

. ما بك.. لماذا كلّ هذا الخجل..؟ ألستَ الرّجل الصّغير.. أم أن الجميع يُسميكَ (الرجل) وأنت مُجرّد طفل..؟!

لا أعرف بماذا أجيب، تتركني وتتجوّل بين المقاعد، حتى ينتهي الدرس، ويخرج الطلاب إلى باحة المدرسة، أحاول اللحاق بهم، تستوقفني:

. غريب.. خذ هذه اللوحة إلى القبو.

أحملها، وأنزل، أدخل المكان المعتم، تدخل ورائي، تُغلق الباب، وتُلامس شفتاها خدّي.. تمسك يدي، تضعها بين فخذيها.. أرتعش خوفاً وطرباً.. و.. تضمّني إلى صدرها، تهمس لي:

. أنت رجل يا غريب، وأنا أحتاجك..

تحتاجينني أنا يا آنسة..؟ أجيبها مُستغرباً..

. نعم.. أنت لا سواك..

تلمع عيناها النرجسيتان.. وتنقضّ على شفتيّ، فيغمرني عبيرها.. أُحسّ بدوارٍ لذيذٍ يأخذني إلى عالمٍ بعيد..! عالم لم أكن أعرفه، ولا أتوقّع وجوده.. وعلى الباب تستوقفني قبل خروجي:

غريب.. أنت رجل ها.. لا تُخبر أحداً، تعال إليّ.. إلى بيتي.. لأعلمك الرسم، فأنت موهوب..

وصار بيتها جنّتي، التي أدخلها كلّ أسبوع مرتين، أتعلّم شتّى فنون الرسم والنّحت، والكتابة على الماء والضياء..! كبرتُ باكراً على يديها.. أحببتُها، وأحببتُ ذلك الرجل الكهل زوجها.. كان كبيراً عليها، حتى أني اعتقدتُ أنه والدها، وكنتُ أخطّط في سرّي أني سأخطبها منه في يوم ما..! بحتُ لها بذلك، ضحكتْ، وبكت، وهي تقول:

. إنه زوجي، إيّاك أن يُلاحظ أيّ شيء..!

ارتجفتُ هلعاً.. واستنكرتُ كلّ ما حدث بيننا..!

قالت بكلماتٍ مخنوقة:

. غريب.. أحببتك بكلّ جوارحي.. وأنا بحاجةٍ لك.. فهذا الرجل لا يعني لي شيئاً.. لأنه لا يعرف من الدنيا سوى المال والأملاك..!

بكيتُ على صدرها.. رجوتُها ألا تتركني، وأحسستُ في تلك اللحظة أنني أحب زوجها.. أحبّ نذالتهُ ودناءته..! فلولاهما ما كانت هالة لي..!

ماذا لو رأتْ ظلال هذا الشطر من ماضيّ..؟ ماذا لو عرفت أن روحي فقدت عذريتها، من زمنٍ بعيدٍ.. بعيد..؟! لابدّ أنها كانت ستبني عليها الكثير.. وكانت ستكرهُ موهبة الرسم عندي، وتربط ولادتها بهالة، وربما تخلّتْ عنّي لاعتقادها بدنسي.. أحمد الله أني أخفيتُ عنها الكثير، وأن شطراً من الماضي مازال مدفوناً في غياهب ذاكرتي..!

لكنّ ما عرفتْهُ، وكتبته عنّي ليس قليلاً.. ولا أحتمل أن يكون مكشوفاً، فنحن نتقبّل عرينا، نواقصنا، نرى عوراتنا.. تشوّهاتنا.. لكن أن يراها الناس..! فهذا من الأشياء التي

لا نحتملها..! فهل أستطيع حقن شخصيتي في رواية ظلال بدم الحياة..؟

لا أظنّ أني قادرٌ على ذلك، فأنا لا أستطيع تقبّل انتقادٍ بسيط لطبق طعام، أظنّ أني أتقن طهيه..! فكيف أتحمّل ملايين الأعين، وهي تنهش حياتي، وتتطفّل على مواقع ضعفي..؟!

لا يا ظلال.. اعذريني.. لن أستطيع..

يتخيّلها واقفةً أمامه بشموخٍ..! عيناها السوداوان تُمطران لؤلؤ العتب.. وهديل صوتها يُحيل حجرات عقله أبراج حمام:

. لماذا لا تستطيع غريب..؟ ألستَ أنت منْ روى لي قصة جدّه، وزواج أبيه وأمه، ألم تبسط أمامي تاريخك، مذ وعيتَ على الدنيا حتى لحظة تلاقينا..؟ إذا كنتَ تخجل من كل ذلك، فلماذا تركتَهُ يغادر مكمنه..؟ هل ضاق الصدر بمكنوناته، ففاض رغماً عنك..؟!

تُجيبها لهفتهُ:

. صدّقيني حبيبتي أنني بحتُ لك بكل ما يؤرّقني، دون خجلٍ أو تبكيت..! وكأني كنت أعترف أمام ملاكي، المُوكّل بالإنصات إلى تهويمات روحي المذعورة لمسح خطاياها..! لكنّ ما عرفته بعد ذلك: أننا قادرون على ارتكاب أبشع الأفعال، وتبريرها لأنفسنا، التي تركنُ لمسوّغاتنا، ونحن نعلم أن جميع مبرّرات أخطائنا، لا تتعدّى حبّة مُسكّنٍ أو مُهدّئ، تؤجل الإحساس بالألم، لكنها لا تُلغيه..! غير أننا إذا رأينا ما فعلناه ماثلاً في أعين الآخرين، نُصاب بالذعر..! كأننا اكتشفنا لتوّنا بشاعة ما قمنا به..! غريبٌ أمر الإنسان..! يسرق وهو يعرف أنه يأخذ ما ليس له، ومع ذلك يبقى مُعتدّاً بنفسه، حتى يعرف الآخرون فعلته، عند ذلك فقط يخجل..! ويُحسّ بالوضاعة..! وهذا ما حدث معي..

لكني ما شعرتُ بهذا الشعور أمامك من قبل، الآن فقط أحسستُ أني أرتجف برداً.. عرياً..

خجلاً.. دثّريني ظلال بوشاح الرضا، واعذري عجزي..!

تفور براكين غضبها في وجهه:

. ماذا يعني ذلك..؟ أتنقضُ اتّفاقنا من جديد، أتدوس كل ما خطّطنا له بأقدام استهتارك..؟!

. أقسم إنه ليس استهتاراً.. لكنه الخوف يمشي في عروقي، فيحوّلها شجرة صقيع..!

. إلى متى ستبقى محكوماً بشبح الخوف، الذي لا مبرّر لوجوده..؟ فمن أين سيعرف الآخرون أنك البطل في الرواية.. ؟ أنسيتَ أن وجهك الحقيقي مطمورٌ تحت العديد من الأقنعة..؟

. لكني أخاف من نفسي، من ردود أفعالي.. أكره أن أرى (غريب) عارياً.. افهميني ظلال.. الموضوع ليس بهذه البساطة.

رآها تخرج من بين الأوراق، على فرسٍ يحدوها اليأس، وتدفعها الخيبة لوداعه بكلمتين تنخران عظامه:

. ماذا ستفعل إذاً.. لم يبقَ أمامك إلا أن تُفتّش الدنيا بحثاً عن عملٍ تستطيع العيش منه.. مجرّد العيش..!! وتترك الكتابة لأهلها، لأولئك الذين لا يأنفون من تقديم أنفسهم قرابين على مشرحة الفنّ خدمةً للحياة.. اتركها لأولئك الذين يُقدّمون تجاربهم، ثقافتهم، مواهبهم، وحتى عقدهم للفنّ.. للإنسان..! هؤلاء هم الأبطال الحقيقيون..! فلا أثواب تستر أرواحهم..

ولا عمليات تجميلٍ تُلمّعها..!

لم يحتمل أن تُسقطه فلسفتها من قائمة المبدعين، أو الأبطال منهم، فهو يرى نفسه على قمّة الهرم، لكن الظروف تُجنّد كلّ طاقاتها ومواهبها، لتضع العصيّ في عجلاته، وتخترع له كوابح لا رادّ لها..! فار الدم في عروقه، ارتجفت أوصاله، احمرّت عيناه، وارتفع صوته مُدوياً كأنه يخاطب جيشاً معادياً:

. اسمعي ظلال.. اسمعيني جيداً: أنا مبدع، لا بل بطل المبدعين رغماً عنك، وعن الناس جميعاً.. ومقاييسك ومقاييسهم لا تعنيني.. لن تكون سقفاً لي.. سقوفكم الواطئة لن تطأ رأسي.. أفهمتِ.. سقفي الوحيد هو السماء.. لكني لن أكتب ما تريدين، لن أكون كما تشائين، حتى ولو كان ما تريدينه خيراً لي.. وهذه روايتكِ.. خذي .. خذي.. خذي..

وراح يُمزّقها.. يُمزّق.. يمزّق.. فتفور الدماء من جروح الأوراق، لتصبغ كفّيه.. لكنه لا يتوقف، يتابع التمزيق، بيديه، بأسنانه، حتى يتخضّب وجهه بدماء الضحايا.. ويقطر الدم من فمه ولحيته مُلطّخاً صدره، فيزداد ضراوةً، وهو يرى مِزق الرواية أرواحاً تنبض في أرجاء المكان..! ينشب أظافره في وجهه وعنقه، وتختلط دماؤه بدماء ضحاياه.. يسقط أرضاً بين الجثث والأشلاء.. يصرخ مأخوذاً، والزبد يفور من شدقه:

. قتلتُها.. أجل قتلتُها..! قلعتُ عينها.. كما قلعت عيني..! هه هه هه.. لا.. لا.. لستُ أنا.. إنه هو.. هو.. وتُشير إصبعه المتردّدة إلى أماكن مختلفة.. وَجِهاتٍ مُتعاكسة.. وهو يرتجف كناسكٍ

في أرضٍ تضجّ بالشياطين.

ـ ٦٨ ـ

حاول غريب في اليوم التالي، أن يعود إلى حالته الطبيعية، فكنس من ضميره، وأرض غرفته أشلاء الرواية..! لكنه ما عاد قادراً على مواجهة ظلال، ماذا سيقول لها بعدما قتلها..! لم تعد القضية العالقة بينهما قضية التزامه بعمل، أو نكوصه وتراجعه، فالموضوع بات أعمق.. ونتائجه أخطر.. فهو يعلم أنها أعطته النسخة الوحيدة من روايتها، أعطته الكرّاس الذي وُلد عليه عملها، وعايشها لحظةً بلحظة لأشهرٍ طويلة..! شرب دموعها، تفاعل معها.. استوعب حبها.. فأعطته الكثير الكثير من روحها.. والآن ضاع كلّ ذلك، فما عساها تفعل، وهي لم تعد تملك من روايتها، إلا الفصل الأخير، الذي اضطرّت لكتابته على كرّاسٍ آخر..؟

آه.. آه.. ارتعشت روحه:

ـ ليتني أعدتُ الرواية لها.. واعترفتُ بعجزي أمامها.. أتكون مصادفةً أن تُشرَخ روايتها قسمين، ولا يبقى منها إلا نهايتها.. ؟! ماعساها تفعل بالنهاية..؟ ماذا تفعل الأم بثياب ابنها، إن وصلتها بعد مقتله مُعطّرةً بدمائه..؟! أتراها تُعوّضها عنه، أم أنها تُذكي النار في أحشائها، كلما مرّ عليها النسيم..؟ لقد انتهى كل شيء، أنهيتُ كل شيءٍ بيديّ هاتين.. فلن تري وجهي بعد اليوم يا ظلال.. لن أجرؤ على الظهور أمامك أبداً.

اتّصل بها: أخبرها أنه سافر إلى قريته، وسيبقى هناك حتى يُنهي كتابة المسلسل..

آلمها ما قاله.. عاتبته على سفره دون علمها، أو حتى وداعها.. لكن الأمر انقضى، ولابد من تقبّل ما اختاره الحبيب..

لم تدرِ ظلال أنه الآن حبيس غرفته، يفكّر فيما سيأتي من أيام، ماذا سيفعل الآن، وهو أعزل من كلّ شيء..؟ فلا عمل يشغله، ويأكل منه، لا حبيبة تُسدّد فواتير نكوصه، الغرفة التي بات مُهدّداً بالطرد منها، يراها طائراً ينفضُ جناحيه، ليرميه عنهما إلى القاع.. فواتير الماء والكهرباء تُراقصهُ على (شفا جرفٍ هار).. ولا من مُنقذٍ أو مُعين.. فكّر بالموت، رأى شبحه يقترب..!

ـ لكن.. كيف.. كيف سأموت..؟

جأرت روحه المشروخة..

ـ وهل الموت طوع أمري..؟! أتراه يمتثل لي بسهولة، وأنا لا أملك من أدواته إلا هذه السكّين..؟

يُمسك بها، يتفحّصها، يمتحن قدرتها على فعل ما يريد، يرميها أرضاً:
. (تفوه) حتى أنتِ أيتها العجوز تتخاذلين..؟! أسنانك أكلها السّوس.. وعظامك أصابها الكساح..
يا إلهي.. حتى الموت لا أملك أدواته..! لا أستطيعه..!
يشعر بالغثيان، يفتح نافذة الغرفة، يقف عليها، يفرك عينيه بذهولٍ..
وكأنه يرى العالم لأوّل مرّة:
. ماهذا الذي أراه..؟ متى نبتت هذه الأبنية الجميلة هنا..؟! وهذا الشارع الرحب متى اتّسع صدره..؟ تلك الشجرة..؟ ألم تكن مجمعاً للغبار، والأكياس الفارغة..؟ إنها تشعّ نقاءً..! وجوه الناس حلوة.. مشرقة..! كلّ شيء بات جميلاً..! تزيّن الجميع، خلعوا أسمالهم.. تجدّدوا.. تُرى ما السّر وراء كل هذا..؟ أتُراهم يحتفلون بموتي القريب..؟ أكنتُ عبئاً عليهم.. ليفرحوا بموتي..؟ أم أنني كنتُ أعمى.. لم ألتفتْ إليهم حتى شارفتُ على مغادرتهم..؟
ياه.. ما أجمل الحياة..! ليتني أستطيع أن أبقى من رعاياها فترةً أخرى، ما السبيل إلى ذلك..؟ خسرتُ كل شيء، هل أعود إليها، إلى ظلال.. وأخفي عنها ما فعلت..؟ أُماطلها، علّي أطيل مدّة بقائي على ذمّة الحياة، حتى تكتشف جريمتي.. ؟ لكنّ عينيّ ستفضحان ما أخفي.. وحدها نظراتها تُقشّرني.. تُسقط أقنعتي..! لا.. لا أجرؤ.. الموت أهون.. ووداع كلّ هذا الجمال الذي اكتشفتُه الآن أسهل..!
يُعاود التّحديق عبر النافذة، يتنهّد بعمق، ويُفكّر للمرّة الألف بالحلّ، يُطارد كلّ بارقةٍ تلوح له.. ويصل في النهاية إلى ذات النتيجة:
. لابد من العمل.
يفتح دفتراً صغيراً، يستعرض أسماء معارفه:
. مروان أحمد.. إنه صاحب المعمل الذي اشتغلتُ به مؤخراً، سأتّصل به..
يعتذر الرجل عن إعادته إلى عمله، فالمكان لم يعد شاغراً.. اسم آخر يطلبه، والجواب واحد لكن بأسلوبٍ مختلف.. تكرّرت الاعتذارات، تلبسُ شتى الألوان، تحمل على أحرفها طيوراً، نعيقها يصمّ أذنيه، يُصيبه بالدوار..!
يُتمتم خائباً:
. لن ألوم أحداً، فأنا من نسجتُ كفني، نسلتُ خيوطه من جلود النساء.. عشرات النساء..!
ظننتُ أن بياضه لونُ الحياة، ناسياً أن البياض لون الموت أيضاً..!
يُغمض عينيه، وتعبر مُخيلته صور النساء، اللواتي عرفهنّ، تخيّل الكثيرات بشتى الأوضاع.. لم يختلج فيه عرقٌ.. ولا اهتزّ لذكراهنّ رمش..! همس لنفسه بمرارة:
. لم تعد أية واحدةٍ منهن تعنيني، أو تُثيرني..! لكني لا أريد الموت، وعليّ التمسّك بثوب إحداهنّ، لتنقلني إلى ضفّةٍ أخرى، ضفّة النجاة..! لكنّ واحدةً لا تكفي، فثوبٌ واحدٌ لا يقوى على

حملي.. ولن يستطيع تحمّل أعبائي منفرداً..

لابد من وجود امرأتين أو أكثر، للقيام بما كانت تقوم به ظلال..! سأختبئ من الموت خلف أجساد النساء..! فهو لا يجرؤ على إظهار وجهه القبيح، أمام كلّ هذا الجمال..!

يفتح دفتره الصغير من جديد، يبحث عن أسماءٍ بعينها: " بيان أبو العز " يقرأ الاسم بصوتٍ مسموع كأنّه يُرتله:

. نعم سأكلم بيان أولاً، فقد كانت الأكرم بين مَنْ عرفتُ قبل ظلال..!

فما قضيتُ معها ليلةً إلا وأكرمتني، ووضعتْ في جيبي ما يكفيني لأسبوعين، وهي تقول:

. لا تحزن حبيبي.. أنا أعرف أن ظروفك صعبة.. فلا تخجل منّي..! يطلبها، فيأتيه الجواب حيادياً، بارداً:

. الرقم المطلوب مفصول من الخدمة..

. لا بأس سأطلب سوسن، فهي أيضاً كانت تُقدّر ظروفي..

يسمع صوت رجلٍ على الطرف الآخر يقول بخشونة:

. أنا زوجها، من أنت، وماذا تريد..؟

يسارع بإغلاق الخط قبل أن يسمع مُكلّمه طبولَ قلبه الوجل..!

. لابد إذاً من الاتصال بمرام، فهي تحتلّ المرتبة الثالثة في تفهّمِ الأوضاع..

يأتيه الجواب: " الرقم المطلوب مفصول.."

. أنتِ أيضاً..؟ لا أحد يُريد أن يتذكّرني..!

يركل جدران الغرفة بقدمٍ من غضبٍ وحزنٍ ونار.. ويخرج مسرعاً ليعود بعد أقلّ من ساعة، يسكب النبيذ الرخيص الذي اشتراه، في وعاءٍ واسع، يفتح علب (الكرتون)، التي تضمّ كتبه وأوراقه، يُخرج منها كتب السياسة، الخاصّة بأحزابٍ عمل تحت لوائها حيناً من الزمن.. وكرّاسات جمعيات حقوق الإنسان، والاتّفاقيات الدولية، يضعها جميعاً في الوعاء، ويضع فوقها صُحف اليوم، ونُتف رواية ظلال، مزجَ الجميع بالنّبيذ، أضاف للخليط الماء السّاخن، وراح يُقلّب الأوراق، ويُراقب النّظريات والشّعارات وهي تتحلّل، وتتحوّل مع شخصيته، وباقي شخصيات الرواية إلى سائلٍ أسود.. يعصر الخليط بيديه، يُصفّيه، يسكبه في كوب، يُضيف إليه قليلاً من الملح وهو يقول:

. هذا ما كان ينقصكم لتُقدّموا الحياة..!

يتّصل بظلال، يقول لها بتشفٍّ:

. اقرئي الفاتحة على روح روايتك وحبيبك.. الوداع..!

يتربّع على الأرض، وهو يُمسك بيده منقوع الموت، يتأمّل الكأس التي يعلوها الزّبد الملعون.. يرى في كلّ فقاعةٍ كلمةً تُمسك رمحها الأسمر، وتُهدّد به باقي الكلمات.. ويفور الزبد على وجه

الكأس، كلماتٍ مُدجّجة بالتناقضات..! جيوشاً مُتحاربةً تتأرجح بين الموت والحياة.. بين الله والجحيم..! يضع الكأس على فمه.. يُفاجئه شبح جدّه.. يضرب الكأس بعصاه، ويصرخ به:

. لا يوجد مُنتحرون في سلالة عساف أيها الغبيّ..!

يُجفل غريب، ويلوذ في زاوية الغرفة، ليتسنّى له التقاط أنفاسه.. ثم يصرخ في وجه جده:

. نعم يا عساف.. لا يوجد منتحرون.. بل فاشلون.. مثل ابنك مالك ومثلي..!

سلالتك لا تُفرخ العجزة كما تزعم.. بل الوشاة والخونة والقتلة مثلك.. سأريك كيف سألبسك كما لبستني.. وأتقمّصك، لأفعل بك ما تستحقّ.. سأرسلك إلى الجحيم.. جحيم الاندثار والنسيان.. سأغرقك في حمأة الحقد الذي بذرتَه..!

انظر يا عساف، انظر إليّ.. وأخرجَ من جيبه علبة ثقابٍ، أشعل عوداً منها، رفعه في وجهه متوعّداً:

. سأحرقكم جميعاً.. سأحرق تاريخكم..

أجابه عساف مُستهيناً:

. لن تجرؤ على فعل شيءٍ، فأنت مجرّد ولدٍ فاشل، تافه، يهرب من مسؤولياته بالانتحار..!

. لا أجرؤ..؟! إذاً انظر..

وأضرمَ النار فيما تبقّى من كتبه وأوراقه..

. أرأيتَ يا عساف..؟ لقد فعلتُها، ولن تستطيع إطفاءها، لأنك مجرّد شبحٍ عاجز..!

صرخ به جده:

. لا يا غريب.. لا يحقّ لك أن..

فيزمجر غريب: بل يحقّ لي.. وسأحرق حتى (مسكينتك)..! أجل.. سأحرقها.. وأحرقكم معها جميعاً..! وهؤلاء الموتى.. ما أن تصل إلى عظامهم مياه نيراني حتى تخضرّ، وتُزهر..! تتمطّى.. تمشي.. لا بل تفور، وتفور أحلامهم، تتدحرج وراءهم أكياس هموم.. وإن بُعثت العنقاء يا عساف لن أكون مجرّد شاهد..! فأنا الذي سيُرسل الريح اللافحة، وأنا من سيُشعل نار قيامتها..

قيامتها..؟! لا..لا.. إنها لا تستحق أن تُطهّرها نيراني.. فمنْ تُسلّم نفسها لمغتصبها يجب أن تمرّ على المطهر ألف ألف عامٍ حتى تستحق القيامة..

ويخرج مسرعاً من الغرفة التي بدأت تستسلم لغول اللهب.

***

يتنقّل غريب في أرجاء القصر، وهو يُشعل النار في الأثاث والستائر، ويصرخ مقهقهاً:

. ها.. ها.. سأحرقكِ أيتها المسكينة، سأحرق كلّ شيءٍ، حتى غريب..! فلا يبقى لسلالة عساف من أثر..! تُريدين (دراما) يا ظلال..؟! تعالي إذاً.. تعالوا جميعاً لتشاهدوا أقوى وأجمل (دراما)

عرفتها البشريّة..! أنا الكاتب، والمخرج، والمنتج، والبطل، أما أنتم فممثّلون ثانويّون، و(كومبارس)..! فاذهبوا إلى الجحيم جميعاً..!

يظهر شبح عساف من جديد، صارخاً به:

. أيها الأحمق.. إنها ليست مسكينةً.. إنها العنقاء..! وأنا منْ جعلها مسكينةً..!

والعنقاء لا تموت.. لا تموت..!

يرعد غريب في وجهه، وهو يرقص على تخوم النار:

. لا تموت..؟! أتظن أنها طائر الفينيق.. وستنفض الرّماد عن جناحيها، لتُحلّق صوبَ الشمس من جديد..؟! ها.. ها.. إن كانت كما تقول فلتخرج من ناري، وإلا فلن أترك منها شلواً إلا وأحيلهُ رماداً.. فلا تقوم لها قائمة بعد اليوم..!

يُجيبه عساف مُستهيناً:

. لن تستطيع أن تفعل شيئاً..! وما نيرانكَ التي تُباهي بقدرتها، إلا زفرةٌ خفيفةٌ من جوفي..! ثم.. أنا أتحدّاك أن تحرق غرفتك، حيث مازالت صورة أمك التي نجتْ من حريقكِ القديم..!

. ها.. ها.. تتحدّاني..؟! بل سأفعلها..

يركض إلى غرفته، فيصطدم بشبح والده المثخن بالجراح والدماء، يسدّ بابها، ويصرخ في وجهه:

. لن أسمح لأحدٍ أن يقتل ظبية ثانيةً..

يتراجع غريب إلى الوراء قليلاً، قبل أن يُخاطب شبح مالك:

. حضرتَ أنت أيضاً..؟ لا بأس.. سنُكمل المهرجان إذاً..! سأحرق غرفتك، فشلك، ضعفك وهزائمك..!

يهرع إلى بابٍ آخر، فيسدّه عليه شبحا ظبية وشهلا، وتطلبان منه ألا يفعلها.. تُمسك كلٌّ منهما بإحدى ذراعيه، تشدّه إليها.. يقهقه عساف منتصراً:

ألم أقل لك إنك لن تقدر..؟ فأنت فاشلٌ حتى في التّدمير..!

يزجره غريب:

. قلتُ لك لا تتحدّاني يا عساف، لا أحد يتحدّى غريب.. سأحرق الجميع.. الجميع.. الموتى والأحياء معاً..!

ترجوه شهلا أن يُوقف هذا الجنون: أنا أمك يا غريب.. فهل تستطيع أن تحرق أمك..؟!

فيردّ عليها بحزم:

. أمي..؟! أوَتظنّين أني لا أدرك لعبتكِ القديمة..؟ وأنكِ جعلتني مطيّةً للوصول إلى قلب مالك..! تستّرتِ بالأمومة لتحقيق مآربكِ..! اغربي عن وجهي، أيتها الـ..

ولم يُكمل الشتيمة حتى كانت النيران تلتهم ثوبها.. فيضحك مُنتشياً..! وينادي:

. عساف.. عساف.. تعال انظر.. حتى الأشباح تحترق..!

ويقهقه عالياً كألسنة اللهب..! يُفلته شبح ظبية، فيهرع إليها مالك، محاولاً حمايتها.. يضحك عساف ساخراً:
. انظر إلى أبيك.. صاحب القلب الرّقيق..! فهو سبب البلاء مذ عشق ظبيته..! وفشل في حمايتها حيّةً وميتة..!
يترنّح مالك، وهو يحاول الردّ على والده، ويسقط أرضاً.. فينفلتُ الصّليب من عنقه، ويقع على الأرض.. بينما يرتفع صوت المؤذّن: الله أكبر.. فتهمد ألسنة اللهب، وتجرّر أذيالها خائبةً..! لتفسح لروح العاشقين مساحة رحمةٍ وأمان..! حتى النار التي كانت تمسك بأثواب شهلا تراجعت مذعورةً..! وغدا الثلاثة سكّانَ جزيرةٍ آمنةٍ في بحرٍ من النيران..!

يقرع جرس الكنيسة، ويعلو صوت المؤذّن، يستنهضان أهل (المسكينة العنقاء)، لإخماد الحريق.. فيضحك غريب:
. هيّا.. هيّا.. تعالوا أيها الخانعون، عسى أن تحترقوا..! هلمّوا أيها الفاشلون، فلن تلحقوا شيئاً.. دقّ أيها النّاقوس.. كبّر أيها المؤذن.. فلن تُفلحا في فعل شيءٍ.. لم تنجحا معي في ضعفي، فكيف الآن، وأنا ملك النيران..؟! انظروا إليها، حدّقوا جيداً.. لا شيء أبهى منها..! ولا أقدر على التّطهير..!
يزمجر عساف هازئاً:
. لن تنال منّي أيها الفاشل.. ولن تنال من مسكينتي.. فإن أحرقتَ هذه المسكينة، فسألدُ من ضلعي مسكينةً أخرى أطؤها، وأمتطيها..!
يردّ عليه غريب متشفّياً:
. وستلد غريباً آخرَ يقتلك..!
ويهجم عليه، ليُلقي به في أتون اللهب.. لكنّ شبح عساف يتلاشى، مالئاً فضاء المسكينة بالقهقهات..! وغريب يصرخ في إثره:
. إن نجوت هذه المرّة، فلن تُفلت بعدها أيها الـ..
تُقاطعه ألسنة اللهب التي بدأت تلتهم ثيابه..

على مشارف المسكينة وقفت ظلال مذهولةً..! عقد الذّعر لسانها.. تجمّدت الصرخة في حلقها.. وهي ترى شآبيب النار تتصاعد من قلب المسكينة.. لترسم في فضائها بيضةً عملاقة

من اللهيب، تنفجر عن طائرٍ ذهبيّ، يُحلّق صوب الشمس..! ويُثير جناحاه غباراً من شذرات اللهب..

تأمّلت المشهد، ومشاعر الإعجاب والهلع تعتمل داخلها..! تنقش في وجدانها كلماتٍ قالها غريب في لحظة جنونٍ خلّاقٍ كما أسماها:

(الجحيم تحت قدميّ.. وفي يومٍ ما سأفتح فوّهاته لأحرق كلّ شيء..! وأبيد كلّ هذا العفن..!)

دمعت عيناها أسفاً على رجلٍ كانت ترى فيه خلاصها.. رجلٍ تحوّل بغمضة عمرٍ من أملٍ إلى رماد..!

فتذكّرت أنه قال لها في ساعة صفاء: (إن أثداء الفردوس يا حبيبة ستمطر لبناً.. مطراً.. خلاصاً..!)

ابتسمت للذكرى، التي فتحت في عينيها نوافذ الأمل.. رفعت رأسها.. خُيّل لها أنها ترى وجه غريب يتلامح في عينيّ الطائر النّاريّ..! تنهّدت بارتياح.. وتلمّست وجهها الذي بلّلتهُ قطرات مطرٍ بدأت بالهطول.. فهدلت روحها جذلةً:

. أجل يا غريب.. إنه المطر.. إنها أثداء الفردوس تمطر لبناً.. ماءً.. قيامةً وخلاصاً..!

***

والقصّة لمّا تنتهِ..